الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد –تلمسان-
كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ
شعبة الثقافة الشعبية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه موسومة بـ:

العقم بين الطب الشعبي والطب الرسمي في المجتمع الجزائري

-دراسة في أنثروبولوجية الطب لمرض العقم-

من إعداد الطالب:
الطاهر براهمي

إشراف:
أ.د. العيد فقيه

لجنة المناقشة:

أ.د. عكاشة شايف	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. العيد فقيه	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
أ.د. محمد بشير	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
د. عبد المجيد مباركي	أستاذ محاضر (أ)	م. ج. النعامة	عضوا مناقشا
د. علام ساجي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة مستغانم	عضوا مناقشا
د. مختار بن ديدة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2015- 2016م

شكر

يظهر البحث العِلمي عادةً كتتويج لأعمال سابقة، ومن ثم فهو خلاصة قراءات أسسها أصحابها على أعمال من سبقهم، ولذلك كان البحث في العلوم الاجتماعية دوما ذا طابع تراكمي يُضاف اللاحق منه إلى السابق والجديد إلى القديم.

ومن نافلة القول أن أشير إلى أن الباحث لا يتيسر له أن ينجز عمله منفردا، لذلك كان دوما في حاجة مساعدة غيره، كيفما كانت طبيعة هذه المساعدة.

وإذا كان لا بد من أن أشكر أصحاب هذه المساعدة، فالواجب يقتضي مني أن أذكر على رأس هؤلاء الأستاذ الدكتور شايف عكاشة الذي قبل الاشراف على هذا العمل وتتبع مراحله ولم يبخل علي بالجهد والنصيحة إلى أن تنازل عنه مشغولا بمهام أخرى إلى الدكتور فقيه العيد الذي تولى مهمة متابعة الاشراف مشكورا على نصائحه وتوجيهاته التي كان علي احترامها والسير عليها، والاستفادة منها. دون أن أنسى الدكتور أشاطر مصطفى الذى ذلّل لي كثيرا من العقبات الإدارية قبل أن تصل هذه الرسالة إلى أيدي مناقشيها.

ولم يكن لهذا العمل المتواضع أن يبلغ نهايته لولا جهود بعض الأصدقاء الذي تحملوا مشقة قراءته ومراجعة لغته العربية، لأنه في أصله قد كتب باللغة الفرنسية في أكثر فصوله، وكان علي أن أنقله إلى العربية ليخرج بهذا الشكل الذي أتمنى أن يكون مفهوما وقادرا على تبليغ رسالته.

اتخذت الإثنولوجيا العادية منذ بدايتها التمثلات والتطبيقات الشعبية المتعلّقة بالمرض ومختلف معالجاته. وهذا بانصباب اهتماماتها بالخصوص على السحر ورجال الدين (الطالب مثلا) والمعالجين التقليديين وكل ماله صلة بالعلاج ''الديني'' الذي يتضمن نصيبا من الطقوس الخاصة بالمعالجة. ونجد هذا في كل الحضارات كما نجده عبر كل الأزمنة.

إلاّ أن الانثروبولوجيا الطبية كعلم فرعي للإنثروبولوجيا لم تنشأ إلاّ حديثا في الولايات المتحدة عام 1960 بهذه التسمية[1] عندما انتشر في فرنسا مصطلح انثروبولوجيا الصحة[2]، وهذا يبرز ميول الفرنسيين لتعدّى الجانب العلاجي إلى مجموع المركبات الاجتماعية والثقافية المتعلّقة بالصحة عامة.

وفي العصر الحديث أي منذ بداية هذا القرن، تنوعت انثروبولوجيا الصحة وتطورت من نظرية وأساسية إلى تطبيقية وتنوعت موضوعاتها. لقد تبنت أشكالا مختلفة للتعاون بين انتروبولوجيين المختصين وموظفي الصحة.

---

1 Medicalanthropology

2 Anthropologie de la santé

فأنتج إلى المرض، الأيدز مثلا، مجموعة هامة من الدراسات الأنثروبولوجية موضوعها النظرة إلى المرض والسلوكات الجنسية للسكان واللجوء إلى المعالجين التقليديين كما أنتج هذا المرضّ موضات' تهتم برجال الصحة ومواقفهم. والأكثر تمثيلا في هذا المجال هو 'مرض' العقم بمعالجاته التقليدية ونوع المتدخلين ومواقفهم ووضعية المرأة في المجتمع والعلاج الرسمي (الإنجاب المدعّم طبّيا) ومفهوم الأسرة، كلها مواضيع أثارت اهتمام علماء أنثروبولجيا الصحة.

وبين المدرستين الأميركية والفرنسية برز مصطلح آخر يُخرج هذا العلم من المجال الذي أُريد له أن يكون فرعا من علوم الطب وهو أنثروبولجيا المرض. لرفع هذا اللبس بين المفهوم المتضمن في المصطلحين الأولين والذي يستشف منه أن هذا العلم هو مساعد للأطباء يُظْهر لهم ما خفي عنهم وهذا من أجل العلاج.

كان المرض والصحة (وما زالا) يكوِّنان موضوع دراسات الأنثروبولوجيين من جانب ثقافي واجتماعي ومن جانب الحلول المقترحة من مختلف الفاعلين خارج النظام الرسمي العلمي. برز إلى الوجود مستويان متفاوتان، وإن تكاملا. الأول هو التمثلات والتطبيقات الشعبية العامة (علاجات داخل المنزل تتوارث أو تنتقل من فم إلى أذن بدون مختصين) أما الثاني فهوالتمثلات والتطبيقات الشعبية الخاصة (وتحتاج إلى ممارسين تقليديين مثل الطالب والسحار).

قد أغرى كلا المستويين الإثنولوجيين وخاصة العرض العلاجي المتضمن لشحنة سحرية–دينية (رقصات الجذب، طقوس علاجية دينية–سحرية، أكل غداء خاص. شرب سائل قرئ عليه. غسل أو اغتسال. حمل طلسم. زيارات أضرحة...). ولا يجب أن نغفل وجود نوع. خارج عن الشحنة الدينية–السحرية. من المستوى الثاني وهو يتضمن الفاعلين المختصين الذين يمارسون بطرق أقل

غيبية وتطبيقاتها لا تمُتُّ بشيء للدين مثل العشابين[1] والجبارين والقابلات ...

هذا التمييز بين أنواع من العلاجات الشعبية المتواجدة في كل الحضارات لا تعني تمييزا ترتيبيا لترجيح نوع على آخر من ناحية النجاعة ولا من ناحية العقل (التي باسمها يرفض الرسميون هذه الأنواع) ولكن التمييز يكون على أساس قاعدتها فيعتمد أحد المستويين على قطاع شعبي غيبي يغمره ما هو فوق الطبيعة ويعتمد الآخر على قطاع شعبي موجّه نحو الطبيعة والممارسات المتوارثة.

ويشترك المختصون الشعبيون من كل نوع مع زبائنهم (المرضى)، في نفس المرجعية والدلالات التي تجعل منهم (الأنواع الشعبية) أكثر إغراء من النظام الصحي الرسمي العصري ويُلجأ إليهم بناء على شيوع نجاعتهم (حقيقية أو مفتعلة) أو شهرة الفاعلين وهذا لا ينفي اللجوء إلى النظام الرسمي إن أمكن أو إن يئس المريض من إمكانيات النظام التقليدي، وهذا يختلف من منطقة إلى أخرى ومن المدن إلى الريف ومن توفر المؤسسات الرسمية أو عدمها كما للوضعية الاقتصادية للمريض جانب كبير في اتخاذ القرار.

وموضوع أنثروبولوجيا الطب من المواضيع قليلة التناول في مجتمعنا الجزائري رغم أن الأرضية جد خصبة لكون تعدد أنظمة الطب والتداوي (طب تقليدي. طب روحاني. طب حديث) حاضرا في كل بقعة من الجزائر، واستعملت كلمة قلة تفاديا لعبارة منعدمة التداول وهذا خشية من أن أكون قد قصرت في البحث عن الأعمال التي أنجزت في هذا المجال.

فإن كانت بعض المحاولات (محاضرات أو مقالات) قد اقتربت من هذا العلم لكون تعاطي

---

1 يعتبر العشانون أنفسهم ورثة الطب العربي وإن همشوا ظاهريا من طرف المجتمع بصفات ونعوت مختلفة مثل المشعودين. يضيف متحدثنا أن اللجوء إليهم لا مفر منه.

الطب البديل للطب الحديث متواجدا في الريف أو في الجنوب إلاّ أنها قد توحي بأنه غير موجود في المناطق الحضرية.

ويمكن كذلك استثناء بعض الكتب التي تكاد تقتصر على معاجم لأسماء أعشاب أو وصفات نجدها حتى على أرصفة الشوارع أو كتب ازدهرت مكتبات المدن بها. تهاجم تعاطي السحر مؤكدة على حرمته وتحث على الاستعانة بالطب النبوي والرقي الشرعية والحجامة.

نجد بعض البحوث لأجانب خاضوا في هذا العلم يتحدثون عن مجتمعاتنا لإبراز بدائيتها وحاجتها إلى التحضر والتمدن. تناول أصحاب تلك المراجع الأجنبية 'الآخر' المختلف عنهم، وكلما درسوا الآخر المختلف، أوغلوا في البحث عما يجعل منه متخلفا بدائيا يجب إصلاحه وتطويره، وإخراجه من تخلفه إلى دائرة التحضر. ويكفي أن نقرأ ملاحظة كاستورياديس، الأنثولوجي الذي استوعب نظرة 'البرورو'[1] للعالم بحيث أنه لا ينظر لهذا العالم إلا بنظرتهم لم يبق اثنولوجيا بل 'برورو' و'البرورو' ليسوا اثنبولوجيين'.[2] حتى ولو عرفت الأنثروبولوجيا تقدما ملحوظا بتعدد مجالات تدخلها إلا أنها بقيت خطابا عن الآخر المختلف.

ونشير كذلك إلى دراسات مغاربين تناولت موضوع أنثربولوجية الطب وكانت موضوع

---

1 قبيلة إفرقية تتنقل بين جنوب النيجر و شمال النيجيريا

2 ' L'ethnologue qui a tellement bien assimilé la vue du monde des Bororos qu'il ne peut plus le voir qu'à leur façon, n'est plus un =ethnologue, c'est un Bororo — et les Bororos ne sont pas des ethnologues…'Cornelius Castoriadis: L'Institution imaginaire de société, p 246 (sans date)

أطروحات بجامعات غربية (فرنسا. بريطانيا. كندا)[1] ولكن ما وجدته قليل بالنسبة لوجود التطبيب التقليدي أو الروحاني في بلادنا. ومنها ما لم ينشر وحصلنا عليه إما عن طريق المؤلفين أنفسهم أو عن طريق 'ألواب' الذي أصبح مصدرا ثمينا للبحث عن الوثائق.

الإشكالية :

عندما نتأكد من حالة عقر عند زوجٍ، نلجأ في بداية الأمر إلى ممارسات مألوفة داخل العائلة التي تكوّن المجتمع المصغر، ممارسات كثيرا ما تنتمي إلى نظرتنا للعقر. وهنا تتدخل الثقافة لإعلامنا بمختلف التأويلات التي موضوعها العقر. كما يكون الإعلام عن كيفية التكفل 'بالمريض'. والتعرّف على المتدخلين الاجتماعيين المتفاعلين داخل هذا 'الحدث' المقلق في سيرورة الإنسان.

إن العقر والسلام منه عنصران هامان من الحياة الزوجية لتفاعلهما مع المجتمع، يترتب عنهما قوانين وجودية واجتماعية لعنصري الزوج. ومن الأمور التي تكون ضمن إشكاليتنا هي تفسيرات للممارسات التي ما زالت تسود في المجتمع رغم التقدم المسجل في القرن الواحد والعشرين، وهل لهذه الممارسات نجاعة تُفسر الإقبال عليها، وكيف يتخطى المريض معتقداته إذا ما لم يتوصل إلى نتائج ترضيه وتعيده في مكانته على السلم الاجتماعي.

كما سنحاول تبرير إقدام المتدخلين على العلاج 'الرسمي' الآتي من مجتمعات تختلف كل الاختلاف مع مجتمعنا ثقافيا ودينيا. وسنرى إلى أي حدّ نجح الطب التقليدي في معالجة العقم؟ وفي حال نجاحه، هل يستند إلى تفسير عقلي؟ أم هو إيمان بمعجزة غيبية؟

---

1 Abdelwahed MEKKI BERRADA. *La portée thérapeutique et herméneutique de la BARAKA.* Thèse :Université Montréal 1997.

ما هي مكانة الطب التقليدي أمام نجاحات الطب العلمي المستعمل لتكنولجات ما فتئت تتطور؟

هل للطب التقليدي مستقبل؟ واستمراره هل هو مستند لثقافة معينة؟

من بين الفرضيات التي نطرحها للإجابة والتي نستخلصها من مكونات المجتمع المدروس:

الدين وما له من دور في اختيارات نمط العلاج والمعتقدات التي أُلصقت به من المبررات.

هل الوضعية الاجتماعية هيالتي تجبر على اختيار العلاج الأقل تكلفة؟

صعوبة اللجوء (بعيد أو غير موجود) إلى العلاج الرسمي-العلمي.

المنهجية

أما بالنسبة للمنهجية فحبذنا الطريقة الوصفية التحليلية وعززناها بالحوارات الميدانية واستعمال استجوابات عبر بطاقات وزعت على المعنيين. وهذا لإظهار المرض ووقعه في المجتمع الجزائري، وصف السبل المختارة من طرف المتدخلين وتحليلها ثم إبراز مصادرها ودوافع اختيارها. كما بادرنا بمقارنة نظامين للتكفل بالعقر، نظام تقليدي-شعبي وآخر رسمي-علمي.

واخترنا الجزائر كفضاء لدراستنا.[1] ولكن لم نغفل عن مقارنته بباقي البلدان المغاربية المجاورة (تونس والمغرب الأقصى) لتشابه المعتقدات والممارسات والطقوس.

وكان الحوار من بين الوسائل التي توصلنا من خلالها إلى مبررات بعض الممارسات وهكذا حاورنا

---

1 نظرا لشساعة الجزائر حددنا مجال البحث كما يلي : وهران حيث يوجد مراكز للتلقيح الإصطناعي وتلمسان حيث يوجد عدد كبير من الأطباء والعيادات المجهزة. كما ومدينة غليزان لسهولة الإتصال نظرا لتواجدي 3 سنوات كمسؤول. والمشرية وجنوب البيض لطابعهما الرعوي ووجود البدو الرحل. وهذا حتى نضمن عدد كبير من الشرائح في الجزائر.

أطباء وأزواجا لجأوا إليهم وآخرون حاورناهم أثناء ممارسة الطقوس العلاجية كما وجدنا من اتجه إلى الطبيب الرسمي والمعالج التقليدي في نفس الوقت أو متتابعين.كما زرنا العديد من الأضرحة ولخصنا هذه الزيارات وعززناها بصور.ومن بين من حاورناهم زميل لجأ إلى النظامين وأبى إلا أن يسجل تجربته كاملة

وقسمنا هذا البحث إلى فصول خصصنا الأول إلى العقر ووقعه على الإنسان عبرالتاريخ وفي المجتمع الجزائري. وسمينا هذا الفصل'**العقم بناء اجتماعي**'. خصصنا فصلا لهذا 'المرض' وتعريفاته ومسبباته سواء الحقيقية الظاهرة بعد الفحوصات العلمية أو الخفية الغيبة وسمينا الفصل'**الداء**'.

وكان من المنطق أن نخص للدواء فصلا، وعالجنا فيه الو سائل المستعملة والسبل المتبعة في السعي للتخلص من العقر. وسمينا هذا الفصل 'الدواء' كما ارتأينا أن نخص الإنجاب المدعم طبيا بفصل كامل لأهمية المكانة التي بدأ يتبوؤها في المجتمع الجزائري.

خصصنا فصلا لدراسة نتائج الإستجوابات المكتوبة وتحليلها وقارنها بما جاء في الفصول النظرية. لقد لجنا إلى أماكن حيث يتردد الراغبون في الإنجاب لتوزيع البطاقات ومن هذه الأماكن القبب حيث الأضرحة ومركز 'المولود' بوهران.

إن أنتروبولوجيا الطب موضوع رحب شاسع، تصعب معالجته في كل مجالته، ولذلك حاولنا أن نحصر مجال البحث في الطب التقليدي والطب الروحاني والطب الحديث فيما يتعلق بمرض واحد. واخترنا هذا المرض لما له من تأثير اجتماعي وبُعد أنثروبولوجي مميز، وهو مرض العقر الذي انشر كثيرا[1]. أسميناه مرضا لما يسعى الناس لعلاجه واتخذ هذا السعي وجوها متعددة ومختلفة منها ما تطور عبر السنين ومنها من بقي على وجهه الأول. فسوف ندرس ما تعارف عليه المجتمع الجزائري وكيف انتقل في بعض الأحيان إلى تبني ما وصل إليه العلم الحديث واستعمال التكنولوجيا الحديثة. فللجزائري قابلية للتنقل والتحويل من الطلسم إلى الاستنساخ بسهولة مدهشة وتكييف ما يفعل مع عقيدته وتقاليده. وهذا جزء من إشكاليتنا.

كيف يمكن أن يتجاوز الزوج العاقر التناقض بين تعليق طلسم (حجاب) وزيارة مركز للتلقيح الإصطناعي؟ كيف نفهم التزاوج بين تعاطي العاقر 'للمجمر' والسكانير أو جهاز تحليل المني؟ وكيف يمكن الانتقال من هذا إلى ذاك بسهولة مهما كانت ثقافة العاقر أو مستواه العلمي ؟ ما الذي يدفع بالعاقر أن يلجأ إلى ما هو غيبي وفي نفس الوقت إلى ما هو من قبيل الطب المتطور تكنولوجيا؟

ليس هدفنا أن نثبت أو ننفي شيئا أقرته الذاكرة الشعبية ولكن نريد أن نبحث كيف صمدت بعض المعتقدات طوال قرون وكيف تمكن الإنسان من التشبث بها وتكييفها رغم تطور المجتمع علميا وتكنولوجيا، وكيف تمكن المجتمع الجزائري أن يواكب ما يجري في العالم الغربي من استعمال لتكنولوجيات جديدة فرضت نفسها على المجتمع ذي الخصوصيات التي تنبذ ظاهريا ممارسات تعتبرها من المروق عن عقيدتها. وألزم هذا التقدّم الكبير للعلم رجال الدين أن ينكبوا علىّ النصوص الشرعية

1 المؤتمر الذي انعقد في الجزائر في شهر نوفمبر 2007 يكشف عند أزيد من 300.000 زوج يعانون من عدم الإنجاب في الجزائر

لاستقرائها من جديد ومحاولة تكييفها مع ما يساعد الناس. وتارة وصل بهم الأمر إلى ليّ النصوص ليّا كما سنرى في حينه.

إن الرغبة في الإنجاب وبالتالي السعي وراء معالجة حالات العقر يكوّنان المحرّك الأساسي للمصابين بهذا الداء وذاويهم.

ونسعى من وراء هذا البحث إلى أن نُلقي النظر على الأنشطة البشرية المتعلّقة بصحة الإنسان الإنجابية وبالعقر كعاهة في المجتمع الجزائري خاصة وأنه يشبه المجتمعات العربية الإسلامية.

سوف نسلط الأضواء على المضمار الذي سلكناه مقتفين أثر الفاعلين.

كما تكون من الإشكالية محاولة فهم ما هو نظري (أي ما سوف يُحلّل) وما هو عملي تطبيقي (أي ما سوف يقوم به المصاب أو من يحيطون به).

لم يكن هدفنا معالجة موضوع طبي وإعطاء وصفات تقليدية للاستعمال وإن وجدت فكمثال لما نحن بصدد تفسيره كظاهرة أو أخرى. لن ننتقد أي معتقد ولن نحكم على أي ممارسة تظهر غريبة للقارئ. فهذا ليس هدفنا ولكن هدفنا هو دراسة هذا المرض كبناء اجتماعي لأن العقم يفتح مجالين:

ا) المجال الأول على مستوى الخطاب الطبي الذي يجعل منه مشكلة صحية شخصية فردية تتطلب تدخل طبيب مختص وتقنيات عالية.

ب) المجال الثاني على مستوى اجتماعي حيث نجد بعض الأبعاد للبناء الاجتماعي للعقر كالرغبة الغريزية في الطفل وما يثيرها، والمكانة الاجتماعية للمرأة الولود وللعاقر ونتائج العقم الاجتماعية (طلاق، تعدد الزوجات...)

إن طبيعة الموضوع الذي صنفناه في مجال أنثروبولوجيا الصحة، كما رأينا أعلاه تغطّي ميادين

مختلفة تتجاوز في بعض الأحيان المجال الذي صنّفنا فيه بحثنا مثل علم الاجتماع الطبّي وهذا ما عقّد دراستنا سعيا منا إلى أن نرتبط بالموضوع ونغيّب ما يُثقله حتى ولو كان له علاقة به.

1- مكونات المجتمع الجزائري:

رأينا من اللزوم أن نحدد مميزات المجتمع الذي ندرسه ومركباته مبرزين ما يمكن تبرير السلوكات التي تمارس في علاج هذا الوضعية.

ولكن المجتمع، موضوع دراستنا، شبيه بمجتمعات أخري يشاركهم فيها بمكوناته الثقافية مثل الدين والأخلاق والتقاليد والتاريخ والبيئة. وخلال دراستنا وجدنا الكثير من الممارسات والمعتقدات بين مجتمع المغرب الأقصى والجزائر وتونس. لهذا لجأنا إلى ببلوغرافية استقيناها من هذه البلدان أو لباحثين أصلهم منها وإن انتسبوا لجامعات غربية.

فالمجتمع الجزائري ليس سوى نموذج مصغّر يعكس المجتمعات العربية المشابه له في عناصر ثقافية التي نلخصها:

1-1-المكون التاريخي

غزت الجزائر أمم كثيرة أتت من مختلف الجهات وفي أزمنة مختلفة وما دفع هؤلاء الغزاة هو الموقع الاستراتيجي والثروات الزراعية التي جعلت من الجزائر حينها مخزنا للحبوب خاصة. كما أن البحر الأبيض المتوسط والساحل الذي يطل عليه كان مرسى لجميع السفن المبحرة فيه من الشرق ومن الغرب والآتية من الضفة المقابلة للجزائر. رومان، يونانيون، فينيقيون، وندال كلهم غزوا الجزائر وأثروا على ثقافة مجتمعها كما تأثروا بدورهم بثقافة الأهالي. دفع هذا الغزو المتعدد الوجوه القبائل والسكان الأصليين إلى الالتفاف حول العائلة الموسعة لتكوين قوة دفاعية وهذا يتطلب كثرة العدد (خاصة الذكور) وتوحيد القرار الذي أدّى إلى انفراد الأب 'الكبير' بالحكم والسلطة على العائلة، والزواج

المبكر، وتعدد الزوجات الخ...

كما امتزجت معتقداتهم الوثنية وآلهتهم المختلفة بما كان ممارس عند الجزائريين من طقوس لمحاربة القوى الشريرة المتمثلة في الظواهر الطبيعية والأمراض المتعددة والمتنوعة.

لم يكن يعرف آنذاك في مجال التطبيب سوى الممارسات الشعبية التي كان يمليها رجل الدين (الساحر أو الكاهن أو الذي كان يقود الطقوس التعبدية).

وعند الفتح الإسلامي ظهرت ممارسات أخري عوضت، عند جزء من المجتمع، الممارسات الوثنية كون الدين الجديد جاء ليحارب الوثنية ومعتقداتها. إلا أنه لم يستطيع أن يمحو كليا ما تعاطاه الجزائريون قبل الفتح.

كان هناك نوع من الطب الرسمي بجانب طب روحي يعتمد على القرآن والسنة التي أشارت إلى بعض الطرق العلاجية والتي سميت فيما بعد وحتى اليوم بـ 'الطب النبوي'.

وتطور العلم عند العرب المسلمين وكان له صدى واسع في العالم كله ومع ذلك لم يستطع أن يعوّض كليا ذاك الطب الموازي الذي تجذّر عند الجزائريين والذي تكوّن بالممارسات المختلفة التي كانت تضاف إلى سابقاتها.

وعند الغزو الفرنسي دخل الجزائر طب 'استعماري' ممارس من العسكريين الأطباء الذين كانت بذلتهم العسكرية ينظر إليها كرمز القمع عوض المساعدة والعلاج. وكان نوعا من المقاومة ألا يلجأ الجزائري إلى العدو[1] لعلاجه وخاصة النساء وبالأخص اللواتي كن يعانين من مرض أنثوي، والعقر من

[1] كان يعتر من الخيانة أن يلجأ الجزائري إلى 'العسكر' للعلاج وكان اللجوء إلى الطب الشعبي نوع من إظهار الإنتماء إلى غير الكفار والاعتزاز بالهوية العربية المسلمة

الأمراض التي كان يستحيل أن يلجأ إلى الفرنسي لعلاجها. وترك هذا الموقف بصمات إلى اليوم، وبخاصة في الريف إذ لا زال سكانه يتجنبون اللجوء إلى الطبيب الرسمي صاحب المئزر الأبيض.

بعد الاستقلال خلف الأطباء الجزائريون الأطباء الفرنسيين وبدأ الجزائري يتردد على المستشفيات والأطباء الرسميين ولكن بدون أن يُهمل العلاج المألوف المتجذّر عنده، وتارة كان يلجأ إلى النوعين من الطب في الأمراض العضوية وبالنسبة للعقم كان الطب الرسمي لازال منبوذا.

1-2-المكون الثقافي

شساعة الجزائر من العناصر التي ساعدت على تنوع الثقافات (بالمفهوم الأنثروبولوجي) فممارسات غربها تختلف عن تلك التي تسود في الشرق، ونمط معيشة أهل الجنوب (التوارق مثلا) تختلف كثيرا عن المعيشة في الشمال.

وتبرز هذه الشساعة التنوع في الطبيعة بحيث يمكن أن نميز بين التل في الشمال والهضاب العليا والصحراء. وسكان كل منطقة لهم خصوصيات في اللباس والأكل نظرا لما تتوفر عليه كل منطقة من حيوان ومن نبات ومن نمط للحياة.

نجد في الشمال أنواع السمك والخضر والفواكه أكثر وفرة من الجنوب حيث نجد الإبل النافعة ألبانها والأكلات الشعبية المتفاوت نفعها وضررها.

كما تتوفر المنطقتان الجنوبية والهضاب العليا على نبات طبي مختلف معروف عند الصغير والكبير في هذه المناطق. وحتى أنواع المرض تختلف من جهة إلى أخرى.

نضيف إلى كل هذا الجانب التعليمي عند البنات[1] حيث نجد نسبة تمدرس البنات في المدن تفوق بكثير نسبة التمدرس في الريف. كما أصبحت وسائل الإعلام الحديثة (القنوات الفضائية خاصة) في كل البيوت الجزائرية وتبث يوميا ما توصل إليه العلم بكل جوانبه وطبعا لم يبق لا الجزائري ولا الجزائرية جاهلا الوسائل المكتشفة كل يوم.

كما تتطلع المرأة الجزائرية إلى ما يجري في العالم من تكوين جمعيات نسائية تدافع عن 'حقوق' تكاد أن تجرد المرأة من أنوثتها ومن وظائفها الطبيعية ولقي هذا ترحابا عند شريحة من الجزائريات[2].

1-3-المكون الديني

قبل الفتح الإسلامي كان سكان الجزائر يتكونون من عناصر عديدة ومختلفة، فإلى جانب العنصر البربري المتواجد في الشمال والجنوب وهو الذي كان يكوّن الجزء الكبير-قد وجده الفينيقيون والأوربيون. ويرجع المؤرخون أن بداية التأريخ للممارسات الدينية البدائية تعود إلى ما قبل الميلاد.

لم يسجل التاريخ ديانة مكتملة بارزة للبربر بل كان زوار الجزائر من تجار وغزاة يأتون بديانات وثنية مختلفة باختلاف الوافدين وتأثر البربر كثيرا بما آتاهم من الآخر. ولقد عثر على نصوص في عدة مناطق تظهر الأصل الأسيوي لهذه المعتقدات التي نبرز منها الاعتقاد في قدرة قوى طبيعية على وهب الخصوبة ومنعها أما البربر فلم يكن لهم مثل اليونان والرومان آلهة معروفة إذا استثنينا الإلهة تانيت التي كان يعتقد في قدرتها لمنح الأولاد وجعل المرأة عاقرا إن أغضبتها فكانت إذن تانيت إلهة الخصوبة

---

1 نشير إلى أن نسبة البنات المتمدرسات في التعليم الثانوي يفوق نسبة البنين

2 طالبت الجمعيات النسائية بالجزائر تغيير قانون الأسرة حتى يفرغ من كثير من الثوابت. ونافستها الجمعيات التابعة لتنظيمات متمسكة بالأسس الإسلامية.

والإنتاج الفلاحي وإنتاج الأنعام[1].

وإلى جانب هذه الإلهة الأساسية كان للإله 'بعل' حمون مكانة أقل شأن من تانيت.

كما وجدت في منطقة بوعلام بولاية البيض ومنطقة تيوت بولاية النعامة رسوم لحيوانات يعتقد أنها كانت محل عبادة للبربر وهذا للأقراص المرسومة على رؤوسها مثل الآلهة المصرية القديمة (الكبش المصري المقدس) ولم يستبعد أن المعتقدات المصرية وصلت إلى الجزائر والمناطق المجاورة بواسطة الرحالة التجار. وجود هذه الرسومات أوحت إلى مؤرخين مثل جيزلودولو أن يستنتجو إمكانية تفشى الطوطمية بين البربر القدماء،

والشيء المسلّم به هو اعتقاد البربر القدماء في الأرواح الشريرة والجن والعفاريت وتتخذ أشكالا وصورا مختلفة، إنها تسكن الأشجار والحيوان والأحجار.

"كان البربر يتعبدون بالخصوص في المغارات، أو في الأماكن العالية، أو بالقرب من العيون والأشجار المقدسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد..."[2]

وكان هذا الاعتقاد راسخا عند البربر منذ القدم وما زال بعضه راسخا عند البربر وعند غير البربر في الجزائر الحالية، لم تستطع مسيحية الرومان ولا الإسلام محو هذا المعتقد أو القضاء عليه بل أصبح يظن أنها من الإسلام أي أسلمتها بعض الطقوس الشعبية كما سنرى في حينه.

---

1 ينظر ألفيد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ص 56 ط3

2 شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة ص 120 الدار التونيية للنشر ط3 1983.

أما أشهر الطقوس الدينية فكانت تتمثل في مراسيم كان هدفها طرد الشيطان وقوى الشر من جهة الدفاع وجلب الخير والبركة والخصوبة للحقل والمرأة من جهة النفع، كما أثبت المؤرخون أن اليد المفتوحة رمز من رموز الاعتقاد عند البربر ترجى منها الحماية من العين وطرد الشر وجلب الخير والبركة لخصوبة الأرض والنساء، ومازالت إلى يومنا تستعمل لنفس الغرض وتسمى الخامسة.[1]

وقد عرفت الجزائر تحولات كبيرة من فترة الاستعمار إلى يومنا هذا، من انتشار القبب والزوايا إلى محاولة الإصلاح لجمعية العلماء الجزائريين إلى اشتراكية بداية الجزائر المستقلة ثم عودة الإهتمام بالأولياء الصالحين لما قرّبهم النظام السياسي آنذاك إلى مي سمي بالنهضة الإسلامية التي حاربت هذا السلوك إلى العودة مجدّدا إلى الزاوية كمؤسسة دينية اجتماعية لها دور ديني وسياسي بالإضافة إلى دورها التعليمي الذي كان لها قبل الإحتلال الفرنسي. كل هذا أثّر في سلوكات الجزائري وفكره. وقد دعمه انتشار سائل الإعلام والقنوات الفضائية التي تصله بكل ما يحدث في العالم في مجال الطب وغيره.

إن الخطاب الديني الناجم عن الحركات الإصلاحية يؤثر كثيرا على السلوكات التي كادت أن تتوحد في العالم الإسلامي[2]. كما أنتجت الفتاوى التي غزت المجتمع الجزائري مواقف متباينة من السلوك اليومي عند الجزائريين. ويوزن كل جديد في المجال العلمي بميزان 'الشرع' إلى درجة أن الدين المعيش يوميا أو التدين بالأصح أصبح موضوع استنكار لبعض التيارات بوصفه من الشرك ومن البدع. وهنا نشير أن الأنثروبولوجي وعالم الاجتماع يهتمان بالدين كما يعيشه أصحابه وليس الدين

1 أنظر الفصل الثالث: الوقاية من العين

2 فإن كان الحجاب شبه معمما عند النساء فارتداء القميص لم يعمم عند كل الفئات. فهو منحصر عند الشباب أكثر من أي فيئه أخرى.

كعقيدة وعلم اختص بدراسته رجال الدين من فقهاء وأصوليين. وهنا نميز بين الأنثروبولوجي المستشرق والأنثروبولوجي المسلم كما بيناه في المقدّمة. فالأول يجعل من الدين ''السحر'' الإيجابي أي الذي لا يسيء ولا يضرّ الآخر، والثاني يميز بين ما هو شرعي وبين ما تحظره النصوص ولا يقبل إلا الرقية كوسيلة علاجية مشروعة.

كما يضع المستشرق 'حتمس' السحر ''السلبي'' من الدين[1] ويرفضه المسلم لكونه حراما ويستند إلى نصوص شرعية لجواز أو تحريم أي سلوك.

1-4-تحبيب الإنجاب والرغبة فيه:

يحب الجزائري أن يكون له أطفال مباشرة بعد الزواج لأنه يتزوج من أجل ''عمارة الدار'' ويفضل أن يكون له أولاد ذكور. ويعتقد أن لن يكون ''رَجُلا'' إلاّ إذا أنجب وإلاّ يكون ''تيناش[2]'' أي وحيدا. ويقال لمن لا يتزوج مبكرا أنه ''كْلَ ولاده في كرشو'' ليحثه المجتمع على الإسراع في الزواج من أجل الإنجاب.

وبالنسبة للمرأة تعتبر الأمومة والرغبة في الإنجاب إحدى مراحل الأنوثة ويشكلان جزء من غريزتها.

كان طلب الذرية من تطلعات الإنسان لأنها أنس الحياة وبهجتها ورونق الدنيا وزينتها إذ قال

---

1 Constant Hamès, ' Problématiques de la magie-sorcellerie en islam et perspectives africaines ', *Cahiers d'études africaines* . *2008*http://etudesafricaines.revues.org/9842

2 تستعمل هذه العبارة في الهضاب العليا حتى في شتم الرجل الوحيد بدون ذرية.

عزّ وجلّ:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [1]

ويقال: ' ففي المال جمال ونفع وفي البنين قوة ودفع' فآدم وبعده كثير من الأنبياء طلبوا من ربهم الذرية الصالحة أما آدم وحواء ف.﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾. [2] وبعد خليل الرحمن طلب الذرية الصالحة ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [3]. ولم يتخلف نبي الله زكريا بدعائه معللا طلبه ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [4].

كما أنتجت الآيات ﴿ . . .يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ **عَقِيمًا** إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) ﴾ من سورة الشورى فهما لعلاقة الدين بالإنجاب، علاقات على مختلف المستويات، نفسية، ثقافية، أخلاقية، واجتماعية. وتجعل الفرد المسلم يتصرف طبقا لهذا الفهم. إما يستسلم لقضاء الله وقدره. إما يحرص على السعي

---

1 سورة الكهف : 46

2 سورة الأعراف : 189

3 سورة الصفاة : 100 و101

4 سورة الأنبياء : 89

للإنجاب بكل وسائل المتاحة له خارج الإطار الطبي ويرجو إرادة الله الموافقة لأمله. وكل هذا يُؤثّر على سلوكاته وخصوبته. يقول محمد السقلاني: " إن الإسلام يُؤثر على الخصوبة بتقنين الشروط المؤطرة لها أكثر مما يُؤثر عليها بتوجهات مباشرة"[1].

وبما أن الرغبة في الذرية كانت دائما حاجة ملحة، ومطلبا فوق المطالب فإن من حُرم منها سوف يسعي إلى تلبية هذه الرغبة بكل ما عنده من وسائل وجهد وسوف يبحث عن كل السبل لبلوغ هدفه، ويطرق جميع الأبواب من أجل تحقيق هذه الغاية.

إلاّ اننا نجد حالات شاذة تخرج عن السرب وتعلن علة كراهيتها للإنجاب وإذا سقنا هذا المثال فلشهرة صاحبه وهو أبو العلاء المعري الذي كان ناقما علي المرأة لأنها سبب الإنجاب واستمرار الحياة. ولعل سببا مضمرا وهو أن الشاعر قد يكون ذا مذهب فلسفي يحرم الزواج، أو كان عقيما ومعترف بحاله وهذا جعله يبيح بكرهه للنساء ماعدا أمه وابتعد عن الزواج المسبب للإنجاب وطلب أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي *** وما جنيت على أحد

1-5- معتقدات متعلقة بالإنجاب:

يحاط الإنجاب في مجتمعنا بمجموعة من الاعتقادات والأساطير. فقد تضطر المرأة خوفا من التطليق إلى أن تزعم أنها حامل وأن جنينها (راقد) أي أنه لا ينمو ويمكث في الرحم سنين عديدة حسب المعتقد السائد في الجزائر والبلدان المغاربية. والذي أكده الفقه الإسلامي، ولكن اختُلف في

[1] Mohamed seklani , La fécondité dans les pays arabes, attitudes et comportements in Population, No15 – Octobre 1960 p 123.

تحديد مدة الحمل.[1] منذ العهد الجاهلي تُعرف ظاهرة 'حش الولد' كما جاء في **حديث** عمر: ' أُتِيَ بامرأة مات زوجها فاعْتدّت أربعة أشهر وعشرا ثم تزوّجت رجُلا فمكثت عنده أربَعَة أشهر ونِصْفا ثم ولَدت فدَعى عمر نِسَاءا فسألُهنّ عن ذلك فقلْنَ: هذه امرأة كانت حاملا من زَوْجها الأول فلمَّا مات حَشَّ ولدُها في بَطْنها ' أي يبِس.

ويقال: أحَشَّت المرأة فهي مُحِشٌّ إذا صار ولدُها كذلك. والحُشُّ: الولد الهالك في بَطْن أمِّه'[2]

ويكاد هذا الاعتقاد في الطفل النائم أو 'الراقد' في بطن أمه أن يكون عاما في البلدان الإسلامية. وهذا يعني تواصل الحمل إلى أكثر من تسعة شهور ويبلغ عند بعض الفقهاء إلى خمس سنين ولم تعتبر هذه الحالات عندهم كظاهرة بل حالة طبيعية لما جاء في التفسير وبعض الأخبار.

---

1 جاء في أرشيف ملتقى أهل التفسير الذي أعده أبو محمد المصرى على الموقع :www.aldahereyah.net

- أن أقصى مدة الحمل سنة واحدة لا أكثر، وبه قال محمد بن عبد الحكم وأختاره ابن رشد.
- أن الحمل قد يستمر إلى سنتين، وهو مذهب الحنفية.
- أنه قد يستمر إلى ثلاث سنين، وهو قول الليث بن سعد.
- أن أقصى الحمل أربع سنين، وهو مذهب الشافعية والحنابلة وأشهر القولين عند المالكية.
- أن أكثر الحمل خمس سنين، وهي رواية عن مالك.
- أن أقصى الحمل ست سنين، وهي تروى عن مالك والزهري.
- أن أقصى الحمل سبع سنين، وبه قال ربيعه وهي رواية عن الزهري ومالك.
- لا حد لأكثر الحمل، فإذا ظهر بالمرأة حمل أو,وجدت القرائن الدالة على الحمل كالحركة في البطن فإننا ننتظر وإن طالت المدة، أما إذا مضت التسعة أشهر ولم يظهر بها علامات الحمل فلا انتظار لأن الأشهر التسعة هي المدة الغالبة وبه قال أبو عبيد والشوكاني.

2 أنظر لسان العرب مادة ح ش.

يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ سورة الرعد(8)'. وفسّر ابن عباس 'ما تزيد' بما أكثر من الحمل العادي[1].

لكن قد أنكر بعض المالكية[2] وابن حزم أن يكون هناك حمل أكثر من تسعة أشهر، فقال ابن حزم: '... ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر... فمن ادعى أن حملا وفصالا يكون في أكثر من ثلاثين شهرا، فقد قال بالباطل... وبعد أن ذكر جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، قال: 'وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا.'[3]

وهذا الذي أكده لنا الأطباء فلا تزداد مدة الحمل عن شهر بعد موعده، وإلا مات الجنين في بطن أمه. وما جاء في الحكايات للطفل 'الراقد'، وأن الحمل عند امرأة استمر لسنوات... فهو من خيال النساء ويعرف ب 'الحمل الكاذب' وهي حالة تصيب النساء اللاتي يبحثن عن الإنجاب دون

---

1 جاء في تفسير الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ج 7 ص 2226 :
حدثنا علي بن الحسين ثنا علي بن عبد المؤمن ثنا المحاربي عن أبي خالد الدالاني عن زريق الجرجاني عن الضحاك في قوله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد قال ابن عباس ما تزداد على تسعة وما نقص عن التسعة . وفي تفسير البغوي : 'وقال الحسن: غيضها: نقصانها من تسعة أشهر والزيادة، زيادتها على تسعة أشهر.' ج 4 ص 298

2 فيشرح زاد المستقنع لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي في دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net : 'لا أقبل فوق تسعة أشهر، وهذا قول ابن عبد الحكم من فقهاء المالكية، وما بعد التسعة الأشهر لو طلقها وأباها ثم ظهر فيها حمل؛ فهو لغيره وليس له.'

3 أنظر لسيل الجرار للشوكاني 334/2

أن ينجبن فينتفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة بأنها حامل رغم أن التحاليل المخبرية والفحوصات الطبية تشير إلى أنها ليست حاملا.[1]

وفي السوس المغربي يقال له 'أمكسور'، عبارة تدل على إيقاف النمو بعد عاهة أو مرض الجنين وبمجرد مواصلة العلاقة الجنسية يُجبر 'الكسر' ويتواصل النمو.

لم يوجد أي دليل علمي يؤكد 'رقود' الجنين إلاّ أن الدراسات الحديثة أثبتت وجود الظاهرة بدون أي دليل ونقرأ في 'ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر' التي وقعت بين 11-12-13 – 2006-04.[2]

'والعجيب أن هذه النتائج التي توصلت إليها الدراسات الحديثة في المسألة لم تجاوز في مضمونها، ما قرره بعض فقهاء الحنفية بهذا المعنى وحملوا عليه روايات الحمل الممتد لأربع سنين، فقالوا: ... فإن غاية الأمر أن يكون انقطع دمها أربع سنين ثم جاءت بولد، وهذا ليس بقاطع في أن الأربعة بتمامها كانت حاملاً فيها، لجواز أنها قد امتد طهرها ... ثم حبلت، ووجود الحركة في البطن ليس قاطعاً في الحمل، لجواز كونه غير الولد، ولقد أخبرنا عن امرأة أنها وجدت ذلك مدة تسعة أشهر من الحركة و انقطاع الدم وكبر البطن وإدراك الطلق، فحين جلست القابلة تحتها أخذت في الطلق، فكلما طلقت اعتصرت ماء، هكذا شيئاً فشيئاً، إلى أن أنضمر بطنها وقامت عن قابلتها من غير

---

1 راجع : تفسير القرطبي: 9 / 288-289، أحكام القرآن لابن العربي: 3 / 1109، الدر المنثور: 4 / 609. المحلى لابن حزم: 10 / 316-318 خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار، ص (452-454).

2 عدد من العلماء والباحثين قام بجمعها وتنسيقها: بو إبراهيم الذهبي.

ولادة [1]".

ونخلص من كل هذا إلى أن العقر ظاهرة بيولوجية عرفها البشر منذ القدم، وحاول علاجها بمختلف الطرق والأساليب التقليدية والحديثة. وليس موضوعنا الأساسي هنا هو معرفة الوسائل التي يستعملها الطب لعلاج العقر ولكن طبيعة موضوعنا الأنتروبولوجية تدفعنا إلى أن نلتمس في البشر سلوكات أخرى وطرقا مختلفة يؤسسها الاعتقاد في الغيب، والرغبة في تجاوز العقر، بشتى الوسائل التي هي من صميم المقاربة الأنتروبولوجية.

1 السيوطي ، شرح القدير 1797/945 طبعة رقمية.

1- العقم والعقر

يشار إلى ظاهرة عدم الإنجاب بمصطلحين اثنين هما العقم والعقر. فهل لهما معنى واحد أم هما مختلفان؟

نجد في القرآن الكريم هذين المصطلحين كليهما، واتفق المفسرون إلاّ القليل منهم على ترادفهما وأكدّ ابن تيمية ومحمد عبده وغيرهم على عدم جواز ترادف الكلمات القرآنية كما جاء في 'العقم والعُقر.... **بين الطب والقرآن**'. والترادف أن يكون لكلمتين أو أكثر دلالة واحدة.

'من الحقائق التي قد تغيب عن بعض الأذهان أنه لا ينبغي لأحدٍ الاعتقاد بجواز وجود ترادف في ألفاظ الآيات القرآنية الكريمة، وهو ما ذهب إليه الإمامان ابن تيمية ومحمد عبده '. والصفتان عقيم وعاقر تطلقان على من لم تنجب من النساء ومن لم يولد له من الرجال.'[1]

أيد أبو هلال العسكري موقف ابن تيمية ومحمد عبده بقوله 'الشاهد على أن اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني ... وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف فلإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة'[2].

وردت صفة عاقر في ثلاث مواضع من القرآن:

---

[1] العقم والعُقر.... بين الطب والقرآن :أ.د / كريم حسنين إسماعيل عبد المعبود مقال في مؤلف جماعي 'الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم' ص 264

[2] أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة،ص9' الدار العربية للكتاب , تونس 1983

في قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي **عَاقِرٌ** قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)(40) ﴾ [آل عمران].

قال القرطبي: أي: عقيم لا تلد.[1]

وقال الألوسي: والعاقر العقيم التي لا تلد

وقوله تعالى:

﴿ كهيعص(1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي **عَاقِراً** فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (6) ﴾ (سورة مريم)

---

[1] أنظر أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصري القرطبي : تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم. دار ريان للتراث- القاهرة- مصر ب.ت.

وقوله تعالى:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي **عَاقِرًا** وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (**9**) ﴾ (سورة مريم)

قال القرطبي: إن امرأته كانت عقيماً لا تلد.

وورد التعبير عقيم في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى:

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (29)' (سورة الذاريات)

قال الألوسي وهو أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي: 'أنا عجوز عاقر فكيف ألد'[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ **عَقِيمٍ** ﴾ (55) سورة الحج.

وصف اليوم الذي فيه عذاب بأنه عقيم أي لا خير فيه.

---

1 الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار الفكر –بيروت– لبنان

وفي تفسير الألوسي كذلك:

'ووصف بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن'

وفسّر الألوسي قوله تعالى: ﴿وَعَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ **الْعَقِيمَ**﴾ (**41**) [سورة الذاريات].

'ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً'

وهي الريح التي لا مطر معها ولا خير فيها. وعكسها الرياح اللواقح التي يحيي بها الله الأرض الموات فتخرج نباتها بإذن ربهم. قال تعالى: (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فاسقينا كموه).

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ **عَقِيمًا** إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (50) ﴾ (سورة الشورى)

1.1 العقم لغة:

جاء في البحر المحيط: 'العقم: الامتناع من الولادة، يقال: امرأة عقيم ورجل عقيم لا يولد له، والجمع عقم وأصله من القطع، ومنه الملك عقيم أي يقطع فيه الأرحام بالقتل، والعقيم الذي قطعت ولادتها.

وقال أبو عبيد العقم السد، يقال: امرأة معقومة الرحم أي مسدودة الرحم.[1]،

في لسان العرب العَقْمُ والعُقْمُ، بالفتح والضم: هَزْمةٌ تقعُ في الرَّحِم فلا تَقْبَلُ الولدَ. عَقِمَتِ الرَّحِمُ عَقْماً، وعُقِمَتْ عُقْماً وعَقْماً وعَقَماً، وعَقَمَها اللهُ يَعْقِمُها عَقْماً، ورَحِمٌ عَقِيمٌ وعَقِيمةٌ مَعْقومةٌ، والجمعُ عَقائمُ وعُقُمٌ، وعَقُمَت إذا لم تَحْمِلْ فهي عَقِيمٌ وعَقُرَتْ، بفتح العين وضَمِّ القاف.

فلنلحظ تفسير ''عقُمَت'' بـ '' عَقُرَتْ''[2]

نقرأ كذلك في لسان العرب لابن المنظور ''والدنيا عَقيمٌ أي لا تَرُدُّ على صاحبها خيراً، وبومُ القيامة يومٌ عقِيم لأنه لا يومَ بعدهَ؛ فأما قول النبي، صلى الله وسلم: العقلُ عَقْلان، فأَما عقل صاحب الدنيا فعَقيمٌ، وأما عقلُ صاحب الآخرة فمُثْمِرٌ، فالعقيمُ هاهنا الذي لا يَنفعُ ولا يرُدُّ خيراً على المثَل.'

فيمكن إطلاق كلمة عقر على من يمكن شفاؤه والعقم على الحالة التي لا شفاء منها كما في سورة ''ويجعل من يشاء عقيما''.

ولعل ما لحظه بعض الباحثين في الإعجاز الصوتي للقرآن له ما يدعونا لنرجح هذه المعاني للعقر والعقم: العقر للتي يرجى برؤها والعقم للميؤس من شفائها. وتوصل هذا البحث إلى دراسة الأصوا ت ع ق ر / ع ق م فإن المجموعتين تشتركان في الحرفين الأولين ع ق و تختلف في واحد ر من جهك و م من جهة أخرى. أما حرف 'ر' من عقرفهو من حروف التكرار ويبق الفم الناطق

1 أبو حيان النحوي الأندلسي : تفسير بحر المحيط ج6 ص372- دار إحياء التراث العربي ب ت.

2 ابن منظور :لسان العرب. مادى ع ق م.

مفتوحا و اللسان يجري أما حرف الميم من عقم فيغلق الفم وتسد الشفتين دخول الريح للفم. وهكذا نستوحي دلالتا المصطلحين من صوتهما.

نجد المصطلحين في اللغات الأجنبية بحيث أن العقم يقابله stérilité والعقر يقابله infécondité التي يمكن ترجمتها بعدم الخصوبة.

1-2-العقم اصطلاحا:

العقم أو العقر، عدم الإخصاب، وهذا المصطلح هو الأكثر تداولا وشيوعا، للتعبير عن عدم القدرة على الإنجاب وممكن أن يكون سبب شيوعه أن القرآن خص الإنسان بصفة العقر ولم يستعمل هذا المصطلح لغير العاقل. كما أن صفة العقر في القرآن الكريم انتهت بعد استجابة دعاء زكرياء ربه أن يهب له ذرية.

كما اتخذ هذا المصطلح معنى مدلول الاستهزاء والشتم لمن لا تنجب من النساء ولا يوصف الرجل بالعقر إلا قليلا رغم أنه قد يكون هو السبب، فليس بالضرورة أن يكون المشكل في المرأة وحدها, قد يكون المشكل كذلك في الرجل, وقد يكون فيها معا. إلا أن هذا يستلزم إضافة ما يدقق هذا التعريف المبسط كالتالي:

إذا سبق للزوج (الرجل والمرأة) أن حملت الزوجة مهما كانت نتيجة الحمل، فلا يعتبر أحد الزوجين عاقرا حتى ولو لم يتكرر الحمل.

كثيرا ما نجد عبارة 'عدم الخصوبة في المصلحات الطبية' للتعبير عن العقر وبالتالي يجب التطرق إلى هذا المصطلح وتعريفه لأننا سنلجأ إليه في بعض الحالات.

-**الخصوبة** هي القدرة على الإتيان بماء منوي قادر على تلقيح بويضة سليمة مهيأة للتلقيح[1].

عدم الخصوبة هو العكس إمّا بعدم القدرة على الإتيان بماء منوي قادر على التلقيح أو بعدم استعداد البويضة لاستقبال التلقيح أو هما الحالتان معا.

كما يميز بعض الأطباء بين ما إذا كانت هذه الحالة لا رجعة فيها وبين الحالة الانتقالية الممكن علاجها ويطلقون مصطلح العقم على الحالة الأولى وعدم الخصوبة على الثانية ويبقى مصطلح العقر مستعملا من طرف العامة لاستعماله في القرآن الكريم.

بناء على ما سبق نجد:

– أزواجا عقيمين نهائيا (لا يمكن لهماالحمل الطبيعي)

– أزواج قليلي الخصوبة (يمكن لهماالحمل بعد التداوي) ونظرا لتفاوت الإنسان في سرعة الإنجاب، فمن النساء من تحمل بعد أسبوع أو شهر أو شهور بعد علاقات جنسية عادية حددت المنظمة العالمية للصحة المدة التي من بعدها نحكم بأن الزوج عاقر وهي سنتان بعد علاقة جنسية منتظمة وكانت المدة تحدد من قبل بسنة واحد.

كان يعتمد علي مدة سنة منذ القديم بحيث أنه في العهد الفرعوني كان المصريون القدامى لا يعقدون الزواج إلا بعد معاشرة تدوم سنة تختبر فيها خصوبة المرأة، فإن حملت فلا يحق للرجل أن يتخلى عن الزوجة ويقرر الزواج نهائيا منها.

---

[1] المعروف أن الخصوبة مصطلح له على الأقل مدلولان فأحدهما يشير إلى الخصوبة البيولوجية بمعنى القدرة على الإنجاب و يراد منه الإنعاب الفعلي وهذا هو المعنى الذي نعالجه. ويوجد دلالة أخرى المستخدمة خاصة في علم الاجتماع مثل(خصوبة المرأة الجزائرية هي 2 أو 3 أو 4 أو .. أطفال)

كما يميز بين العقر الابتدائي والعقر الثانوي

فالأول هو أن لم يسبق للمرأة أن حملت، أو أن لم يسبق للرجل أن أنجب.

والثاني هو أن سبق للمرأة أن حملت (مهما كانت النتيجة) ثم لم تحمل مرّة ثانية وبالنسبة للرجل فهو أنه أصبح عاقرا بعد إنجاب أول.

يتضح مما سبق التعريف الحقيقي للعقر أي العقر كخلل وظيفي ويوجد كذلك مدلولات أخرى للكلمة وهي معاني مجازية أو مبالغ فيها مثل المرأة 'التي لا تنجب إلا الإناث فهي عاقر' فهذا أقرب إلى المثل من أن نتخذه كتعريف لغوي.

كما استعمل اللفظ في مدح الرجل لكونه لا يوجد له مثيل كما في هذين البيتين المنسوبين لأبي نواس, وأنكر العتابي هذا النسب قائلا:' اخذ أبو نواس ذلك من أبى الهذيل الجمحي وروي البيتين:

وإذا يقال لبعضهم نعم الفتى *فابن المغيرة ذلك النعم

عقم النساء فلا يجئن بمثله * * * إن النساء بمثله **عقم**[1]

وقال نفس الشاعر أبو الهذيل أيضاً فيه –أخبرني بذلك ابن المرزبان عن أبي توبة عن أبي عمرو الشيباني، وأخبرني به الحرمي عن الزبير عن عمه:

عقم النساء فلم يلدن شبيهه * * * إن النساء بمثله عقم

[1] مروج الذهب : المسعودي ج 2 ص 5

متهللٌ بنعم بلا متباعدٌ * * * سيان منه الوفر والعدم

نزر الكلام من الحياء تخاله * * * ضمنا وليس بجسمه سقم[1]

ووردت كلمة عاقر في الشعر الإسلامي كما في هذه الأبيات حيث قال الوليد بن عقبة لمعاوية يحرضه ويغريه بعلي للثأر لعثمان:

'فو الله ما هند[2] بأمِّك إن مضى نه * * * ار ولم يثأر بعثمان ثائر

أيقتل عبد القوم سيدَ أهله * * * ولم يقتلوه ليت أمك **عاقر**

وإنا متى نقتلهم لا يقد بهم * * * مقيد وقد دارت عليه الدوائر'

وتقول العرب:

'الحركة ولود والسكون **عاقر**'[3]

---

1 الأغاني - (2 / 252)

2 هند بنت عتبة و هي أم معاوية.

3 أنظر نبيل محمد بهي : المختار من البصائر والأذخار للتوحيد. مكتبة الألوكة رقمية

كما قيل بأن

'فلان شرُّه مقيم وهو من الخير **عقيم**'[1]

ومن الأمثال نجد

' وَلُودٌ الوَعْدِ **عَاقِرُ** الإنْجَازِ '[2]

يضرب لمن يكثر وَعْدُه ويقلُّ نَقْدُه

واستعملت كلمات أُخرى للتعبير عن غياب الذرية بسبب العقر ويقال:

'رجلٌ رَقُوبٌ، وإمرأةٍ مُقلابٌ: اللذان لا ولد لَهما، من عُقْمٍ، وكل ما أفنى الوَلَدَ، ومنه حديثُ معاوية حين سأَل أبا الطُفيل عَامِر بن واثلةَ عن عَلي –رضي الله عنه –وحزنه عليه، فقال: حُزْنُ الشّيخِ الرَقُوبِ والعَجُوز المقلان'

كما اتخذ هذا المصطلح للذم و الشتم وهذا منذ زمن بعيد حيث نجد في **'تاريخ مدينة دمشق'** : 'قال علقمة بن علاثة لعامر بن الطفيل لما نافره أنا ولود وأنت عاقر وأنا وفي وأنت غادر وأنا عفيف وأنت عاهر'.[3]

ولقد شاع مصطلح العاقر عند العامة تاركا مصطلح العقم إلى الطب الرسمي والمؤلفات

---

1 الزمخشري : اساس البلاغة ج2 ص 192

2 الإمام ابو الفضل الميداني : مجمع الأمثال ج2 ص 371 رقم 4471

3 تاريخ مدينة دمشق ل أبي القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله الشافعي المتوفى 571 هـ ج41 ص 153

العلمية.

كما يقارن بين من ينجب واحدا وبين من يكثر الميلاد من الحيوانات خاصة كما في هذا البيت:

'بغاة الطير أكثرها فراخا

وأم الصقر مقلاة نزور'

و'نزور' تعني لا تلد إلا واحد.[1]

2- عملية الإنجاب

قبل أن يظهر العلم ميكانزمات عملية الإخصاب تخيل الإنسان العملية وهذا منذ القدم باحثا على فهم ما يجري في بطن المرأة الحامل.

عرف مفهوم عملية الإنجاب في الذاكرة الشعبية عدة مراحل وكانت وراءه معتقدات مختلفة ولكنها تؤكّد كلها مسؤولية المرأة في نجاح الحمل أو فشله.

فمنذ القدم استفسر الأطباء والفلاسفة عن عملية الإنجاب. وقدّم المفكرون الكبار بعض النظريات وكوّن عامة الناس فكرة ناتجة عن مخيالهم وكان المعتقد السائد هو أن الرجل يضع نطفته، التي لم يكن يعرف مركباتها، في رحم الزوجة[2] التي تتولى كل العمليات المعقدة وذكرت هذه العمليات

1-قالها العباس بن مرداسو هو صحابي وشاعر من المخضرمين

2-وقد لخّص أرسطو في بحثه عن معتقدات أهل زمانه، وحصرها في ' أن الجنين يكون جاهزاً في ماء الرجل، فإذا وصل ماء الرجل إلى الرحم، نما كما تنمو البذرة في الأرض آخذاً غذاءه من الرحم.' وحسب إبوقراطس 'تخلق الحياة بمزيج ساءلين خلاّقين. سائل الذكر وسائل الأنثى. أما أريسطو فكان يؤكد أن سائلا خلاقا واحدا يتكون في دماغ الرجل وينزل عند الجماع في جسد المرأة التي تمثل وعاءا فقط.

في أماكن عديدة من القرآن[1] والتفاسير العديدة والمختلفة مكنت من تخيل العملية في غياب المعرفة العلمية الكافية التي تسمح بما يعرف اليوم. ومما كان يفهم أن تلك النطفة التي وضعها الرجل وهذا التطور الوارد في القرآن[2] يخص نطفة الرجل وحدها أو باستعمال المصطلح العلمي الحديث أن الحيوان المنوي هو الذي يتطور إلى جنين بدون معرفة عملية التلقيح للبويضة التي كانت مجهولة وعملية التلقيح هذه اكتشفت فيما بعد بدون أن تغير من المعتقد كثيرا. وهذا يبعد الرجل من كل مسؤولية ما دام استطاع وضع النطفة.

ثم تطور المفهوم عندما عرف أن للمرأة ماء يمزج بماء الرجل لكونهما في المعتقد يخرجان في آن واحد ويقع السباق بين الماءين وإن كانت الغلبة (أي الوصول إلى الرحم) لماء الرجل فيكون ذكرا وإلاّ فأنثى.

وقالت لنا الحاجة العالية في هذا الشأن:

'خصك تعرف يا ولدي بللي في ماء الرجل زرّيعة والمراتاني... ويتسابقوا للوالدة إذا وصلت

---

[1] الآية 5 من سورة الحج {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

[2] وجاء في الآيات 12.13.14 من سورة المؤمنون: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

زريعة الراجل اللولة تعطينا ولد وإذا وصلت زريعة لمرا تعطينا بنت. وخطرات ولكن هذا قليل يوصلوا مع بعض هنا إكنواتوام إذا كانت لمرا بصحتها.'[1]

ونفس الاعتقاد وجدناه عند التوارق بحيث يظن توارق الأزواغ بجنوب الجزائر أن مصدر الحمل هو التقاء بذرتين نابعتين من الرجل ومن المرأة أثناء العلاقة الجنسية. تسمّى هاتان البذرتان في لغة التوارق 'آمان' ومعناها الماء[2]. وللتمييز بينهما يطلق على بذرة الرجل 'آمان ن ألص' وبذرة المرأة 'آمان ن تنتوت'.

لم يفهم من التقاء الماءين اختلاط ومزج بينهما بل سباق بين عنصرين مختلفين غير قابلين للمزج متنافسين للوصول إلى الرحم وبصفة أدق إلى مكان في الرحم يسمّونه التوارق 'إبوّل ن إجلّة' أي الحفرة الصغيرة.

وحسب نتيجة السباق يكون المولود ذكرا إن سبق ماء الرجل وإلاّ بنتا.

ويعتقد توارق آخرون أن الماء سواء عند الرجل أو المرأة يتكون من بذور (شيبلان) تمتزج مع بعضها وتتصارع عند مدخل الرحم للولوج فيه لأنه اعتقادهم يكفي لبذرة واحدة الولوج ليحصل الحمل وحسب الغلبة يتخلّق ذكر إن كانت لبذرة الرجل وإلاّ أنثى. ويحكى أن للمرأة القدرة على رجحان غلبة إحدى البذرتين أو أحد الماءين ببعض الوضعيات أثناء الجماع. إذا التقت المرأة مثلا

---

1 أعلم يا ولدي أن ماء الرجل وماء الرأة مكونان من بذور تتسابق إلى الرحم فإن وصلت بذرة الرجل الأولى فذكر وإلا أنثى وإذا كانت المرأة في صحة جيدة يمكن ولكن هذا ناذر الوصول معا وينتج توأمان'

2 تفس المصطلح يوجد عند قبائل الشمال وعند برابرة القصور الجنوبية بالبيض والنعامة وبضار وأدرار سواء للتعبير عن الماء العادي أو للتعبير عن المني.

على جنبها الأيمن يساعد على إنجاب ذكر والجنب الأيسر يساعد على إنجاب بنت لأن المعتقد يوحي بأن الجنين الذكر يلتصق بالجانب الأيمن للرحم والجنين للأنثى بالجانب الأيسر.

يوجد معتقد عند برابرة قصور الجنوب وعند التوارق يحدد للمرأة عددا من الأطفال من زيادتها وبالتالي توجد نساء ينجبن طفلا واحدا ولا تزدن عليه, ومنهن من لم تزد عن اثنين ومنهن من لم تنجب وهكذا. ويطلقون على الطفل الأخير صفة 'الغسّال' أي الذي يغسل الرحم ولا يمكن الإنجاب بعده. هذا ما يدفع بعض العائلات عند إنجاب الإناث أن تطلق أسامي معبرة على البنات وتفصح عن عدم رغبة المزيد من البنات بعد عدد يعتبرونه كثيرا ونجد اسم 'الزانة' أو'الزاهم'[1] أو 'التالية'[2] أو 'بركانة' وكلها تعني 'كفانا لا نريد أكثر' وهي عبارات منتشرة في الهضاب العليا والجنوب الغربي.

وهذا الاعتقاد أكده الفقهاء الأولون الذين لم يكونوا يعرفون علمية التلقيح ونورد ما قاله ابن قدامة في المغني منكرا كلام من قال أن المرأة تحمل بدون وطء بمجرد إدخال ماء الرجل:

'ولا معنى لقول من قال يجوز أن تدخل المرأة مني الرجل فتحمل لأن الولد مخلوق من مني الرجل والمرأة بعد اللذة، ولذلك يحصل الشبه منهما وإذا أدخلت المني بغير جماع لم يحدث لها لذّة تمني بها فلا يختلط منيهما[3].

---

1 كفانا , كفاهم .

2 الأخيرة.

3 المغني لإبن قدامة ج 5 ص 65 دار إحياء التراص العربي. 1985

وقبل أن يعرف الإنسان سر عملية التلقيح الحقيقية ومنذ أن لخص أرسطو النظريات السائدة في عصره بالنسبة لتخلق الجنين، كان النظريات تتوالى وتحاول كل مجموعات منها إعطاء تفسير للإنجاب حتى اخترعت أجهزة تمكن من الاقتراب من الحقيقة.

بعد اختراع جهاز الميكروسكوب، قام العالم 'ليفين هوك' (Leeuwen Hoek) وزميله 'هام' (Hamm) باكتشاف الحيوان المنوي في مني الإنسان عام 1677، كما قام العالم 'جراف' (Graaf) بوصف حويصلة البويضة التي سُمّيت باسمه إلى اليوم 'حويصلة جراف' وذلك عام 1672.وفي سنة 1839 وصف 'شوان' (Schwann) و'شليدن' (Schleiden) خلايا الإنسان وقالا بأنها الأساس لجسم الكائن البشري.

وفي عام 1859 عرف العلماء أن الحيوان المنوي ليس إلا خلية حية وكذلك البويضة.

وفي عام 1875 استطاع 'هيرتويج' (Hertwig) ملاحظة كيفية تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، وأثبت بذلك أنهما يساهمان في تكوين البويضة الملقحة، وكان بذلك أول إنسان يشاهد عملية التلقيح ويصفها.

وفي عام 1883 تمكن 'فان بندن' (Van Beneden) من إثبات أن كلاً من البويضة والحيوان المنوي يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة، كما أثبت 'بوفري' (Boveri) بين عامي 1888 و1909 بأن الكروموسومات تنقسم وتحمل خصائص وراثية مختلفة، واستطاع 'مورجان' (Morgan) عام 1912 أن يحدد دور الجينات في الوراثة وأنها موجودة في مناطق خاصة من الكروموسومات [1].

[1] Thomas Hunt Morgan : Embryologie et génétique p 221. Ed Gallimard 1936

لم تحد الذاكرة الشعبية عن المفهوم الذي يولي للرجل دور وضع البدرة التي تتولى المرأة نموها رغم وجود بعض الإشارات في القرآن الكريم والسنة التي تساوي بين الرجل والمرأة في تخلق الجنين.

لم تعرف الإنسانية أن الجنين يتكون بامتشاج واختلاط نطفة الذكر ونطفة الأنثى إلا في القرن التاسع عشر، ولم يتأكد لها ذلك إلا في بداية القرن العشرين.

أكّد القرآن الكريم والسنة النبوية أن الإنسان خُلق من نطفة مختلطة سماها 'النطفة الأمشاج' فقال تعالى في سورة الإنسان:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

وقوله:' من كلٍّ يُخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة' أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

وقد أجمع المفسرون على مدلول 'الأمشاج' الذي هو الأخلاط. الذي يفسر حاليا بتلقيح البويضة بالحيوان المنوي.

أدّت هذه المفاهيم كلها إلى تكوين مخيال شعبي يبرز تارة مسؤولية المرأة في عملية الإنجاب وتارة مسؤولية الرجل في حالات قليلة جدّا إلا أن امرأة عانت كثيرا بإلحاق العقر بها أساسا.

3.المرأة والعقر

يرجع اتهام المرأة بعدم الإنجاب لأسباب كثيرة. منها كونها العامل الأساسي في عملية الإنجاب الظاهرة. المرأة هي التي تحمل وهي التي يظهر عليها الحمل. كما أنها هي التي تغذي الجنين وهي التي ترضع المولود. وهي التي، إذا وقع مكروه للجنين. تتعرض لخطر الإجهاض أو للعلاج.

ويمكن أن نقول أن كل مراحل الإنجاب متعلقة بالمرأة ما عدا وضع النطفة. وبالتالي، أنثت

المرأة كجسد كل عمليات الإنجاب. وإن تعطلت هذه العملية. فالمتهم الأول هو المرأة وأصبح في الذاكرة الجماعية مشكل العقر منسوب إلى المرأة واقتنعت هي بدورها (إن لم يثبت العكس) بمسؤوليتها في عدم الإنجاب ويرجع إليها محاولة حل المشكل بالبحث عن العلاج. فتخضع للفحوصات هي الأولى ولمدة سنوات، وتقوم بالعلاجات التقليدية هي الأولى وتارة بدون إعلام زوجها. ويكون موضوع 'عقرها' مجالا لحديث كل القريبات. بحضورها إن كان القصد النصيحة والمساعدة وفي غيابها إن كان القصد الشفقة أو السخرية أو مناقشة مصيرها العائلي.

ويرجع هذا التأنيث لعدم الخصوبة إلى الجهل لعملية الإنجاب وهذا من قديم الزمن. لقد عثر على وثائق ترجع إلى التاريخ الفرعوني وتحمل وصفات للعلاج بالأعشاب موجهة للنساء[1] ولكن ذكر قاليان في العهد اليوناني أن العقم يأتي كذلك من عدم قدرة الرجل على الجماع أو بمرض الماء المنوي[2].

ودرس إبيقراطس ظاهرة العقم مبكرا. وألّف كتاب 'عقم النساء' وأشار إلى احتمال عقم الرجال وأرجع هذا إلى الحرارة الفارطة أو البرودة لجسم الرجل، كما أرجع عقم الرجل لكثافة منيه الذي لا يقدر على الخروج بسهولة.

ورغم هذا نلاحظ أن الخطاب الطبي لم يفرض نفسه ولم يزعزع كثيرا الذاكرة الجماعية والثقافة السائدة ويتوارث معتقد 'المرأة مسؤولة' عن عدم الإنجاب من جيل إلى آخر حتى أثر في موقع المرأة

---

1 Guhmaher A.F 'Early attitude to ward in fertility' cité par Houda

2 نلاحظ أن ذاك الزمن لم يكن يعرف الحيوانات المنوية التي اكتشفت عام 1677 على يد لووينهوكر والبويضة عام 1670 على يد ريجيي غراف

في المجتمع.

يوحي هذا بأن العقر (تشخيصه وعلاجه) هو تقليديا قضية النساء. إلا أن العلم الحديث قلل من هذا المعتقد وأصبحت الفحوص تظهر مسؤولية الرجل في عدم الإنجاب ولكن بعدما يتبين أن المرأة سليمة فعلا.

نتج عن هذا المعتقد أن الرجل إذا قام بدوره ألذكوري فلا يمكن أن يتهم بالعقر. كون العقر عند الرجل هو العجز في الجماع في الخيال الشعبي وهذا عار كبير لا يقبله الرجل. ويكون موضوع صراعات عنيفة إن جاء الاتهام من طرف الزوجة وسمعت به أم الزوج.

تركت صفة التأنيث هذه لعدم الإنجاب، الحديث عن وضعية المرأة العاقر دون الرجل لكونه موضوعا اجتماعيا منذ القدم. وحتى عند ثبوت مسؤولية الرجل فوضعيته الاجتماعية لا تتأثر كثيرا.

كما تكوّن حول العقر ومعالجته نسق يضم في جل مكوناته النساء حتى أصبح العقر يشخص تقليديا من طرف نساء، يعالج من طرف نساء ولو تدخل رجل كما سنرى في العلاج. وأصبح لهذا العالم فضاؤه ونساؤه ووسائله.

إلاّ أن في بعض المناطق من الجزائر لم يكن يبرأ الرجل من مسؤولية عقر الزوج (الاثنان) ومنهم قبائل التوارق التي لم تكن تشير بأصابع الاتهام إلى المرأة في أول وهلة إن طال ظهور الحمل. وإن كان المصطلحان الذين يعرف بهما الرجل العاقر (أمقّقرو) والمرأة العاقر (تمقّقروت) مصطلحين يستعملان حتى للحيوانات فيفضل التوارق استعمال تعبير مجازي حتى لا يسيء للإنسان العاقر ويقولون رجل لا يلد أو امرأة لا تلد بدون أي نوع من الاحتقار أو الاستهزاء.

ويظن التوارق أن العقر ليس نهائيا ويبقى الأمل قائما. وعندهم كذلك يقال عن المرأة العاقر أن 'ظهرها معطوب' (أيشود ن أرورو) وإن كانت الفترة الزمنية بين الحمل والآخر طويلة فإن

'ظهرها طويل' (أروروازقرين) ويمتنع الترقي من الحمل المتكرر والمتقارب حتى لا 'يتعب ظهر المرأة'

4. الرجل والعقر

كما ذكرنا سابقا, للرجل مسؤولية هامة في عدم الإنجاب حتى ولو سلّمنا بالمعتقدات السائدة رغم البحوث التي تجري على الخصوبة[1] وبحوث تحديد النسل.[2]

ظهرت بعض البحوث القليلة التي لا تبرئ الرجل من مسؤولية عدم الخصوبة إما بأن ترجع إليه السبب الرئيسي في عدم الإنجاب لكونه معرّضا إلى تقليص خصوبته مع السن وفرضية تعرضه إلى موانع أسبابها مختلفة كما سنبينها فيما بعد.

أظهرت هذه البحوث في السنوات الأخيرة. منذ السبعينيات جليا أن الرجل له المسؤولية بالتساوي مع المرأة وفي بعض الحالات يتسبب الرجل في عدم الخصوبة أكثر من المرأة. والألم الناتج عن عقم الرجل أكثر وقعا في بعض الأحيان لأنه غير مقبول 'ثقافيا' واجتماعيا. وهذا يدفع بعض الرجال إلى رفض الفحوصات الطبية عندما يُدعون إليها معتبرينها مساسا برجولتهم. واعترف لنا بعضهم انهم يخافون نتيجة الفحص.

في بداية نشاطه. أحصي المركز للإنجاب المدعم ''المولود'' بوهران سنة1995 أن من بين عشرة أزواج خمس حالات يعاني فيها الرجل من عدم الخصوبة، وسبع حالات تعاني المرأة فيها من فقدان الخصوبة، وفي حالتين يرجع السبب إليهما معا.

---

[1] نتكلم عادة عن خصوبة المرأة بحيث أننا نرفقها بعدد وتعطينا الإحصائيات خصوبة المرأة هي 3,f2 أطفال للمرأة الواحدة أنظر الجداول للخصوبة في المغرب العربي.

[2] تحديد النسل موجه بالدرجة الأولى للمرأة باستعمال حبوب منع الحمل أ,الموانيع المختلفة الأخرى

كما زرنا خمس أطباء مختصين بوهران والمعطيات التي جمعناها مما أدلوا به إلينا أنتج الجدول الآتي:

المسؤول عن عدم الإنجاب	100 زوج
امرأة	40
رجل	32
الزوج (رجل وامرأة)	28

مسؤولية عدم الإنجاب عند الأزواج

وللممارسات الشعبية طرق لتحديد مَن مِن بين الزوجين المسؤول عن عدم الإنجاب. "ولذلك الغرض تأتي المرأة 'بالحلبة'[1] الجديدة لا القديمة، تضعها في التراب وتتبول عليها، ثم تضعها في إناء صغير، ونفس الشيء بالنسبة للزوج، إن نبتت حلبتها على بولها تنجب، وإن نبتت حلبته علة بوله ينجب"[2].

1 نبات موجود بكثرة عند العشابين و يستعمل لكثير من الأمراض.

2 المختار الهراني و إدريس بنسعيد , الثقافة والخصوبة: دراسة في السلوك إنجابي في المغرب ص 62. دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان

5.وضعية المرأة العاقر

أعاقرٌ مِثْلُ ذات رِحْمٍ؟

أو غانمٌ مِثْلُ من يخيب؟

هذان البيتان من قصيدة لعبيد بن الأبرص الأسدي، وهو شاعر جاهلي، يظهران اعتبار المرأة العاقر مقارنة بالولود[1].

ومعنى قوله: 'أعاقر مثل ذات رحم؟': استفهام إنكاري، أي: هل المرأة العاقر التي لا تلد تشبه المرأة ذات الرحم أي الولود؟ ومراده أنهما لا تستويان لأن الأمومة ممر لا بد منه للمرأة لترقيتها إلى وضعية مثمنة كزوجة وأم.

وإن عدم الأمومة يتحول إلى مشكل هوية للنساء. لا 'تكتمل' المرأة إلا إذا أنجبت.

يرتبط اعتبارها وشرفها بقدرتها الإنجابية. وتكون علامات هذا الاكتمال الذي تحرز به المرأة الاعتبار والشرف مجال مراقبة وملاحظة يومية. إذ بعد شهور قليلة من الزواج تراقب العائلة إن وقع تغيير في تصرفات الزوجة أو على جسدها: هل تصلي؟ هل لها رغبات خاصة؟ (الوحم)

يعتبر أعضاء العائلة أنفسهم معنيين كون المولود 'ملكية' للعائلة وخاصة عائلة الزوج.

وفي بعض المجتمعات المماثلة للمجتمع الجزائري (السودان) لا تحتل المرأة مكانة اجتماعية وهي

1 انظر ديوانه، ت: د. حسين نصار ص (12)، مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، 1377هـ

بالتالي امرأة عادية أي بمفهومهم شيء لا يعتد به إلاّ إذا أنجبت، وإلاّ فلا يُعتد بأنوثتها[1] ولا تعد امرأة كاملة (كما لا تعد المرأة التي بلغت سن اليأس امرأة كاملة)

تقدر مكانة المرأة بقدرتها على الإنجاب ومهارتها المنزلية. فإن كانت تتوفر على هذه الخصال فإنها 'تحمّر الوجه' لعائلة الزوج كما 'حمّرت وجه' عائلتها يوم زفافها إن كانت فعلا بكرا. فمكانتها الاجتماعية ترتقي بمجرد أن يثبت الحمل وتتبوأ مكانة مرموقة داخل العائلة. وإن لم يحصل حمل فصفة العاقر تلصق بالمرأة التي سوف تعاني طيلة حياتها من هذه الصفة.[2]

إجبارية الأمومة تفرض نفسها بعواقب متفاوتة بقدر ثقافة المجتمع أو تعلم أفراده. فالمولود الأول يكون المؤشر الأكثر تعبيرا، في مراحل الاندماج في المجتمع للنساء. يهدي هذا المولود الأول أمه مكانة مرموقة وفوائد اجتماعية عديدة.

فإن كان العقر يؤثر سلبا على مكانة المرأة فإنه ينتج عنه كذلك وضعيات شخصية للمرأة تجعلها تخشى حالات مرتبطة بالعقر كالخوف من تخلي زوجها عنها والشعور بالنقص وعدم صلاحيتها في المجتمع. كما يكون للعقر انعكاسات نفسية تخلّ بالحياة الزوجية وخاصة الجنسية وتوتّر على العلاقة الزوجية. كما تشعر العاقر بالعجز والإحباط. وتتربى فيها الغيرة نحو كل امرأة سليمة ولود. وتتوتر العلاقة مع كل الناس كون الانفعال والعنف يسيطران على تصرفها إن لم تكن منطوية على نفسها وترفض الاختلاط بغيرها من النساء وكثيرا ما ننسى أن العقر يكوّن إحدى الأزمات

---

1 *La construction sociale du corps* : Christine Detrez. Le Seuil Paris 2002

2 كان يظن الفينيون أن البطراف المغروس من الطرف النساء أحلى من ذلك الذى غرسه الرجال إلاّ أن المرأة العاقر تكون خطرا على النتوج الفلاحي

العميقة لدى الزوج. وهي تهدد كل شرائح المجتمع وكل أنماط الحياة الزوجية. لا تخص العلاقة الزوجية فحسب بل يتضرر منها كل طرف من الزوج. بتأثر مدلول الأنا وأحلام المستقبل والعلاقات مع الوالدين والأصدقاء والزملاء. لا يوجد أزمات كثيرة تخاطب كل الجوانب النفسية مثل العقم ولكن الجوانب الفيزيولوجية من عدم الإنجاب هي التي تحتكر الجهود لمحاربته متجاهلا الجوانب النفسية التي تلعب دورا هاما في نجاعة التدخلات العلاجية.

ونشير إلي أن المرأة التي لا تنجب إلا الإناث ليست في وضعية أحسن من العاقر. فكما بينا في تعريف العقر اصطلاحا تعتبر المرأة التي تنجب الإناث فقط عاقرا حتى ولو ذهب بعض العلماء إلى أن المسئول عن جنس الجنين هو الرجل الذي يحمل الكروموزوم yx المسؤول عن جنس الجنين خلافا للمرأة التي تحمل الكروموزوم xx.

وكان هذا 'الاعتقاد' بمسؤولية الرجل في جنس الجنين شائعا عند نساء العرب ولنا في الأبيات التالية لزوجة أبي حمزة الظبي التي كانت تلد الإناث فقط وغضب أبو حمزة وهاجرها وكان يقيل ويبيت عند جيران له وبعد ما مر بخبائها يوما سمعها تقول وترقص ابنتها:

'ما لأبى حمزة لا يأتينا *** يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا *** تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا *** نحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا.'

فعاد حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وابنتها[1]

وعممت هند ابنت النعمان و زوجة الحجاج هذه الفكرة مسندة كل صفات الوراثة إلى الرجل وقالت في هجاء لزوجها ونافية مسؤولية ما تلد عن نفسها.

'وما هند إلاّ مهرة عربية

سليلة أفراس تحلّلها بغل

فإن ولدت مهرا فلله ذرّها

وإن ولدت بغلا فقد جاء به البغل'

ولا شك أن العقم يؤدي إلى توتر وقلق واكتئاب لدى الزوجين[2]، ويساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في إحداث اضطرابات زوجية ومشكلات أسرية قد تكون عواقبها أحيانا وخيمة.

لم ينفرد المجتمع الجزائري بنفوره من المرأة العاقر ولكن عبر العصور لم تحسد المرأة العاقر على وضعيتها. ولننظر في مدى التشابه وبالتالي في إمكانية التأثر بالحضارات القديمة نوجز فيما يلي وضعية المرأة العاقر في بعض الحضارات.

6. المرأة العاقر في المجتمعات :

* **في الشرق القديم** كان احترام المرأة مشروطا بأمومتها ويكون الاحترام أكبر إن كانت أمّا

1 ينظر : الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، دار المعارف، تونس، ج1،ص 163

2 أنظر فصل التحقيق الميداني

لطفل ذكر وإلاّ فالطلاق مصيرها. وجاء قانون حمورابي ليخفف نوعا ما وضعية المرأة العاقر:

' كذلك كان قانون حمورابي البابلي يجيز أن يتزوج الرجل من امرأة ثانية، إذا كانت زوجته عاقرا أو مريضة، وتحتفظ الزوجة الأولى بمكانتها كسيدة، وتعتبر الزوجة الثانية خادمة لها، وقد جرت التقاليد البابلية أن تزوج الزوجة العاقر زوجها من جاريتها طلبا للولد، فإذا لم تلد الجارية حق لسيدتها أن تبيعها.'[1]

- **في مصر الفرعونية** احتلت المرأة مكانة أحسن مما كانت عليه في الحضارتين البابلية والسوميرية. فما عدا فرعون وحاشيته فلم يكن يسمح بتعدد الزوجات وكانت للمرأة كلمتها في العائلة. إلاّ أن المرأة العاقر كانت تطلق ولا يسمح للزوج أن يحتفظ بها إلاّ خادمة. وإن كانت أمّا لولد فتصبح حينئذ 'سيدة المنزل'[2].

- **في اليابان والصين** كانت المرأة تجبر على تقبل الضرّة إن لم تنجب ذكرا وتطلق عند عدم الإنجاب. ولم يكن تعدد الزوجات شائعا إلاّ عند الملوك والنبلاء. لم تكن الأم تقبل بضرّة عند سواهم.[3]

- **في اليونان** كان يحتفل بالمرأة عند وضع حملها كأنها ملكة اعتلت عرشا. أما العاقر

---

1 د. سامح عبدالسلام محمد : موقف الشريعة الإسلامية من قضية المساواة بين الرجل والمرأة
http://www.alukah.net/publications_competitions/0/37371/#ixzz3nWJvEke0

2 F. Grimal. *Histoire mondiale de la femme*. Nouvelle librairie de France Paris 1965

3 عبد المنعم جيري : المرأة عبر التاريخ البشري ص 107: صفحات للدراسات والنشر 2009

فكانت تلحق بزمرة النساء اللواتي لم تنجب حتى تساعد الجندي في راحته وهذا خاصة في مدينة سبارتا حيث النشاط العسكري كان هو الأهم. ولم تختلف الآتنية عن جارتها السبارتية وكانت العاقر تلحق بالخادمات ويجب عليها خدمة ضرتها الولود وتساعدها على تربية أولادها.[1]

- **في روما القديمة** كان الرجل يجبر على إدخال خادمة مملوكة في بيته من أجل الإنجاب إن كانت الزوجة عاقر ولكن لم يطلقها. والهدف من الزواج في روما كان تزويد الجيش بالرجال. وإنجاب الذكور كان واجبا مدنيا. رغم اكتساب المرأة كثير من الحقوق إلاّ أن العاقر لم تكن محظوظة مثل الولود التي كانت محاولة اكتسابها تمر بكل الطرق[2]. فها هو ذا سيلاّ[3] يجبر بوبيي[4] على طلاق زوجته العاقر ليتزوج أخري لا زالت في ذمة رجل آخر لا لسبب إلا لكونها حاملا وها هو هرطنسيوس المتزوج من عاقر يطلب من كاتون الصغير[5] أن يهبه زوجته الولود. وعندنا كذلك قصة أوقست[6] عند اعتلائه عرش الأمبراطورية طلق زوجته سكريبونيا العاقر وفرض

1 المصدر السابق، ص 127

2 نفس المصدر، ص 137

3 سيلاّ كورنليوس جنرال ورجل سياسة قائد ماريوس 78 قبل الميلاد

4 جنرال ورجل سياسة روماني

5 سيناتور روماني

6 إمبراطور روماني

على دريسيس[1] أن يترك له ليفي زوجته التي كانت أمّا وحاملا منذ ستة أشهر حتى يضمن الإنجاب. كما كانت تغيّب المرأة كعنصر من المجتمع. كمواطنة وهذا تأكيد لوظيفتها كأم. ولم يكن يسمح للمرأة بالحياة الاجتماعية إلاّ إذا تأكدّت أُمُومتها بحمل ناجح.

- **وفي الهند** النساء مقتنعات أن الرجال الذين ليس لهم ذرية ذكور محرومون من السعادة الأبدية (الجنّة) وبالتالي تسعى النساء الهنديات إلى تزويج بعولتهن بنساء أخريات حتى ولو كلفهن هذا تعاسة وجود الضرة ولكنها ترى في هذه التضحية واجبا. خاصة إذا تأكّد أن الضرة أنجبت ذكرا. كما يعتبر إنجاب الذكور رحمة من السماء ورمزا للاعتبار في الحياة الاجتماعية.[2]

- **وعند قبائل 'الضقون'**[3](Dogon) يعتبر العقم موتا والمرأة الحائض تعتبر ميتة كذلك كون العقم والحيض ينفيان الحياة أي إعطاء الحياة. إن المرأة الحائض في فترة عقر مؤقت وتنسلخ من وظائفها الأساسية وهي الإنجاب[4].

- **لمعرفة وضعية العقيم عند العرب** يجب التمييز بين فترتين: الجاهلية وما بعد بعثة رسول الإسلام هـ.

---

1 رجل سياسي روماني

2 نفس المرجع ص 148

2 قبيلة مالية في غرب إفريقيا.

4 Marie-Hélène Cazes, Les échanges matrimoniaux chez les Dogons de Tabiarticle in *Population* Année 1981 Volume 36 Numéro 6 pp. 1069-1083

مثل كل المجتمعات كان العرب يفتخرون ويتباهون بكثرة الأولاد للسيادة والقوة والنفوذ وللتأمين من الأخطار التي كانت تحيط بالقبيلة وكان الرجال هم الحمية وهذا يجعل ممن كانت تلد الذكور في وضعية تحسد عليها. أمّا العاقر فكثيرا ما كانت تطلّق أو تضاف إليها ضرّة أو سبيه من السبايا الكثيرات اللائ كن من أهمّ الغنائم. والتي تلد الإناث كان ينظر إليها بشؤم وكانت مولودتها توأد فيبعض الأحيان وتسبب لوالدها سواد الوجه وعدم الظهور لدى الناس من الخجل. (وحتى الآن يقال في الهضاب العليا لمن أنجبت له زوجته بنتا أنها 'جَبَتْلَه عقرب').

وعند مجيء الإسلام بقيت المرأة الولود للذكور تتبوأ مكانة مرموقة في العائلة والقبيلة وكان العقم من الأسباب المشروعة للطلاق[1] أو تعدد الزوجات إلاّ أن بعض السلوكات لم تبق مثل وأد البنات الذي استبشعه القرآن. كما أن القرآن عاتب تصرف الذي :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ سورة النحل (58-59)

ونستشف بعض الأفضلية للولد على البنت من خلال نصوص شرعية مثل دعاء إبراهيم وزكرياء الذين دعَوَا الله أن يهب لهما غلاما. كما عرفنا من خلال وصية يعقوب لبنيه أن يتفرقوا خشية العين التي كانت تصيب النعم والأولاد الذكور مما يحسد عليه ولم يذكر بنت ليعقوب. وامرأة عمران تأسّفت عند وضع مريم بدل الولد الذي كانت نذرته لله وهو في بطنها.

---

[1] لا يجعل الحلم الذي رأيناه عند التوارق اتجاه المرأة العقيم سببا للطلاق ويعتبر الرجل الذي يتخذ العقم درعا للطلاق رجلا ليس له شرف (إبان عصاق)

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) ﴾. سورة آل عمران.

إلاّ أنه يُنظر للعاقر نظرة احتقار حتى في هذه الأزمنة ونقرأ في 'المغرب المجهول' لموليراس ' لم يرض الريفيون بالنساء العقيمات اللاتي كن يطلقن بعد انتظار سنتين أو ثلاث. كن موضوع احتقار كبير. ولن يتزوجن طيلة حياتهن إلاّ نادرا ويكون هذا من غريب. وحتى حياتهن داخل العائلات لم تكن حياة ارتياح واطمئنان. فيستعملن كالخادمات ويتحملن أبشع المعاملات...'[1]

ونختبر من 'حِكَم' الأدباء أن المرأة تزداد شراً في شيخوختها: 'وقالوا: آخر عمر الرجل خير من أوله، يثوب حلمه، وتثقل حصاته، وتخمد شرارته، وتكمل تجارته. وآخر عمر المرأة شر من أوله، يذهب جمالها، ويندب لسانها، ويعقم رحمها'.[2]

1 Moulieras Auguste : *Le Maroc inconnu p169* من ترجمتنا

2 أبو عمر أحمد بن محمد بن حبيب ابن عبد ربه: العقد الفريد ج1 ص 18

7- العقم في الديانات.

7-1 عند اليهود

عند اليهود العقم عقاب من الله لفساد الأمة كما جاء في التوراة (تثنية 28:1-68)[1] وخاصة المرأة وهذا على حرام اغترفته لأن الرب 'بارك' بني إسرائيل ونقرأ في سفر التثنية 14:7 'مباركا تكون فوق جميع الشعوب. لا يكون عقيم ولاعاقر فيك ولا في بهائمك'

سمحت التوراة لليهودي أن يطلق زوجه بمجرد وجود عاهة، والتفاسير توسعت في شرح كلمة عاهة والعقم عندهم عاهة.[2] وإن لم تنجح في طبخ طبق كذلك عاهة. كما توصف بالعقر من لم تنجب ذكرا وأنجبت إناثا.

جاء في التلمود أن الطلاق إجباري إن لم تنجب الزوجة بعد عشر سنين من العشرة الزوجية (ياب64أ)[3] وفي الوقت نفسه تكون من رحمة ياهو ألا تجهض امرأة ولا تكون عاقر (الخروج 23.20).

لم يكن العقر سبب بؤس فحسب ولكن كان يجلب للزوج الخجل أمام معشر الرجال. والرجل الذي لم تنجب له زوجته ولدا كان له الحق في الطلاق. أما الزوجة فكان مصيرها الدير لتعيش حياة منعزلة عن الدنيا. المرأة المثلى هي التي كانت في صحة جيدة وكانت ولودا ولنا في

---

1 شايف عكاشة : الإعجاز والغيب

2 Bible ;DEUTERONOME 24;1

3 لقد أوحى هذا القانون للكاتبة اليهودية إليات أبيكاسيسراوة المطلقة

العهد القديم قصة سيدنا يعقوب وزوجته الرحيل دلالة على مكانة الولود والعاقر ونقتطف من سفر التكوين ما يلي:

الإصحاح الثَّلاَثُونَ:

1فَلَمَّا رَأَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ لِيَعْقُوبَ، غَارَتْ رَاحِيلُ مِنْ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: 'هَبْ لِي بَنِينَ، وَإِلاَّ فَأَنَا أَمُوتُ!'. 2فَحَمِيَ غَضَبُ يَعْقُوبَ عَلَى رَاحِيلَ وَقَالَ: 'أَلَعَلِّي مَكَانَ اللهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكِ ثَمْرَةَ الْبَطْنِ؟'. 3فَقَالَتْ: 'هُوَ ذَا جَارِيَتِي بِلْهَةُ، ادْخُلْ عَلَيْهَا فَتَلِدَ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَأُرْزَقُ أَنَا أَيْضًا مِنْهَا بَنِينَ'. 4فَأَعْطَتْهُ بِلْهَةَ جَارِيَتَهَا زَوْجَةً، فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَعْقُوبُ، 5فَحَبِلَتْ بِلْهَةُ وَوَلَدَتْ لِيَعْقُوبَ ابْنًا، 6فَقَالَتْ رَاحِيلُ: 'قَدْ قَضَى لِيَ اللهُ وَسَمِعَ أَيْضًا لِصَوْتِي وَأَعْطَانِيَ ابْنًا'. لِذلِكَ دَعَتِ اسْمَهُ 'دَانًا'. 7وَحَبِلَتْ أَيْضًا بِلْهَةُ جَارِيَةُ رَاحِيلَ وَوَلَدَتِ ابْنًا ثَانِيًا لِيَعْقُوبَ، 8فَقَالَتْ رَاحِيلُ: 'مُصَارَعَاتِ اللهِ قَدْ صَارَعْتُ أُخْتِي وَغَلَبْتُ'. فَدَعَتِ اسْمَهُ 'نَفْتَالِي'.9وَلَمَّا رَأَتْ لَيْئَةُ أَنَّهَا تَوَقَّفَتْ عَنِ الْوِلاَدَةِ، أَخَذَتْ زِلْفَةَ جَارِيَتَهَا وَأَعْطَتْهَا لِيَعْقُوبَ زَوْجَةً، 10فَوَلَدَتْ زِلْفَةُ جَارِيَةُ لَيْئَةَ لِيَعْقُوبَ ابْنًا. 11فَقَالَتْ لَيْئَةُ: 'بِسَعْدٍ'. فَدَعَتِ اسْمَهُ 'جَادًا'.12وَوَلَدَتْ زِلْفَةُ جَارِيَةُ لَيْئَةَ ابْنًا ثَانِيًا لِيَعْقُوبَ، 13فَقَالَتْ لَيْئَةُ: 'بِغِبْطَتِي، لأَنَّهُ تُغَبِّطُنِي بَنَاتٌ'. فَدَعَتِ اسْمَهُ 'أَشِيرَ'.14وَمَضَى رَأُوبَيْنُ فِي أَيَّامِ حَصَادِ الْحِنْطَةِ فَوَجَدَ لُفَّاحًا فِي الْحَقْلِ وَجَاءَ بِهِ إِلَى لَيْئَةَ أُمِّهِ. فَقَالَتْ رَاحِيلُ لِلَيْئَةَ: 'أَعْطِينِي مِنْ لُفَّاحِ ابْنِكِ'. 15فَقَالَتْ لَهَا: 'أَقَلِيلٌ أَنَّكِ أَخَذْتِ رَجُلِي فَتَأْخُذِينَ لُفَّاحَ ابْنِي أَيْضًا؟' فَقَالَتْ رَاحِيلُ: 'إِذًا يَضْطَجِعُ مَعَكِ اللَّيْلَةَ عِوَضًا عَنْ لُفَّاحِ ابْنِكِ'. 16فَلَمَّا أَتَى يَعْقُوبُ مِنَ الْحَقْلِ فِي الْمَسَاءِ، خَرَجَتْ لَيْئَةُ لِمُلاَقَاتِهِ وَقَالَتْ: 'إِلَيَّ تَجِيءُ لأَنِّي قَدِ اسْتَأْجَرْتُكَ بِلُفَّاحِ ابْنِي'. فَاضْطَجَعَ مَعَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ. 17وَسَمِعَ اللهُ لِلَيْئَةَ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لِيَعْقُوبَ ابْنًا خَامِسًا. 18فَقَالَتْ لَيْئَةُ: 'قَدْ أَعْطَانِي اللهُ أُجْرَتِي، لأَنِّي أَعْطَيْتُ جَارِيَتِي لِرَجُلِي'. فَدَعَتِ اسْمَهُ 'يَسَّاكَرَ'. 19وَحَبِلَتْ أَيْضًا لَيْئَةُ وَوَلَدَتِ ابْنًا سَادِسًا لِيَعْقُوبَ، 20فَقَالَتْ لَيْئَةُ: 'قَدْ وَهَبَنِي اللهُ هِبَةً حَسَنَةً. الآنَ يُسَاكِنُنِي رَجُلِي، لأَنِّي وَلَدْتُ لَهُ سِتَّةَ بَنِينَ'. فَعَتِ اسْمَهُ

'زَبُولُونَ'. 21ثُمَّ وَلَدَتِ ابْنَةً وَدَعَتِ اسْمَهَا 'دِينَةَ'.22 ذَكَرَ اللهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا، 23فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتِ ابْنًا فَقَالَتْ: 'قَدْ نَزَعَ اللهُ عَارِي'. 24وَدَعَتِ اسْمَهُ 'يُوسُفَ' قَائِلَةً: 'يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْنًا آخَرَ'.

ومن هذه الآية يُستخلص أن العاقر من المغضوب عليهن.

ونرى أن 'رحيل' نفسها لم تستثنى من النساء اللواتي أصابهن الحزن بفعل العقم وحلّت في نفوسهن الغيرة من النساء اللواتي أنعم الله عليهن بالقدرة على الولادة وقد سبقتها ساره زوجة سيدنا ابراهيم بحيث عندما وهبت هاجر خادمتها لإبراهيم حتى تكون له ذرية منها غارت منها بعدما وضعت هاجر إسماعيل وطلبت منه أن يتركها

7-2-في المسيحية

المرأة العاقر في المسيحية أحسن حظا من اليهودية بحيث أن العقيدة تمنع الطلاق وتمجد التبتل للرجال والنساء. إلا أن وضعيتها كامرأة هي التي لا تحسد عليها لقد سلّم القديس أو قستين أفكارا تتهم المرأة بأنها مصدر الخطيئة بحيث بقيت المرأة في الغرب هي حواء إلى الأبد، هي إغراء الرجل إلى قدره المشئوم. بل إن إنجاب الأولاد الذي تعتبره ثقافات أخرى فخر المرأة الرئيسي وينبوع القدرات التي تمتلكها.[1]

7-3- في الديانة الهندسية

عند مانو كانت المرأة العاقر أحسن حظا من قرينتها اليهودية وقد قضى قانون مانو بعدم جواز

[1] أنظر المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام لعلي بن نايف الشحود مكتبة الشاملة الرقمية

تطليق المرأة بسبب عقرها، أو كانت لا تلد سوى البنات ولكنه أجاز للرجل أن يتزوج من امرأة أخرى، ونصَّ القانون البابلي على مثل ذلك، ولكن العرف جرى على أنْ تزوج المرأة العاقر زوجها من جاريتها، لتبقى هي السيدة الأولى في البيت الزوجي، وتبقى لها الهيمنة على جاريتها؛ ولذلك كانتِ الجارية تقوم في كل مساء بغسل أقدام سيدتها، تعبيرًا عن خضوعها لسيطرتها.[1]

7-3- عند المسلمين

كلما جاء ذكر العاقر أو عقيم في القرآن كان مرتبطا بالمرأة وهكذا نجد زوجة سيدنا زكريا عاقر:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران: 40)

وقال عزّ وجلّ على لسان صارا زوجة سيدنا إبراهيم:

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (سورة الذاريات:29)'

كما وصّى النبي صلى الله عليه وسلّم أن يتزوج المسلم بالمرأة الولود الودود ومن الصفات المرغوبة في الزواج:

---

[1] انحلال الزواج :د. عبدالسلام الترمانيني : مقالة نشرت على الأنترنت

http://www.alukah.net

أن تكون الزوجة ولودًا –أي ليست عقيمًا –قال صلى الله عليه وسلم:(تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة). إلا أن الولود لا يمكن أن نتعرف عليها قبل الزواج ولكن قال الفقهاء أن المرأة الولود تعرف من قرائن الحال في أسرتها وقريباتها، وهذا شيء لم يثبته العلم ويبقى ظنيا، ولكن لابد أن يضع الزوج ذلك في الحسبان.

أما الزواج من العقيم فهو نزوة عابرة أو مصلحة مؤقتة وسرور بزواج من غير تبعات، فعن معقل بن يسار قال:

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد أ فأتزوجها ؟ قال : (لا) ثم أتاه الثانية فنهاه رسول الله صلى الله عليه و سلّم، ثم أتاه الثالثة، فقال الرسول: (تزوجوا الودود الولود)[1] .

ولا ريب فيأن هذا لا يعني أن العاقر من النساء لا خير فيها، لأن ذلك من باب أفعل التفضيل، أي أفضل النساء، بل إن العاقر إذا كانت أتقى لله تعالى كانت أفضل من الولود، ولعلها إذا صبرت على مرارة الحرمان من الذرية أن تعطى أجرها على ذلك) ونجد في إحياء علوم الدين في كتاب 'آداب النكاح' مقولة نسبت للخليفة عمر بن الخطاب يذم فيها المرأة العاقر إذ قال عليه السلام 'لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد وقال خير نسائكم الولود الودود وقال سوداء ولود خير من حسناء عقيم و في رواية لا تلد'[2]

---

[1] أخرجه الترميذي في سننه .كتاب النكاح

[2] حديث لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد أخرجه أبو عمر النوقاني في كتاب معاشرة الأهلين موقوفا على عمر بن الخطاب حديث : ' سوداء ولود خير من حسناء عقيم ' . أخرجه الطبراني في الكبير (19 / 416 ، 1004 ، ط الدار العربية للطباعة) من حديث معاوية بن صبرة ، وقال الهيثمي (مجمع الزوائد 4 / 258 ط . دار السعادة) وفيه علي بن الربيع وهو ضعيف .

وعن أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: 'إن من شقاء المرء في الدنيا ثلاثة: سوء الدار وسوء المرأة وسوء الدابة'. قالت: يا رسول الله ما سوء الدار؟ قال: 'سوء ساحتها وخبث جيرانها'. قيل: فما سوء الدابة؟ قال: 'منعها ظهرها وسوء خلقها'. قيل: فما سوء المرأة؟ قال: 'عقم رحمها وسوء خلقها'. رواه الطبراني[1].

وجاء كذلك في الخبر :'(أخبرنا) أبوسعيد بن أبي عمر وثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي أنا سعيد بن سالم عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع مولى ابن عمر أنه قال كانت ابنة حفص بن المغيرة عند عبد الله بن أبي ربيعة فطلقها تطليقة ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تزوجها فحدث أنها عاقر لا تلد فطلقها قبل أن يجامعها فمكثت حياة عمر وبعض خلافة عثمان رضي الله عنهما ثم تزوجها عبد الله بن أبي ربيعة وهو مريض لتشرك نساءه في الميراث وكانت بينه وبينها قرابة[2].'

ويضيف سيد قطب في تفسيره لآية تعدد الزوجات: 'وفي حالة عقم الزوجة مع رغبة الزوج الفطرية، يكون أمامه طريقان لا ثالث لهما:

- أن يطلقها ليبدل بها زوجة أخرى تلبي رغبة الإنسان الفطرية في النسل.

- أو أن يتزوج بأخرى ويُبقي على عشرته مع الزوجة الأولى. وقد يهذر قوم من المتحذلقين، ومن المتحذلقات، بإيثار الطريق الأول. ولكن تسعاً وتسعين زوجة (على الأقل) من كل مائة ستتوجهن باللعنة إلى من يشير على الزوج بهذا الطريق: الطريق الذي يحطم عليهن بيوتهن بلا

---

1 الطبراني : المعجم الكبير رقم الحديث ص 19910 (حديث مرفوع)

2 تهذيب الكمال في أسماء الرجال: الحافظ المزي: / ج: 5ص:299: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر 1994

عوض منظور –فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغباً في الزواج –وكثيراً ما تجد الزوجة العاقر أمناً واسترواحاً في الأطفال الصغار، تجيء بهم الزوجة الأخرى من زوجها، فيملؤون عليهم الدار حركة وبهجة، وأياً كان ابتئاسها لحرمانها الخاص'.[1]

ولم أرد تفويت فرصة سياق مقال لامرأة أمضته بـ 'المعذبة س' وجاء على صفحات جريدة 'الوطن' حيث تقول:

'كنت اعرف أن الطلاق سوف يضعني في مشكلة أعمق ولكن ما كان هناك خيار آخر فلم تحتمل كرامتي أن أعيش مهانة وان اعرف أن زوجي سوف يتزوج من أخرى والتزم الصمت لأكون زوجة ثانية رغم كل محاولاته إقناعي بان زواجه الثاني لن يؤثر على علاقتنا ورغم اقتناعي أن زوجي يحق له الزواج بعد مشاكل في الإنجاب أنا السبب الرئيسي فيها أدت إلى بقائنا زوجين ست سنوات دون ان نرزق بأطفال, زوجي الذي كانت تجمعني به علاقة عاطفية سبقت الزواج تجاهل كل ذلك وأصر على أن يتزوج من ثانية, بدعوى انه في حاجة إلى أن يكون أبا ولان الأطباء الذين عالجوني قالوا لي أن عملية الحمل قد لا تتم وان البديل هو اللجوء إلى حلول طبية بديلة يرفضها زوجي ولكن هذا الرفض اتخذه ستارا لزواج ثان سعى إليه بل والأكثر مرارة أن من سوف يتزوجها كانت في يوم من الأيام صديقتي وهي امرأة مطلقة ولديها طفلان من طليقها, إقدام زوجي على الزواج الثاني جعلني في حالة مأساوية إذ لم أكن أتوقع منه ذلك إلا أنني وضعت شرطا وهو إن تزوج فعليه تطليقي وبالفعل هذا ما حدث واعرف أن طلاقي لم يكن الحل المثالي, أو هكذا قال لي الناس من حولي الذين بعضهم كان لسان حاله التماس العذر لزوجي في زواجه الثاني, ولكني أصررت على الطلاق'[2]

---

1 السيد قطب : في ظلال القرآن الكريم تفسير الآية 3 من سورة النساء

2 جريدة الوطن القطرية ليوم 25/07/2005

يبين ما سبق أن الإنجاب يعزّ المرأة وعدمه يهينها ويقلل من شأنها بمثل ما تثمّن الأمومة[1]، فمكانة المرأة في المجتمع وفي عائلتها تكون حسب الإنجاب وما أنجبت ويكون في العائلة الواحدة تفضيل للولود أم الذكر على أمّ الأنثى، وتفضل هذه على العاقر تفضيلا لا جدال فيه.

ويترتب عن هذا تفاوت وضعية المرأة داخل العائلة وخارجها وتجعلها وضعيات سُلّمية حيث الأم ترتقي إلى درجة أعلى من العقيم أو من غير المتزوجة.

ويكون في العائلة العربية الإسلامية ترتيب للمرأة كالتالي:

تتربع أم الزوج على العرش وطبعا هذا أعلى سلّم كونها أنجبت الابن. رب العائلة. وكونها الأولى في العائلة كرونولوجيا.

ثم تأتي أخوات الزوج أي بنات الأم ثم تأتي الزوجة أمّ للولد. رب العائلة أو الزوجات.

ونجد ترتيبا فيما بين الزوجات:

ترتب أم الولد قبل أم البنات.

وفي بعض الأحيان ترتب الزوجة أم الولد (ونادرا أم البنات) حتى قبل أخوات الزوج وكثيرا ما يكون هذا موضوع اصطدام بين هذه الزوجة المفضلة وأخوات الزوج لاسيما إذا كانت أم الزوج على قيد الحياة وماكثة في بيت ابنها. كما ينتج على هذه الوضعية اصطدام بين الزوجات إن وُجدن خاصة إن كانت المتأخّرة هي صاحبة الامتياز لان وجود المرأة قبل ضرتها يعطيها بعض النفوذ. نفوذ الأسبقية المرفوض من قبل المتأخرة. وينقلب الوضع إن كانت المتأخرة أمّ ولد والسابقة أمّ بنات أو

[1] تؤكد بعض الأحاديث النبوية 'قداسة الأم' بجعل الجنّة تحت أقدامها.

المتأخرة أمّ بنت والسابقة عقيما.

فنستخلص أن السلطة في بيت الزوجية تكون حسب الإنجاب وتكون حسب ما أنجبت المرأة ذكرا أو أنثى. وليست المكانة المرموقة لوالدي الولد وحدها لتفضيل الذكر على الأنثى بل يوجد مسببات أخرى لهذا التفضيل منذ الجاهلية فضّل العربي أن يكون له ذرية مكونة من الذكور وهذا لأسباب مختلفة :

- الولد يقوي القبيلة لمشاركته في الغزوات العديدة ويجعل أبويه من أشراف القبيلة
- البنت تجلب العار إذا حادت عن الأخلاق.
- الولد يؤمّن شيخوخة والديه . وخاصة أمه في حالة تطليق أو كانت أرملة. وتأمين الشيخوخة ما زال سائدا في مجتمعنا المعاصر.
- الولد يضمن استمرارية اسم العائلة.

ولقد عبّر عن وضعية الأم للولد الكاتب اللبناني أمين معلوف في مؤلفه ''ليون الإفريقي'' ونسوق هذه الفقرة:

'وقد ولدت بفضل الله تعالى ومنّه في أواخر شهر شعبان قبيل بداية الشّهر المبارك فأعفيا أمي سلمى من الصيام بانتظار انقضاء النفاس. وأعفي أبي محمد من التذمّر. حتى في ساعات الجوع والحرّ. لأن ولادة ابن سوف يحمل اسمه. ويكون ذات يوم سلاحه. مدعاة فرح مشروع بالنسبة إلى كل رجل. وكنت علاوة على ذلك الابن الأول. وكان أبي ينفخ صدره بشكل خفيّ لمجرّد سماعهم ينادونه 'أبا الحسن'. ويمسّد شاربيه ويخلّل لحيته بإبهاميه على مهل وهو ينظر بطرف عينيه نحو مخدع الكبقة العليا حيث كنت مقمّطا في مهدي. ومع ذلك فإن فرحته العارمة لم تكن بعمق فرحة سلمى وحدّتها. إذ كانت على الرغم من آلامها المبّرحة وضعفها الشديد تشعر بأنها ولدت مرّة ثانية

بفضل قدومي إلى الدنيا. لان ولادتي جعلت منها أولى نساء البيت وأتاحت لها الحظوة عند أبي لسنوات طويلة مقبلة. [1]

ويمكن للمرأة أن تفرض رأيها منذ بداية الحمل وخاصة ميولتها للتغذية أو لاكتساب بعض الأشياء كانت ترغب فيها ولم يُنصت لها من قبل. هذه الظاهرة تسمي في المجتمع الجزائري ''الوحم''.

عرفت هذه الرّغبات غير المألوفة منذ القدم وكان يقال عنها أن المرأة الحامل كانت تعبّر عن رغبات الجنين الذي كان يمدّ يده لطلب الشيء المرغوب فيه.[2] وأجمع الناس على ألا يرفض للحامل طلب وعليها أن تأمر وتطاع. وإن لم يُلبّ طلبها فيأتي الطفل بعلامات تمثل ذلك الشيء الذي لم تتحصل عليه عند رغبتها فيه أو يتأخر الوضع حتى يحظر لها ما طلبت حتى في الرغبات الغريبة.[3]

---

1 أمين معلوف : ليون الإفريقي ص 14

2 يُحكى أن بعض الشيوخ. أولياء الله الصالحين كانت لهم كرامة رؤية الجنين في بطن أمه يمدُّ يده كما تبينه هذه القصة : ' ذات يوم كان تلاميذ شيخ في الصحراء يحظرون الطعام ومرّت قافلة بجانب ديارهم وطلب الولي الصالح لأحد الطلبة أن يتصدّق بقطعة لحم إلى من كان يمتطي الجمل في مقدّمة القافلة. عند وصوله تقدّم آخرون عند رؤية اللحم ولكن التلميذ رفض إعطاء الأكل إلاّ لمن أشار إليه شيخه وكانت امرأة في هودج. وعند رجوعه إلى شيخه استفسر عن السر الذي جعله يفضل هذه المرأة عن باقية إفراد القافلة. وأخبره أنه رأى القافلة قبل أن تظهر للآخرين ورأى المرأة الحامل ورأى كذلك الجنين مادّا يده نحو القطعة وهي تُشوى.

3 تذكر كورين فوروتيي قصة متداولة في الصحراء مابين الجزائر وموريطانيا أن امرأة تأخرّت كثيرا في الوضع رغم إحضار كل ما كانت ترغب فيه أثناء ''الوحم'' ولكن لم تضع ثم طلبت منها النساء المحيطات بها لتبي عن الرغبة السرّية التى لم تقدر التعبير عنها وفي الأخير أباحت بسرها العجيب وهو أن يحضر زوج أختها لأنه كانت تنظر إليه كثيرا لجماله ولما استؤذن الزوج وافق حتى لا يتأخر الوضع أكثر وعند حضوره وضعت في الحين. وأيام بعد الوضع طلقها زوجها.

هذا يبين مدى أهمية الإنجاب، وأن صفة الأم تعطي المرأة مكانة اجتماعية تحسد عليها.

ومن أجل هذه المرتبة وللظفر باعتبار لا يعطيها إياه إلا الولد تلجأ المرأة إلى الزعم بأنها حامل والولد 'راقد' في بطنها.

8- وضعية المرأة العقيم في الأدب:

كثيرة هي المؤلفات الأدبية التي تناولت موضوع العقم وخاصة حالات النساء أو الرجال الذين لم ينجبوا وهذا حديثا وقديما.

تناول مولود معمري هذه الوضعية في المجتمع القبائلي في روايته الشهيرة'' الربوة المنسية'' حيث يصف لنا وضعية عازي زوجة أمقران:

' لمدة أيام عديدة انتظرت عازي مفعول بركة سيدي عبد الرحمن. ولكن تمرّ الأيام والأسابيع وكل شهور الشتاء. وعند عودة الربيع لم يتغير شيء بالنسبة لها. تتأزّم وضعيتها كل يوم. ماذا تفعل في منزلنا إن لم يكن لها ولد؟ لا بأس بالنسبة لي ولكن بقاؤها كل هذه المدّة بالنسبة لوالدي يكون معجزة ولكن ما يمكن أن أفعل؟ لقد استعملت كل ما تعرفه من وسائل. وكان يظهر عليها بعض الأحيان التعب مما كان يوجه لها من انتقاد خفي أو ظاهر من أمي وشرّ الأخريات. كل اللواتي كنّ سعيدات بعقمها. هيا فلتطلق حتى تتحرر من كل هذا. . . .

لم يبق إلاّ وسيلة واحدة: 'حضرة' سيدي عمار ولكن سوف لا يوافق الرجال إلاّ إذا تدخل آكلي. لم يكن لرافضة ولد هي الأخرى. إذن ستذهبان معا'.

ووصف مولود فرعون انتظار الزوجين للحمل:

' كان حلمهما أن يؤتى لهما أطفال كثيرون. خاصة الذكور.

عندما كان يتمنى لهما. في بداية الزواج.7 بنين كان هذا ينمّي ابتسامة منشرحة عند الزوج أو الزوجة. لقد بدا القلق عند نهاية السنة الأولى. كان يجب الحذر. وطلب العفو لدى الأقارب. وزيارة الأموات.

طيلة شهر كان سليمان يصلي وشابحة تتوضأ صباحا مساءا. وكانت الزوجة الشابة. عند صباح اليوم 29 من الشهر تحس بدون تعطيل. بسيل دافئ بين فخذيها وترفع عباءتها لتتأمل حشمتها. كان يفهم سليمان في الحين ثم يقوم دون أي كلام ليذهب إلى المقهى'[1]

وفي دراسة أدبية عن الشعر القبائلي تكتب تسعديت يسين[2] عن نوارة الشاعرة والمغنية القبائلية والتي تعيش حاليا في المهجر: 'لم يكن لنوارة طفل وكانت تعيش حالة العقم هذه كظلم. وكلما كانت تزور العين(تالة) أو الحقل(لكسلة) كانت موضوع سخرية من النساء اللواتي كانت تصفها بالشجرة اليابسة أو التيس الوحش المنعزل.' وأوردت إحدى قصائدها:

لو كان لي طفل

لكانت حديقة سعادة

أبني له دارا

و لن تكن لي هموم

---

1 مولود فرعون : مجلة 'صولاي' الأدبية العدد 6 ل 15\06\1951 ص 36 من ترجمتنا

2 Femmes et espace poétique dans le monde berbère. Y. Tassadit in revue CLIO N°9. 1999

يفرح قلب

ولكن خانني الحظ

ذهب

ومحي أثر قدميه

لو لم أكن عاقرة

لم أطلّق[1]

ولم أفارق الحبيب

كنت بنيت عشّ حبّ

ولكن ليس ذنبي

لأن قدري غدّار

و جاء على لسان ليون الإفريقي في كتاب أمين معلوف الروائي اللبناني 'ليون الإفريقي وهو يصف مصير المرأة العاقر: 'ولقد باحت لي (أمي) بعد مدّة طويلة بمخاوفها التي إن لم أكن قد بدّدتها فقد لطّفتها من غير أن أدري. ولئن كانت وأبي ابني عمّ منذورا أحدهما للآخر منذ الطفولة. ومتزوجين طوال أربع سنوات من غير أن تحمل هي. فقد شعرا حاوليهما منذ السنة الثانية بلغط شائن. حتى أن محمدا (أبي) رجع ذات يوم ومعه فتاة مسيحية ذات شعر أسود مظفور اشتراها من

1 طلقت نوارة 5 مرات بسبب عدم الإنجاب

جندي كان قد أسرها في غزوة بجوار 'مرسية' وقد سمّاها وردة وأسكنها حجرة صغيرة مطلّة على صحن الدّار'

إميل زولا يمجد في كتابه 'الخصوبة' المرأة الريفية والمرأة الكادحة ويقابلها بالمرأة البرجوازية. العقيم. ويقول في صفحة 495:

'وبعد ما تعبت الممرضة من المحاولات الفاشلة وبعد ما حكمت أنه من غير اللائق أن تواصل في إعطاء أمل كاذب. قرّرت أن تصارحها بعدم جدوى مواصلة العلاج...

أجهشت المرأة الحزينة وبكت عقرها...

ثم تدخّلت صديقتها قصطانص) (Constance مشعلة الأمل من جديد قائلة –لا. مازال الأمل قائما. فإنها تعرف فلانة التي أنجبت وهي في سن 50 سنة والأخرى التي تجاوزت الخمسين وولدت...

خمسون سنة ؟ أذن مازال 10 سنوات من الأمل' [1]

مهما كان فإن وضعية المرأة العاقر أكثر وقعا من الرجل العاقر كما جاء في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لصاحبه الدكتور جواد علي [2]

---

[1] *La fécondité* : Emile ZOLA page 495

[2] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الفصل 26 :موسوعة العيون المعرفية طبعة رقمية

وحظ الرجل العقيم خير من حظ المرأة العاقر. فهو يتزوج عدة زوجات فإن لم يلدن منه، آمن عندئذ بعقمه. أما المرأة، فتبقى قانعة راضية في بيت الزوجية، إن أراد زوجها ذلك، لأن من الصعب عليها الحصول على زوج آخر إن طلقت، إذ كان الرجال يفضلون الأبكار على المطلقات، **وإذا** طلقت المرأة العاقر، بقيت بين أهلها من غير زواج في الغالب.[1]

ومهما كان، فإن العقر بمختلف معانيه يصيب المرأة كما يصيب الرجل. غير أن المرأة أسوأ حظا من الرجل في مجتمع تظل مكانة الرجل فيه أكبر من مكانة المرأة التي يحاط العقم عندها بهالة من المعتقدات قديما وحديثا، لم تستطع الذاكرة الشعبية أن تتخلص منها رغم تطور الطب وتقدم وسائله، كما كان له نصيب وافر في الآداب العالمية شعرا ونثرا، حددت له مكانة اجتماعية.

1 الدكتور جواد علي :المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 8 ص 226

إن البحث عن أسباب العقر من الأمور التي لم يخطر ببال المرأة أو الرجل كأفراد بحيث أن النتيجة أي العقر هي الأهم. إلا أن التقدم العلمي والتكنولوجي وفّر ما يسهل اكتشاف الأسباب. ولكن الكثير من الناس يكتفون بالاستسلام إلى النتيجة مرجعين الأسباب إلى الله. وحتى لو توصل إلى المصاب بالعقر معرفة أسباب علّته فإنه يرجعها إلى مشيئة الله. إن قدر الله لا سبب له في رأي المؤمن ويجب عليه الاستسلام كالأعمى الذي يولد أعمى أو كالأبكم الذي يولد أبكم. مردّدا الآية الكريمة ' قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا ' وما يبين أن العقم من مشيئة الله أ هو صريح منطوق آية الشورى: ' ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)﴾

هذا في حالة المرض 'الطبيعي' وإن كان يشكّ في أن حاله من فعل فاعل (عين. سحر. جان) فإن الله بريء.

وبالتالي قسمنا الأسباب إلى طبيعية(عضوية) وغيبية وهذا بعد الإيمان بالقدر الذي لا مناقشة فيه.

القدر:

كثيرا ما يعتقد الإنسان أن لا سبب للعقم إلاّ مشيئة الله، ويذهب آخرون إلى أن السبب الذي اكتشفه العلم. هو قدر من الله مثل ما يولد الإنسان أعمى أو أبكم أو أصم وهذا ما توحي به الآية الكريمة من سورة الشورة ' ومحاولة علاجه تعتبر رفض القدر الله ويجب على الإنسان أن يستسلم لهذا القدر. بل إن الداء نفسه من قدر الله والدواء من قدر الله كذلك، كان العارف بالله عبد القادر

الجيلاني يقول: أدافع أقدار الحق بأقدار الحق[1]. وهذا ما يحث على البحث عن العلاج الذي نستعرضه في الفصل الثالث.

1- الأسباب الطبيعية (العضوية):

يمكن أن ينتج العقر من خلل جسدي أو وظيفي أو بإصابة الوظيفة التكاثرية التي تقلل من حظوظ الإنجاب أو تنفيها كلية. ويمكن أيضا ألا يكون للعقر سبب ظاهر. ومن الأسباب التي تؤدي إلى تلك الخلل الجسدي أو الوظيفي تلوث البيئة[2]. العادات السيئة (تبغ[3]. تغدية) ويمكن إضافة أسباب اجتماعية مثل دور المرأة الذي جعلها تحبذ تأخير الزواج والإنجاب وهذا الدور يكمن في حقها في الدراسات الطويلة والعمل خارج البيت والتزامات لم تكن لمثيلاتها في الأزمنة الماضية. يقول 'مارك جرموند'[4] أن السن المتقدم (وهو 35 سنة) يقلل من فرص الإنجاب عند المرأة. ويضيف مازحا أن الوظيفة البيولوجية لم تواكب التطور الاجتماعي.[5]

---

1 ذكر في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى – الجزء الثامن

2 أصبحت ظاهرة قلة الخصوبة منتشرة جدا وأرجع الأخصائيون هذا إلى تلوث الطبيعة بحيث أن الظاهرة استفحلت في الأماكن المصنعة (دراسة البروفسور السويسري مارك جرموند)

3 يقلل التبغ الخصوبة ب 40بامئة وب 27 بالمئة عند الرجل حسب مارك جرموند

4 Professeur Marc Germond. Marc Germond. Docteur en médecine, Université de Lausanne. Médecin FMH en gynécologie-obstétrique pionnier de la PMA

5 حوار أجرته معه الصحفية السويسرية إزابيلمونكادة يوم 12\04\2006

‘ Le problème, c’est que la physiologie ne se moule pas sur l’évolution sociale : nous vivons un décalage douloureux entre le rythme existentiel et l’horloge biologique ’

كما أن لتقاطع الميدان العضوي والميدان الشعوري تأثيرا كبيرا ويمكن أن يلعب دورا أساسيا في العقم الذي لم يلاحظ له سبب ظاهر.

وجدنا أن التوارق يرجعون العقم إلى أسباب عدم توازن الحرارة في الجسد. فهو إما ارتفاع درجة الحرارة الناتجة عن الاستلقاء لمدة زمنية طويلة ومتكررة على الأرض أو عن تغذية حارة(حليب الناقة. كثرة اللحم. القمح الطازج. السكر. الزبدة. الحار. التمر) أو شدّة البرد الناتج عن استهلاك كبير لمواد باردة(الحليب الممزوج بالماء. القمح النيئ .) أو لتعرض الأعضاء التناسلية للبرد بالغسل باستعمال الماء البارد أو الجماع أثناء الحيض.

وسمينا أسبابا طبيعية تلك التي يعرف طبيعتها من خلال فحص طبيب أو عارف. وهي تشمل المرأة والرجل.

1-1- عند الرجل:

- قلة عدد الحيوانات المنوية: إن معدل الحيوانات المنوية عند الرجل هو من 02إلى 04مليون حيوان منوي في المليمتر المكعب، ولا يتم الإنجاب إذا كانت الحيوانات المنوية أقل من 20مليون حيوان منوي في المليمتر مكعب.، وإن معدل القذف عند الرجل ا هو 25000 المليمتر مكعب في ظروف عادية

- الضعف الجنسي أو عدم القذف.
- ضعف الحيوانات المنوية.
- بطء حركة الحيوانات المنوية .

وهذا الأخير و هو المعروف والمنتشر جدا تفطن بعض العلماء إلى معجزة لفضية قرآنية تصفه في عملية الإنجاب. و هو قوله تعلى 'فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق' 'والدافق فمعناه في اللغة يدور على الدفع بقوة وبسرعة. ويكفينا هنا ما جاء في لسان العرب : دافق – اسم فاعل من دفق فهو يشير إلى ذاتية الحركة وحيوية الماء'[1].

ونجد من بين الأسباب ما تعرّض له الدكتور طبيب عن الختان إذ قال أنه يفسّر كثرة الإنجاب والخصوبة عند المسلم واليهودي ويضيف أن القدماء كانوا يظنون أن طول الغلفة قد يكون من مسببات العقر عند الرجل كونه يعطّل خروج المني بصفة عادية[2].

1-2-عند المرأة

نجد عند المرأة أسبابا كثيرة شخّصها الأطباء ولكثرتها سوف نقسمها إلى مجموعات من الأسباب[3]، أسباب تتعلق بالمهبل وأسباب تتعلق بالرحم وأسباب تتعلق بقناة فالوب كما يسبب العقر خللا في وظيفة المبيض ومرض يصيب السيدات يدعى داء البطانة الرحمية Endometriose

1-2-1-أسباب مهبلية:

ا) انسداد المهبل يمنع ولوج العضو الذكري بالمهبل كما في حالات عدم فض غشاء البكارة، إذا

---

[1] أنظر أ.د.مجاهد ابو المجد و أ.د.سامي عبد الفتاح: ' مداخلة في المؤتمر العالمي العاشرللإعجازالعلمي في القرآن و السنة

[2] *Médecine et hygiène des Arabes* : E.L. Bertrand . Librairie Editeur Ed. 1855

[3] نظرا لطبيعة هدا الموضوع من جانب الاختصاص الطبي فلجأنا إلى أصحاب الاختصاص الذين زودونا بكثير من المعلومات التي نقلناها كما هي . نذكر الأستاذ الشافي رئيس مصلحة الولادة وأمراض النساء با لمؤسسة الاستشفائية بوهران.

كان غشاء البكارة سميك جداً وكذلك في حالات ضيق المهبل الشديد.

ب) التهابات موجعة في جدار المهبل تمنع حدوث الجماع .

1-2-2- أسباب تتعلق بالرحم:

أ) استئصال شكل مخروطي من الرحم أو علاج عنق الرحم بالليزر أو بالكي الشديد والزائد عن اللازم. إن قلة المخاط في عنق الرحم يعيق مرور الحيوان المنوي، وقد تكون المادة المخاطية في بعض الأحيان كثيفة إلى الدرجة التي تمنع مرور الحيوان المنوي.

ب) وجود أجسام مضادة تعمل على قتل الحيوانات المنوية، حيث أن عنق الرحم أكثر الأجزاء التناسلية قدرة على إنتاج الأجسام المضادة.

ج) حالات انسداد عنق الرحم وهي حالات قليلة جداً.

د) التشوهات الخلقية للرحم.

وهي مختلفة، أغلبها يسبب الإجهاض وبعضها يؤثر على القدرة على الإنجاب، وبعضها يمكن إصلاحه جراحيا مثل وجود حاجز في تجويف الرحم.

ويمكن أن يكون الرحم ذا قرنين، وتتعرض السيدة التي رحمها من هذا النوع أحياناً على احتمال حدوث الحمل خارج الرحم أي في القرن الإضافي أما الرحم على شكل -T- فيمكن أن يؤدي إلى تأخر الإنجاب أو الإسقاط (الإجهاض). وبشكل عام فإن هذه التشوهات الخلقية تكون مصحوبة عادة بتشوه بإحدى قناتي فالوب أو كِلْتَيهما.

هـ) التصاقه داخل الرحم:

يتكون الالتصاق داخل الرحم إما بعد تكرار عملية تنظيف أو التهاب شديد في الرحم أو جرح ناتج عن استئصال ورم ليفي سابق، وتشكو بعض النساء في هذه الحالة من أن الدورة الشهرية قليلة ويظهر هذا بوضوح عند إجراء صورة ملونة للرحم، وتحتاج هذا الالتصاق لإزالته إلى جهاز تنظير الرحم وقد يضطر الطبيب لإعادة العملية أكثر من مرة وإعطاء بعض الأدوية مثل Steroides مع هرمون الاستروجين لمدة 3 أسابيع بعد العملية لكي لا تعود الالتصاق إلى حالتها السابقة، وعلى كلٍ فإن تكملة العلاج بعد إزالة الالتصاق يرجع أولاً وأخيراً للطبيب المعالج.

و) الأورام الليفية الحميدة:

هو ورم في عضلة الرحم قد يسبب نتوءً في فجوة الرحم حسب موقعه، وهو عادةً لا يسبب العقم إلا إذا أثر بشكل كبير على تجويف الرحم، أو إذا كانت هناك أورام ليفية كثيرة، وإذا لم يوجد هناك سبب آخر للعقم، ففي هذه الحالة ينصح بإجراء عملية جراحية لإزالة تلك الأورام ومحاولة إصلاح شكل الرحم. وهناك طرق متعددة لعلاجها، منها بواسطة جهاز تنظيم الرحم أو إجراء عملية فتح بطن واستئصالها، ويتوخى الطبيب المعالج الحذر عادة في هذه الحالات لكيلا تحدث الالتصاق بعد العملية.

ز) تيبس الرحم:

تيبس الرحم Fibrosis يحدث بعد إصابة السيدة بمرض Endometriose أي التهابات بطانة الرحم، وتشخيص الحالة يتم عن طريق تصوير الرحم الملون H.S.G، وقد يفيد جهاز تنظير الرحم Hysteroscope في علاج هذه الحالة.

ك) وجود زوائد لحمية في بطانة الرحم

وجود زوائد لحمية في بطانة الرحم EndometrialPolyp.

ووجودها قد يشابه وجود لولب في الرحم والذي يعيق الرحم، واستئصالها سهل. ويُمكن تشخيصها عن طريق أشعة الرحم الملونة H.S.G أو جهاز تنظير الرحم Hysteroscope.

-وتضخيم الرحم الكُلي Adenomyosis

وهي حالة يتضخم فيها الرحم وتشكو السيدة من ألم في الدورة الشهرية، وقد تشخص الحالة عن طريق أشعة الرحم الملونة والعلاج في هذه الحالة صعب وقد تفيد بعض العلاجات الهرمونية مثل (GN RH) Analogues ودواء يدعى Danazol. ونكررها هنا أن ذكر العلاجات هذه للإطلاع العام لفائدة هذا البحث ولا لاستعمالها

1-2-3- أسباب تتعلق بقناة فالوب:

أ- الالتهابات المزمنة:

حيث تسبب احتقان القناتين وإذا بلغ المقطع العرضي للاحتقان أكثر من 3سم فإنه يُغلق القناة ويمنع مرور البويضة، كذلك تسبب الالتهابات المزمنة الالتصاق، حيث تؤثر على حركة القناتين وتبطئها وهذا يعمل على عدم وصول البويضة في الوقت المناسب لعملية الإخصاب، وقد تؤثر الالتصاق على عمل المبيضين خصوصاً إذا كانت الالتصاق شديدا.

تسمى الالتهابات المزمنة علمياPelvicInflammatoryDisease (PID). إنّ هذه الالتهابات قد تسبب انسداداً في قناة فالوب أو حدوث التصاق مما يؤدي إلى اضطراب في التقاط البويضة من قبل قناة فالوب أو في حركة البويضة المخصبة داخل أنبوب الرحم.

إن التهابات منطقة الحوض المزمنة (PID) قد يكون سببه جرثومة مثل Streptococcus E.coli(أو بعض الأمراض التناسلية التي تنتقل عن طريق الجماع مثل مرض السيلان Gonococci وجرثومة Clamydia أو عن مرض السل Tuberculosis. ويجب الملاحظة أنّ مرض PID قد يؤثر على المبيض ويؤدي إلى الارتباك في وظيفته، وخصوصاً عندما يسبب التصاق ويكون الاتصاق شديدا وإذا أدت الالتهابات المزمنة إلى تلف في قناة فالوب فالمعالجة تكون جراحية عادة وتعتمد على درجة التلف ومنطقة التلف.

ب- تلف نهاية القناتين (الأهداب):

وهذا يُسبب فشلها من جلب البويضة إلى داخل القناة ويمكن أن يكون هذا ناتجاً عن التهابات أو عن مرض البطانة الرحمية (Endometriose).

ج- الالتصاق نتيجة العمل الجراحي لإحدى القناتين.

بعد الحمل خارج الرحم أو بعد جراحة لأعضاء الحوض المجاورة أو نتيجة التهابات في الأعضاء المجاورة مثل التهاب الزائدة الدودية.

د- قصر القناتين:

أقل من أربعة سم .

هـ- أورام تصيب قناتا فالوب أو المبيض:

وتؤثر على عمل قناتا فالوب

1-3- أسباب مشتركة للرجل و المرأة:

1-3-1-التلوث :

أشارت بعض الدراسات أن التعرض لمواد كيماوية أثناء العمل أو في بيئة تلوثت يؤثر سلبا على القدرات الإنجابية للرجل أو المرأة ويكون نفس التأثير عند التعرض لأشعة 'س' وهذا التعرض يكون أثناء العمل (معمل. مستشفى. الخ...) أو في مناطق تبخرت فيها غازات (منطقة رقان بعد تفجير القنبلة الذرية) معمل تشيرنوبيل الذي أدى إلى كارثة بيئية يعيش السكان مخلفاتها إلى اليوم.

يؤثر سلبا على الخصوبة نمط المعيشة العصرية مثل العمل في المكاتب الغلقة و طبيعة التغذية الناتجة عن الأسمدة و الهواء الذي نستنشقه المملوء بغازات السيارات المواد المستعملة يوميا (البلاستيك وغيره) و القلق الذي أصاب كل سكان المدينة [1].

1-3-2-التعقيم الإرادي

لأسباب شخصية. وكثيرا ما تكون صحية. تلجأ المرأة إلى التعقيم الطبي باستئصال الرحم أو بعقد الأنابيب فالوب أو بوضع آلات تمنع المني من الولوج لداخل الرحم وحتى استعمال الحبوب المانعة للحمل. كما يذكر استعمال طرق تقليدية لم يبرهن على نجاعتها ونذكر منها:

لتعقيم المرأة بعد ولادة واحدة يؤخذ 7 ودع وتملأ كل واحدة بدم نفاس وتخزن في صندوق وهذا بدون أن ترى المرأة الودع.

---

[1] قد استأنسنا بموقع 'ملف : أسباب العقم عند المرأة' على هذا العنوان: www.startimes.com/f.aspx ?t11393665

شكل الودع يضفي عليها رمز الخصوبة وعندنا كما هو معروف يوجد ودع بكر وهي التي بها فتحات صغيرة وأخرى غير بكر عندما تكون الفتحة كبيرة وهنا يستعمل الودع غير البكر.

وإذا أرادت المرأة أن تنجب من جديد يُفتح الصندوق ويكفي ان تغسل الودعات من دم النفاس وتُرمى حتى (يُنظف الرحم) وتكون المرأة هكذا قابلة للتلقيح مرة أخرى. ويطلب عكس عملية التعقيم أن ينظر مليا في الودعات.

وإذا كان عدم النظر في التعقيم يوحى بعدم المبالاة في الإنجاب يرمز النظر إلى الودعات من طرف المرأة إلى الرغبة الكبيرة وتكون هذه النظرة جالبة للحياة والخصوبة.

ويوجد في المغرب حكاية مماثلة ولكن تنفى رمي الودعات وتحض على محافظتها كونها ترمز إلى الخصوبة بفتحتها ورميها ينتج عدم الإنجاب.

كما يكون اللجوء إلى التعقيم الإرادي لعدم الرغبة في الإنجاب. ولقد لوحظ بعض الحالات لرفض الحمل لا شعوريا تؤدّي إلى وضعيات فيزيولوجية غريبة. لقد أثبت علماء النفس وجود ظاهرة عدم الاعتراف بالحمل عند بعض النساء وهذا الرفض اللاشعوري يترك المرأة لا ترى انتفاخ بطنها وتارة لا يظهر تماما بسبب نفسي فيزيولوجي حيث الجانب النفسي يسيطر ويتحكم في الأعضاء الداخلية. والغريب في هذا الأمر هو أن عند الاعتراف بالحمل (ولو بعد شهور) يظهر الانتفاخ فجأة وتظهر كل علامات الحمل من حجم البطن والإحساس بحركات الجنين وانقطاع الحيضة. وفي الحالات القصوى يأتي الاعتراف أيام قليلة بل ساعات قبل الولادة

1-3-3- أسباب أخرى:

أ) الأمراض المنتقلة جنسيا:

نظرا لتفشي الإباحية الجنسية في المجتمعات الحديثة بدوافع متعددة، فقد شاعت في جل هذه المجتمعات أمراض تنتقل جنسيا ومن أهم عواقبها العقم.

ب) – السن

إذا كان مسلّما به أن السن يلعب دورا هاما عند المرأة في عملية الإنجاب بحيث أن خصوبتها تتوقف عند سن اليأس، فإن تقدّم السن[1] مع تواصل الحيض له تأثير كبير في كيفية الحمل وسلامة المولود إن وجد، وفي قلة الخصوبة، وتزايد فرص الإجهاض غير الإرادي وحمل خارج الرحم أو تشوه الجنين.

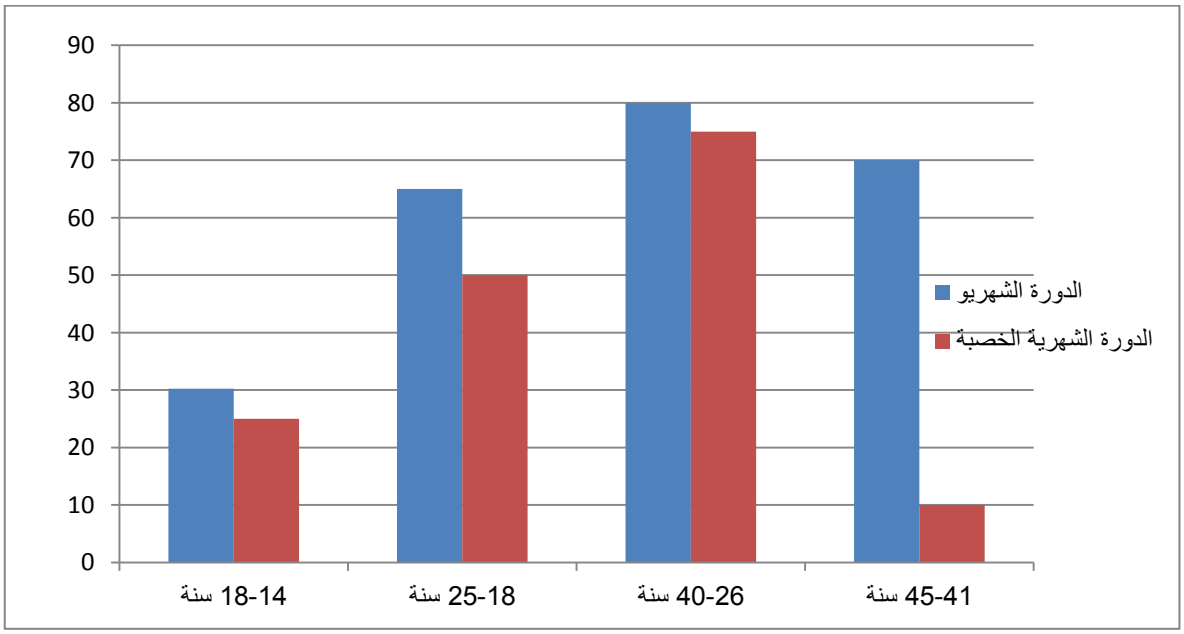

1 سن الأربعين (40) يطوّن 'حاجز الأربعين' الذي يرعب كل امرأة لم تنجب بعد.

هذا البيان أنجزه معهد من الكندا للمقارنه مع البيان اللاحق الذي أنجزه المعهد الوطني للإحصائيات الجزائري.

ولعلّ امرأة سيدنا إبراهيم أكبر مثال على ذلك عندما تعجّبت لما بُشِّرت بمولود صائحة :

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (الداريات:29 .30)

للرجل دور السن ضئيل في خصوبته، ولم تبين الأبحاث إن كان للرجل سن يتوقف فيه الإنجاب. وإن شاع أن الرجل يستحي من الإنجاب إن تقدم به السنّ فإن وسائل الإعلام تنشر من حين إلى آخر ما يبدو غريبا وهو أن الشيخ الفلاني وعمره متقدم جدا قد أنجب طفلا. وما تبلغنا به وسائل الإعلام يخص في أغلب الأحيان شيوخا مشهورين مثل الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات الذي أنجب وهو في العقد السابع من عمره والفكاهي الشهير شارلي شابلين (شارلو) الذي أصبح أبا في سن 73. كما أخبرتنا النصوص الشرعية من قرآن وأحاديث إنجابا لأنبياء بلغوا من الكبر عتية ''أن يكون لي غلام وقد بلغت من الكبر عتيا''. 'وهذا بعلي شيخ كبير''

ويكون سن الرجل المتقدم عائقا في المباشرة لزوجته وليس على العملية الفيزيولوجية إذ من الثابت أن الرجل ينجب وهو متقدم في العمر.

وعن هذه الأبوة أو الأمومة المتأخّرة تقول 'إليز دولاروشبروشار' : ''لا تعني أن الرجال ليس لهم

حدود في سن الخصوبة ولا تعني أن كل الرجال قادرون على مثل ما قام به من ذكرناهم. [1]

وتضيف أن السن يؤثّر في حالة الإنجاب على صحة المولود سواء خلقيا أو ذهنيا، والتأخر الذهني مما لوحظ عند الأطفال الذين أنجبهم أباء طاعنون في السن أو أمهات متقدمات في السن. والخط البياني يبرز نسبة الخصوبة حسب السن في الجزائر.[2]

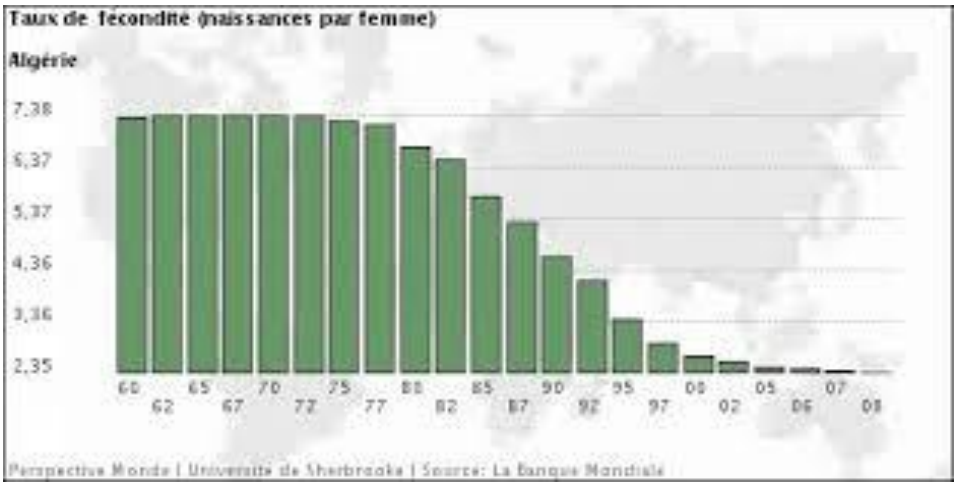

1 Élise De La Rochebrochard 'Des hommes médicalement assistés pour procréer : IAD, FIV, ICSI, bilan d'une révolution dans la prise en charge médicale de l'infertilité masculine ' : article in' Population Année 2003 Volume 58 Numéro 4 pp. 549-58

2 المعهد الزطني للإحصاء لعام INES 2003

1-3-3- الأسباب الغيبة :

هي التي لم يُتوصّل إلى معرفتها العضوية وفي هذه الحالة -الأكثر انتشارا - تنسب الأسباب المانعة للإنجاب إلى تدخل طرف خارجي ولكن تطور الطب قلل من شأنها. ومنها الجان والأدعية والسحر والعين

أ)- الجان والعالم الغيبي

يعتقد الكثير من الناس، ومن مختلف الأجناس، أ ن ثمة مخلوقات أخرى غير مرئية تعيش معنا في هذا العالم. ولا يعتبرون ذلك افتراضا خياليا. إنه عالم القوى الغيبية، عالم الجن، الذين يجعل السحرة منهم خداما، أو يكونون هم للجن خداما بحسب العهود المبرمة بينهم.

سنتحدث عن الجان كما هو مفهوم عند المتعاملين معها وكما هو في الذاكرة الشعبية. لا الجان كما يعرّفها العلماء والفقهاء وإن لم يكن اختلاف كبير في المفاهيم بينهم.

للرجال المفهوم الفقهي. المفهوم الذي اكتسبوه من دروس الأئمة في المساجد ومن المواعظ التي أصبحت تختم كل وليمة أو مأدبة غداء أو عشاء يجتمعون فيه.

وللنساء المفهوم الشعبي المختلط بالخرافات والحكايات المتداولة عندهن. وهذا المفهوم أبيريقي يُكتسب من السماع ومن تجارب الغير وملاحظاتهم أكثر منه علمي. وتتفاوت النساء في 'ثقافة الغيب' حسب السن وحسب البيئة. فالنساء اللائي يئسن من المحيض لهن معرفة أشمل من اللواتي يطمعن في الاستفادة من 'رجال' هذا العالم الخفي.

فالذاكرة الشعبية تضع للجان أماكن مفضلة وروائح معينة فهم بصفة عامة موجودون في كل ما تشمئز منه النفس البشرية من كل ما يمكن أن يخيفها وتنفر منه. (مجاري المياه خاصة القذرة منها. المغارات. المقابر. المراحيض والحمامات والعيون).

كما يعتقد أن هناك أوقاتا ي يفضلها الجان للخروج والتعامل مع الإنسان ونذكر من هذه الأوقات وقت المغرب والليل والفجر.

ويتكون عالم الجان من الجان المسلمين والمسحيين واليهود كما يوجد في الجان الخيّر الطيب النافع والجان الشرّير الفاسق الضار. كما يوجد جنون ذكور وجنيات ويمكنهم حسب الذاكرة الشعبية أن يتزوجوا مع الإنس ونسوق هذا القصة يرويها صاحبها كما وقعت بضواحي البيض.

‘كنت في خرجة للصيد، وبعد مدة، وأنا ممتط فرسي أردت أن أستريح. اختفت فرسي لا أدري أين وقادني البحث عن راحلتي إلى مكان بعيد وهذا ما أتعبني، وعند واد رأيت امرأة جميلة وملابسها فاخرة بيضاء عليها حلي نفيسة. بعد ما تأملتها اقتربت منها وسألت من هي.

‘‘لا تخف مني واقترب أود أن أكون زوجة لك. ’

وسألتها عن نسبها وأهليها وأجابتني أنها من الجن وسأستفيد كثيرا من الزواج بها. رفضت العرض وانتقمت مني بجعلي عقيما’

يظن التوارق أن الجان قادرون على الدخول في رحم المرأة ليأكل الجنين أو يحول دون وصول المني إلى الرحم، ويعتقدون أن يكون هذا بفعل إنس استعمل السحر. وأسوق ما باحت لنا به إحدى السيدات التي التقينا ها عند الولي 'سيدي قادة' ويظهر من كلامها أنها من المغتربين في فرنسا وهي التي تظهر في الصورة (ص 167)167 وأجازت لنا أن نستعملها في هذا البحث. ‘‘كنت سعيدة مع زوجي ولم يعكر صفو هذا الجو شيء حتى عدم إنجابي بعد ست سنوات من زمن الزواج. وبعد زيارة إلى الجزائر في عطلة تساءل أهل زوجي عن عدم حملي بعد كل هذا الزمن. بدأوا يأخذونني من ‘‘طالب’’ إلى آخر ويقدمون لي العقاقير حتى أصبحت وزوجي نتتبع كل تغيير يطرأ علي. وعدنا إلى فرنسا وتابعنا ‘‘العلاج’’ الذي أتينا به من الجزائر وكدت أجن وأصبح هاجس الحمل يطاردني وزوجي

يُظهر لي رغبته في الابن الذي كان لا يوليه أهمية قبل زيارة الأهل في الجزائر. رغم كوننا مسلمين نصحتني بعض الزميلات الفرنسيات بزيارة قديسات وعيون تزار عندهم للعلاج من العقر. ذهبت إلى ''لورد''(Lourdes[1])وما يقال عن مياهها القدسية لم ينفعني، وقالت لي صديقات مسلمات هذا حرام ولا تنفعك القديسة مريم وأنت مسلمة. وكانت إحدى الصديقات من مدينة معسكر قد دلتني على سيدي قادة. ووعدت نفسي أن أزوره في العطلة الربيعية إلاّ أنني زرت ''طالبا'' هناك في فرنسا وبعد فحصي أخبرني ''بالحقيقة''. كان جني مسيحي يدعي جوزيف قد سكن في جسدي فيعنق الرحم وكان يتصدّى لمني زوجي ويمنعه من المرور إلى الرحم. وقال لي 'الطالب' أن بإمكانه إخراجه مني. ولم يوافق زوجي على ما عرضه 'الطالب' علينا وقال كل ''الطُّلبة'' في فرنسا مشعوذون ويجب إنتظار الذهاب إلى الجزائر. ولم أنتظر كثيرا وها أنا جئت إلى سيدي قادة وأتمنى أن يخرج مني هذا الجني الذي يمنعني من الإنجاب''[2]. وهذه صورتها التي سمحت لنا باستعمالها.

فلنقارن بين ما جاء في اعتقاد التوارق وما قالته هذه السيدة و بين ما جاء في' موقع لقط المرجان لأبي أحمد'.

1 عين في فرنسا يعتقد المسيحيون في بركتها ومعجزاتها

2 كان كلام هذه السيدة باللغة الفرنسية وترجمناه بتحفظ حيث كان الكلام غير طبيعي كأن السيدة غير متوازنة عقليا. العبارات المستعملة تخلوا من الحياء وهي تتكلم مع أجانب. وقالت إنها تحمل شهادة عليا من جامعة إكس.

'وعند النساء يحدث العقم في حالة السحر[1] والمس عن طريق تسلط خادم السحر أو القرين على رحم المرأة فيسد قناة الرحم (قناة أو انبوب فالوب طولها 10 _ 12 سم) فيمنع مني الرجل (الحيوان المنوي) أن يصل إلى بويضة المرأة فلا يتم التلقيح ولا يحدث لإخصاب ، أو يدخل في منطقة المبيض في المرأة ويفسد البويضات ، وغالبا ما تشكو المرأة من ألم في جوانب الرحم ، وهذا الألم قد يزداد معها حتى خلال فترة الدورة الشهرية'[2]

ب) غضب ولي من أولياء الله :

يمكن إن يغضب ولي من الأولياء الصالحين على رجل أو امرأة ويعاقبه بدعوة شرّ مآلها العقم ويقول: 'لعنك الله وجعلك عاقرا' ويكون الدعاء بالشرّ على جماعة أو قبيلة بأكملها ويقول: ' لعنكم الله واعقر نساءكم ونخلكم وناقاتكم' وينتج عن مجرّد الرجوع إلى الطاعة الدعاء المخالف، الدعاء الذي يكون شافيا ومعالجا.[3]

ج)– العين

أدرك كثير من المجمعات. قبل الإسلام وبعده. ومن ديانات مختلفة. الأضرار الناجمة عن العين ووجهوها بطرق مختلفة نذكرها في حينها. والمجتمع الجزائري لم يستثنى من هذه المجتمعات ونسبة كبيرة

---

1 يلاحظ أن النساء هي التي تتعرض للمس. 'للإسكان' من طرف الجان. هل هي شعور نفسي متخيل يدفع بالمرأة إلى تعاطي السحر للدفاع عن ظلم أحسته من محيطها (زوج. ضرّة. عالة. صديقات ...). وقالت لنا الكثيرات أن سبب ما أصابهم هو فعل حاسد أو عدو.

2 'موقع لقط المرجان' لأبي أحمد: المكتبة الإسلامية 'الشاملة' : http://www.shamela.ws/

3 وقع هذا عندما خالف خدام أولاد سيد الشيخ أوامر ه

من الناس يؤمنون بمفعول العين. وما ساعد على رسوخ هذا المعتقد هو الأدلّة الدينية التي وردت في الكتاب والسّنة والمجتمع الجزائري قوي التديّن ولا يردّ معتقدا أكّدته النصوص الدينية.

كثير من الناس الذين سألناهم عن حقيقة العين اعترفوا بإيمانهم بالإصابة بالعين ويبرّرون معتقدهم هذا بمشاهدة أضرارها أو سماعهم بمن أصيب بها، وفي بعض الأحيان صادفنا من قال إنه كان ضحية مفعول العين الشرّيرة.

إلاّ أننا وجدنا بعض الناس- وهم قلّة- ينكرون مفعول العين.

ولعله من المفيد أن نوجز بعد الأدلّة المعتمدة في رسوخ معتقد العين.

من الكتاب: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) ﴾(سورة يوسف) والتي فسرت بخشية سيدنا يعقوب العين على بنيه[1] كما في سورة القلم: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ(51) ﴾ ،

ما هي حقيقة العين؟

اشتهر بعض الناس بامتلاكهم قدرات تجعل من وقع عليه بصرهم عرضة لحالات مقلقة أو تعاسة

1 فسّره الطبرى في بيان عن تأويل آي القرآن والبغوي في معالم التنزيل وابن كثير في تفسير القرآن العظيم والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن

أو لأمراض ومنها العقم. ويسمّى من تعرّض إلى مثل هذا الحالات بالمصاب بالعين أو 'المعيون' كما يقال لمن يملك قدرة الإصابة 'معيان' و'عَيُون' أي شديد الإصابة بالعين. كما يطلق على هذه الظاهرة ب 'النفس' ونقول في الغرب الجزائري 'جاته النفس' أي أصيب بالعين.

يمكن لأي مخلوق (إنسان. حيوان. نبات) أن يصاب بالعين وحتى الأشياء الجامدة (منزل. سيارة ...)

ولنا في القصة التي أوردتها سعدية راضي لمعبّرة عن المعتقد بمفعول العين في الوسط ألمغاربي. وفي الفصل السابع المعنون 'الأمراض بين الآلهة. الجان والناس' تقول من استجوبتها:

' تزوجت في سن مبكر وأنجبت طفلة فائقة الجمال. كانت عيناها كبيرتين ولونهما قسطليا وشعرها أسود وطويلا (...) وكنت سعيدة جدا وفي نفس الوقت ساذجة أيضا لم أتوقف عن ذكر محاسن ابنتي للناس وأنا فخورة بجمالها وصحتها الجيدة. وضعتها ذات يوم في فراشها وذهبت لأستسقي من البئر وعند رجوعي وجدتها ميتة. أنا متأكّدة من أن العين أصابتها وقتلتها.

عند ولادة ابنتي الثانية التي كانت مثل أختها في الجمال. لم أُرها للناس ولم أتكلم عن جمالها. ولكن دخلت على جارتي العاقر ذات يوم ولم يكن لدي الوقت الكافي لأخفي ابنتي وعندما رأتها الجارة تعجبت وقالت – ما أجمل هذه البنت-ولم تقل حتى –تبارك الله-. مرضت ابنتي في مساء اليوم نفسه. ولم تمر ثلاث أيام حتى ماتت ابنتي. وهذا بسبب عين هذه العاقر التي لم يكن لها ذرية بعد زواجها الطويل.'

د)- السحر

سوف نتجاوز في بحثنا هذا البعد الأنطولوجي لظاهرة السحر (مشكلة وجوده أو عدم وجوده). كون الأمر محسوم بالنسبة للمجتمع الذي ندرسه وهو مجتمع مسلم حيث السحر واقع غير قابل

للنقاش مؤكد بالقرآن[1] والسنة[2] وكذلك مؤكدة حرمته.

وأكّد أبو حسن الأشعري بأن "نصدق بأن في الدنيا سحرة وسحراً. وأن السحر كائن موجود في الدنيا"[3].

ولولا أن السحر له حقيقة لما أمر الله بالاستعاذة منه في سورة الفلق.

إلا أن تعاطي السحر للإساءة والأذى (ويطلق عليه السحر الأسود) هو المحظور والسحر للعلاج أو لقصد نفعي وعلاجي (ويطلق عليه السحر الأبيض) جائز يقول من يستعمله إلاّ أن السحر بكل أنواعه غير مباح.

حظر المسيحيون تعاطي أنواع من السحر وأباحوا أنواعا أخرى بحيث أصدر الإمبراطور قسطنطين الأول عام 319م قانونا يحرّم بموجبه كل تعاطي للسحر الضار (السحر الأسود) ويستثني منه "السحر

---

1 ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة : 102)

2 عن أبي "هريرة رضي ال عنه عن النبي)ص(قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: "يا رسول ال، وما هن؟"، قال: "الشرك بال، والسحر، وقتل النفس التي حرم ال إل بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف .

3 الإبانة عن أصول الديانة : أبو حسن الأشعري : دار الأنصار: القاهرة ص20

الحلال' (السحر الأبيض) الذي يستعمل لعلاج العاقر ولتخصيب الأرض.[1]

أ) مفهوم السحر

إن تلازم الاعتقاد بالسحر والطب الشعبي –خاصة في مجال العقر–يعد من الثنائيات الملازمة والمستمرة في العقل الاجتماعي رغم ما وصلت إليه البشرية من تقدم وحداثة وتطور علمي، خاصة في مجال الطب الرسمي، وكذلك على الرغم من تحديث الطب الشعبي واعتباره طبا مكملا وبديلا للطب الحديث من طرف عدد كبير من الأطباء.

السحر، حسب مجمع اللغة العربية هو 'كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع'، أما في لسان العرب، فإن 'أصل السحر صرف الشيء عن حقيقته'. قال ابن قدامة:

'السحر عُقَدٌ وَرُقَى وكلامٌ يتكلمُ به الساحر أو يكتبه أو يعمل شيئاً، فيؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة فمنه ما يقتل وما يمرض وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين اثنين وهذا قول الشافعي'[2]

للسحر أقسام كثيرة ذكرها الفخر الرازي في تفسيره، ونقلها ابن كثير في تفسيره وعلَّق على بعضها، ومنها:

---

1 Codex théodos IX. 16. 3

2 ابن قدامة: المغني (150/8)

. التنجيم و هو السحر الذي يعتمد على علم الفلك والحساب بأن يعتقد الفلكي بأن الكواكب والنجوم مدبرة لشؤون الكون، فينظر في حركتها وأماكن وجودها ليستدل على الأحوال والحوادث للمخلوقات، كأن يتنبأ بالسعد والنحس للناس من خلال النظر في النجوم. وترصد أحوالها.

قال الشنقيطي: ومعلوم أن هذا النوع من السحر كفر بلا خلاف، لأنهم يتقربون إلى الكواكب كما يتقرب المسلمون إلى الله[1].

. السحر الذي يعتمد على مخلوقات غير منظورة كالشياطين، إذ يتقرب إليهم بالرقى والعزائم والدخن لتنقاد له الشياطين، بغية التأثير على القلوب والأبدان من بني الإنسان.

. السحر الذي يعتمد على قوة الإيحاء باستخدام التنويم المغناطيسي، إذ بكلام منسق يعتمد به على علم النفس والفراسة يؤثر الساحر على الإنسان البسيط، فيسلبه شعوره فيكون معه كالنائم فيفعل الساحر به ما شاء.

. السحر الذي يعتمد على المادة وخصائصها كأن يحول سائلاً من لون إلى آخر، وكأن يستخدم خصائص التمدد لمادة الزئبق التي إذا لامست الحرارة ازداد حجمها، وبالتالي تؤدي إلى حركات مختلفة.

. السحر الذي يعتمد على قوى النفس، من خلال تجسس الساحر على الناس واهتمامه بأخبارهم السرية، ليقوم بإخبارها لهم بثوب العارف لأحوالهم، المطلع على سرائرهم.

---

1 الشنقيطي: أضواء البيان، 443/4.

من خلال تقسيمات الرازي[1] نجد أنه أقحم في السحر مفاهيم غير التي تهمنا في هذا البحث واعتمد على المعنى اللغوي للسحر وهو ما ذكرناه أعلاه أي ما لطف وخفي سببه، أما مفهومنا للسحر في هذا البحث هو السحر الذي يعتمد فيه الساحر على الجن والشياطين ويستعمله للضرر والعلاج، وفي هذا المجال عرَّف علماء العقيدة السحر بأنه: اتفاق بين ساحر وشيطان على أن يقوم الساحر بفعل بعض المحرمات في مقابل مساعدة الشيطان له وطاعته فيما يطلب منه.

وسبل السحرة لاستعمال الشياطين متعددة ونلخص ما جاء في 'الشعر والشعوذة في ضوء الكتاب والسنة'

أولا – طريقة الأقسام والتعظيم: حيث يوقد الساحر في غرفة مظلمة ناراً يضع عليها بخوراً، ثم يتلو عزيمته الشركية التي تكتنف الأقسام على الجن بسيدهم وسؤالهم بعظيمهم، والاستغاثة بهم، فيحضر الجني بهيئة حيوان، أو بصوت، فيأمر الساحر الجني بما يريد.

ثانيا – طريقة الذبح: حيث يجلب الساحر حيواناً غالباً ما يكون أسوداً، فيذبحه دون ذكر اسم الله عليه، ويرميه في مكان مهجور، ثم يعود إلى غرفته، فيقول عزيمة شركية، ثم يأمر الجني بما يريد.

ثالثا . الطريقة السفلية: حيث يقوم الساحر بارتداء المصحف في قدميه على هيئة حذاء، ثم يدخل به الخلاء، ثم يبدأ في تلاوة الطلاسم الكفرية في الخلاء، ثم يدخل غرفته، فيأمر الجنيَ بما شاء فيسارعون إلى طاعته.

رابعا . طريقة النجاسة: حيث يقوم الساحر بكتابة سورة من القرآن بدم الحيض، أو البول الملون، ثم يقرأ عزيمته الشركية، فيحضر الجني فيأمره بما يريد.

---

1 الإمام فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ج2 : ص 243 دار الكتاب العلمية 2004

خامسا . طريقة التنكيس: حيث يقوم الساحر بكتابة سورة من القرآن بالحروف المفردة معكوسة، ثم يقرأ عزيمته الشركية، فيحضر الجني، فيأمره بالمطلوب.

سادسا . طريقة التنجيم أو الرصد: حيث يقوم الساحر بترصد طلوع نجم معين، ثم يقوم بمخاطبته بتلاوات سحرية، وبحركات بهلوانية تكتنف العبادة والتعظيم لغير الله، فتقوم الشياطين بتلبيته.[1]

يعتبر ''سحر الكتابة'' أي الذي يستعمل فيه الورق والقلم أو أواني يكتب عليها أكثر ضروب السحر أهمية لدى العامة. ويكتسب أهميته من حيث هو مستعمل من طرف الطلبة أي سحر عالم عارف بمعنى انه يقوم على علوم مضبوطة القواعد تدرس عكس ما هو عليه الأمر بالنسبة إلى السحر الشعبي الذي تتناقل وصفاته بين عامة الناس عن طريق المشافهة.

وإذا كانت فعالية السحر الشعبي نسبية اعتبارا لكونه يتداول بشكل مفتوح بين العامة فإن سحر الأحرف والأرقام يعد 'مؤكد الفعالية' بسبب توفره على شرطي الغموض والسرية الضروريين لتمام العملية السحرية ونجاحها. يكون الورق المكتوب المادة الأساسية في هذا النوع (إلاّ أنه يمكن استعمال سند آخر مثل البيضة. رقعة جلد. عظمة حيوان صحن) ويرسم على السند المختار جداول يقول عنها العارفون أن عدد خاناتها وشكلها يختلف حسب الأغراض المستهدفة من العملية ويتلق عليها عند أصحابها 'الوفق' وعند العامة تسمية 'الجدول'[2]

---

1 د.محمد عبد الغني : الشعر والشعوذة في ضوء الكتاب والسنة ص19 المكتبة الرقمية الألولكة.

2 مصطفى واعراب المعتقدات السحرية في المغرب (السحر بالكتابة بين الحروف والجداول والأرقام)

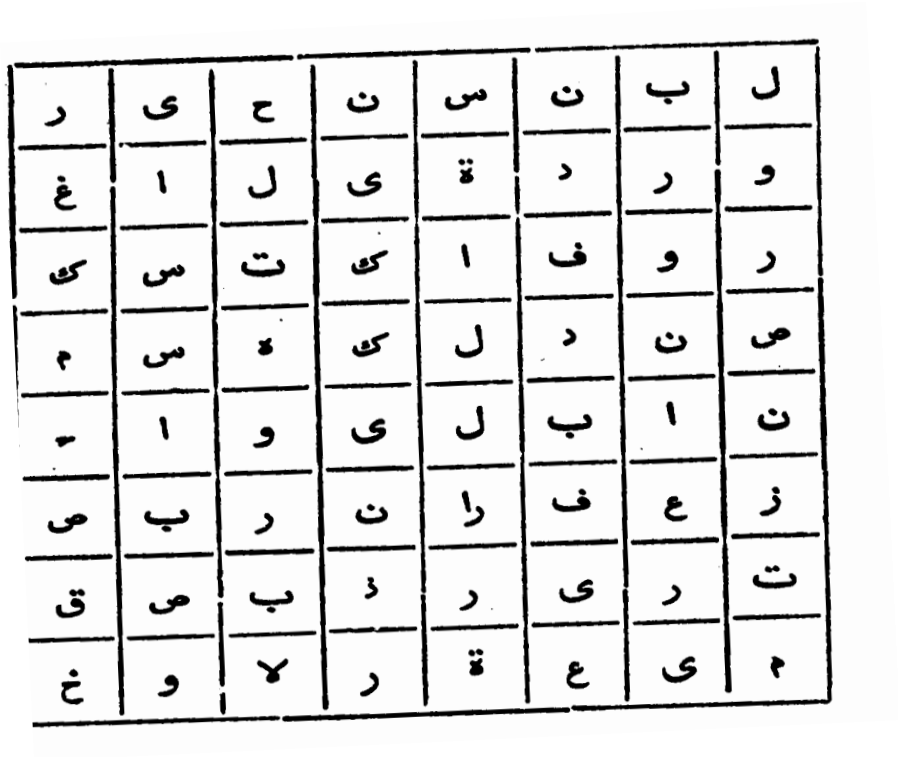

ر	ى	ح	ن	س	ن	ب	ل
غ	ا	ل	ى	ة	د	ر	و
ك	س	ت	ك	ا	ف	و	ر
م	س	ة	ك	ل	د	ن	ص
ـ	ا	و	ى	ل	ب	ا	ن
ص	ب	ر	ن	را	ف	ع	ز
ق	ص	ب	ذ	ر	ى	ر	ت
خ	و	لا	ر	ة	ع	ى	م

هذا الوفق أخرجناه من 'شمس المعارف الكبرى لصاحبه أحمد بن علي البوني'

حتى عوض عندهم عملية السحر ويقال 'داروله جدول ' بدلا من سحروه وعند المبالغة أو المزح يستخرج فعل 'جدول يجدول' ويقال 'راه مجدول'. ينقسم الوفق إلى أنواع يحددها عدد الخانات وتسمى مثلث أو مربع مخمس مسدس .... إن المخمس والمثمن يستعملان للأعمال الشريرة ومنها الربط والتعقيم.

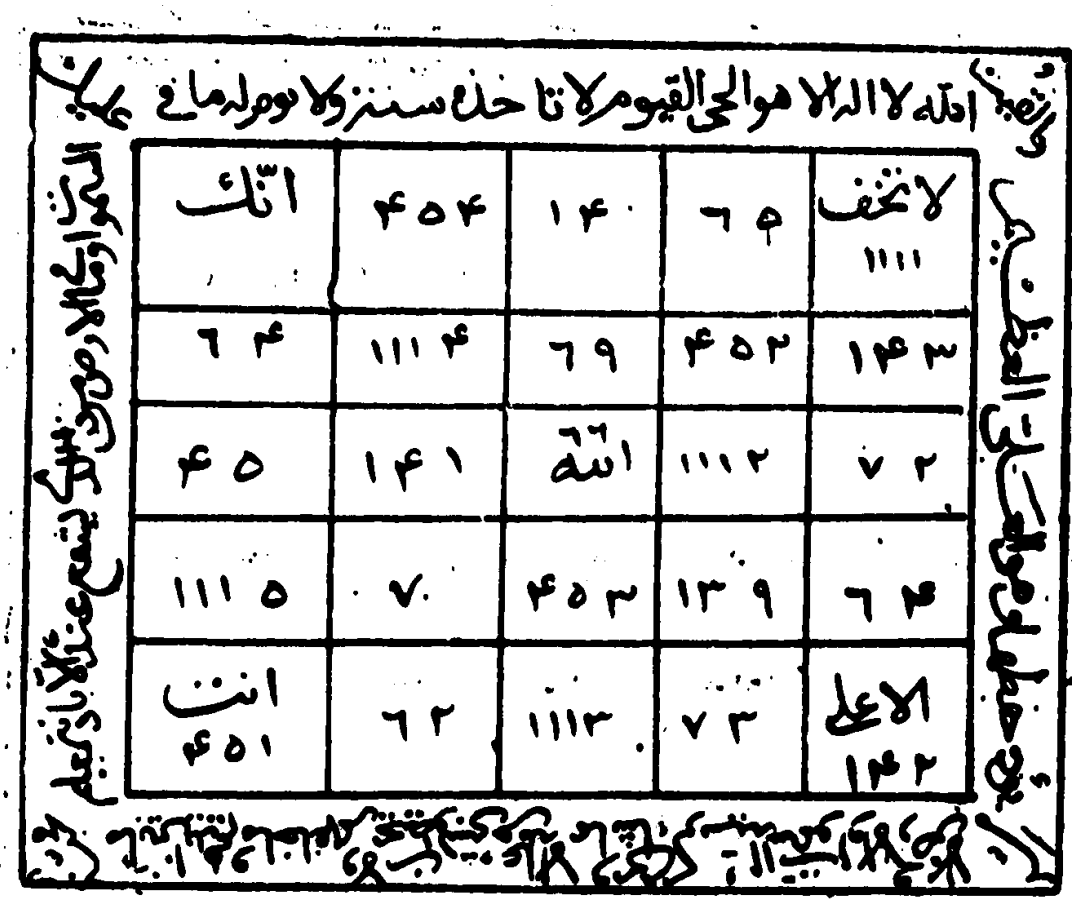

كما يطلق على هذه العمليات السحرية كلمة 'الأعمال' وتكون دائما في صيغة الجمع ويقال عن مسحور أنه 'أكل أعمالا' أو 'دروله أعمال' أو يعاتب الإنسان المغفل أو غير المنتبه 'هيا. فيق ولاّ راك كاللاعمال'

ولفعالية هذه الأوفاق شروط زمان ومكان يعرفها السحرة كما يصحبون الوفق بأشياء من بخور وأعشاب ويقدرون الكميات التي تؤكل أو تشرب حتى صارت وصفات محددة ومدققة وهناك وصفات للسحر الضار :

' لتمشية الجماد – لعقد الألسنة – لعقد لسان الزوج – لعقد لسان الكلب – لعقد المرأة كي لا يطأها غيرك – لهزم عدو – لقتل عدو – لقهر الأعداء وإهلاكهم – لتمزيق شمل العدو – لأهلاك ظالم – لإخضاع الجبابرة – لتسليط جني على ظالم – لإخضاع الحاكم الجبار وتسخيره – لإيقاف

المراكب والعساكر – لرجم دار العدو – لتخريب دار العدو وإخراجه منها – لإشعال النار في دار ظالم – لتعطيل سفن الأعداء – لتوقيف المركب وجعله لا يسافر أو لإعادته من طريقه – لإلحاق الأمراض المختلفة بالعدو – لإلحاق العقم برجل او بامرأة – لعقد الرجل – لإخراج المستأجر غير المرغوب فيه – لعسر الولادة – لترقيد الجنين في رحم امرأة لسنوات – لإنطاق من أردت وهو نائم – لإحضار أرواح الموتى – للتصرف بطوائف الجن وملوكها – لإبطال موانع الكنوز – لتعطيل البنت عن الزواج – لإسقاط الشعر – لإسقاط الأسنان – لسليط سلسل البول على عدو – لمنع عدو من التبول – لتسليط الأرق الدائم أو النوم على عدو... الخ. '[1]

يستعمل السحر الضار المسبب للعقم من طرف من يريد الإساءة إلى شخص ما مثلا بدافع غيرة امرأة كانت موعودة بالزواج ولم يف الرجل بوعده. ويكون هذا انتقاما. والهدف هو منع الرجل من إتيان زوجته 'بربطه' أو 'بربطها' وهذا ليفارقها ويرجع إلى من سحرته. وهذه الصورة للسحر المسبب للعقم هي الأكثر شيوعا بعد سحر جلب المحبة والزواج.

ولعل ما جاء في كتاب 'الغصن الذهبي' لفرايزر وخاصة الفقرة المتعلقة بالسحر يفسر لنا بعض التصرفات لممارسي السحر ونلخص ما قال فرايزر.

'إذا قمنا بتحليل المبادئ التي يقوم عليها السحر فسنجد أنها تنقسم إلى قسمين:

أ) أن الشيء ينتج شبيهه، أو أن النتيجة تماثل السبب، ويسمى هذا المبدأ بمبدأ (التشابه)، ومن ثمّ فإن الساحر قد يستطيع إحداث أي تأثير يرغب فيه عن طريق محاكاته.

---

1 بحث شامل عن سحر المغاربة http://www.startimes.com/?t=9442240

ب) أن الأشياء التي اتصلت يبعضها مرة، تظل تؤثر في بعضها عن بعض حتى بعد فصم الصلة المادية، ويسمى هذا المبدأ بمبدأ (الاتصال) أو (التأثر بالعدوى)، ولذلك فإن أي شيء يفعله الساحر بشي مادي فإنه قد يؤثر بنفس الدرجة على الشخص الذي اتصل به ذات مرة سواء أكان يشكل جزءاً من جسده أم لا يشكل.'[1]

ولعل أكثر الأمثلة شيوعاً لتطبيق مبدأ (المشابهة) هي المحاولات التي قام بها كثير من الناس عبر العصور لإيذاء أحد أعدائهم عن طريق إيذاء صورة له أو تدميرها معتقدين بحدوث نفس الأثر لصاحبها.

وإذا كان السحر عن طريق المحاكاة يستخدم في الأغراض الشريرة فإنه يستخدم أيضاً لمساعدة الآخرين على المجيء إلى الحياة، أو بعبارة أخرى في تيسير عملية الولادة وحصول المرأة العاقر على الحمل.'[2]

وهذان القسمان يتجليان في دراسة ممارسة السحر للعقم.

- **سحر الرجل**

لقد بينا بعض الخلل في وظيفة بعض الأعضاء التي تسبب العقر بمفهوم علمي. ومن بينها قلة عدد الحيوانات المنوية والتي تسمّى 'الماء الخفيف' عند العامة. وكثيرون هم الذين يظنون أن مفعول عملية خارجية تقتل بعض الحيوانات المنوية أوكلها بقصد تعقيم الإنسان. وهذه العملية تستلزم وجود قطعة

1 سير جامس فرازر : الغصن الذهبي

2 أحمد خالد توفيق(تعليق في منتدى تحليل الغصن الذهبي لجيمس فرايزر)

http://rewayatnet.net/forum/archive/index.php/t-645.html

قماش كان يستعملها المستهدف بعد علاقة جنسية وتارة يكتفي الساحر بقطعة من لباس من يراد سحره.

و يمكن أيضا منع الرجل من وظيفته الذكورية وهذا بما يسمى 'ربطه' أو 'تتقيفه'.الربط في مفهوم العامة له معنى التحكم في قدرة الرجل على العلاقة الجنسية مع النساء . وهذه العملية لا تحتاج عادة إلى حضور ساحر بل الإنسان الذي يريد ربط المستهدف يمكنه أن يتعلّم بعض الجمل للنطق بها بعد مناداة المستهدف وهو حامل لعلبة كبريت مفتوحة يغلقها بسعرة (مبدأ التشابه لفرازر) عند جواب المنادى عليه. يمكن كذلك استعمال مقص أو سكين. لم يسبق أن استعملا. يفتح ويغلق مثل ما ذكرنا بالنسبة لعلبة الكبريت. يمكن كذلك بعد جمع بعض الأشياء كانت بحوزة الذي يراض سحره. قول بعض العبارات مثل:

'*هذا الرَّجل مني وإليَّ*

حياته ملك لي

حياته ليست ملكا لأي امرأة سِوَاي'[1]

ثم تدفن في قبر مجهول.

فالعملية الأولى ترمز إلى عنصر على الأقل له علاقة بالإنجاب وهو المني المتواجد في قطعة القماش (فلنقارن مع مبدأ الاتصال لفرايزر) كما تتطلب أن يتناول المستهدف أكل شيء محظّر أو شرب سائل من صنع الساحر. والدفن يرمز إلى قتل الرغبة ومنع مفعولها أي الإنجاب.

1 محمد أسليم : السحر في المغرب (حرب النساء السحر والحب)http://www.dernounisalim.com/tag

أما في العملية الثانية فالربط له دلالة القيد والمنع (ربط=قيّد) والقول الموجه للمستهدف له قوة سحرية تحوّل إرادة الساحر إلى فعل.[1]

تبدو كل طريقة سهلة لمن أراد (وخاصة لمن أرادت) أن تشفي غليلها. وهي شائعة عند الكثير من الناس في الجزائر. وكل من عانى من ضعف جنسي يحمّل المسؤولية لفعل فاعل يريد الإنتقام منه، وخاصة إذا كان سبب الضعف نفسيا أولم يوجد له تفسير. وهنا يريد 'المصاب' تبرير علته وفي نفس الوقت ليطمئن نفسه.

ويوجد طريقة أخرى، أكثر فعالية حسب أصحابها وهي اللجوء إلى استخدام قوى غيبية مثل الجان والعفاريت. وهذه الطريقة تتطلب وجود 'مختص' له علاقة بعالم الجان وله عليهم سلطان. ومن نتائجها إن يسبقه الماء 'المني' قبل الإيلاج، وهو ما يعرف لدى الأطباء بالقذف المبكر.

1 ينصح العريس عند دخوله إلى بيته الزوجية (الحجبة) لأول مرة أن لا يجيب لأي مناد حتى يتجنب الربط

- **سحر المرأة**

فبالنسبة للمرأة 'اثقاف' عبارة على منع أي إنسان من وطئها. وهناك عقد آخر بالنسبة للبكر وهو ألا يقدر الرجل على فض بكارتها.

ومن أسباب اللجوء إلى الثقاف الخوف من البغي أو لإبقاء الفتاة بكرا. وفي هذه الحالة يكون القصد حفظ الشرف وعادة ما تكون أمها هي الراغبة في ''تثقيفها''.

أما الثقاف من أجل تعقيم المرأة فهو ناتج مثل الرجل من الغيرة أو الانتقام ونذكر بعض الوصفات المنتشرة في الجزائر.

فالأكثر شيوعا هي طريقة 'اسدا المنسج'. عندما يهيأ الخيوط الصوفية لصنع الزرابي وهي عبارة على غرس وَتدَين بينها مسافة 4 أو 5 أمتار ويمر الخيط بينها عدة مرات حتى يبلغ عرض الزربية ما تحدد مسبقا. وأثناء هذه العملية تقفز الفتاة على 'السدا'[1] (بتسكين السين). فإن كان القصد معروفا لدى النساء الحاضرات فإن المستهدفة كثيرا ما تكون صغيرة لا تعلم حتى هدف هذا القفز المطلوب منها. وينتج العقم عند نسيان هذا 'الربط' وبالتالي عدم اللجوء إلى العملية العكسية.[2]

---

1 السْدَا : الخيوط الصوفية المستعملة للنسيج

2 جاء في جريدة الشروق اليومية في عددها2782 ليوم 26/12/2007 تحت عنوان ' المنسج. إطار الغربال. الرمانة .. لتحصين الفتيات من الإغتصاب' طريقة 'الربط' أ,'اثقاف' أنظر الملحق رقم لمقارنته مع ما ذكرنا والذي سمعناه في الجنوب الجزائري وموضوع المقال اتخذ من الشمال.

أما العملية السحرية الموجهة إلى فعل سوء فلا تختلف كثيرا عن تلك المستعملة للرجل بعباراتها ووسائلها.

ويعطينا محمد أسليم وصفات سائدة في المغرب الأقصى ونذكر منها ما سمعنا، ويماثله في الجهة الغربية للجزائر والأولى ' لكي تجعل امرأة عاقراً مدى الحياة، اجعلها تبتلع حبوب شعير سقطت من فم بغلة بعد أن تبللها بدم حيضها'. والثانية أن ' تذبح طائرا وتحشو جسمه بقطعة ثوب مدنسة تؤخذ من الأشياء الخاصة بالمرأة المستهدفة'.

أما الثالثة فلا تختلف عن الأولى إلاّ بحذف دم الحيض والذي عوض ب 'سقي المرأة بول البغلة'[1]

ولا ندري إن أراد محمد أسليم أن يبرر الفعل بتوضيح أن المرأة المستهدفة في الوصفتين الآخرين هي امرأة ولود أريد عقمها للحفاظ على صحتها. وفي هذه الحالة يكون العقم علاجيا عوض أن يكون عدوانيا.

نري هنا أن الحيوان الذي استعمل هو حيوان انفرد بخصوصية العقم عنده وعند أنثاه وهذه الخصوصية ألهمت كثير من الأمثال:

'يعطيك هذا حتى تولد البغلة' مجازا لاستحالة العطاء

أو

'هذا إولّد البغلة' تعبيرا على كذبه الكبير والكثير

1 محمد أسليم : السحر ص 38 مركز جاك بيرك بدون تاريخ

- **سحر الرجل والمرأة**

كما أن اللجوء إلى فقيه 'طالب' ليكتب جدولا من الحالات المستعملة للمرأة والرجل على السواء ويكتب على الطلسم اسم المستهدف واسم أمه وعبارات كثيرا ما تكون غير مفهومة.

يفسر بعض الفقهاء (طُلبة) بعض حالات العقم بكون المرأة متزوجة بجني يمنع الزوج الإنسي من معاشرة زوجته أو يحول دون إنزال نطفته أو يشوه 'ماءه'.

وإذا كان الأمر صعبا أن يقبله عقل سليم فإن المعتقد سائد في الجهة الغربية للجزائر وفي المغرب الأقصى. وتكون هذه المعاشرة إما عقابا للزوج بسبب إساءته للجني. أو للزوجة لكونها قامت بفعل آذى الجني مثل سكب الماء في مجرى مساء أو ليلا أو رمي حجارة أو تخطي مجري المياه أو ضرب حيوان. خاصة القط. (وهو الجان متمثل في هذا الحيوان) وهذا كذلك في وقت المغرب أو ليلا.

نلاحظ أن كل ما له علاقة بالجان يكون في أوقات الظلام أو غروب الشمس بعد ذهاب النور الذي يكون عدوا للجان. كما أن الليل يلازم اللون الأسود. اللون المفضل عند السحرة.

من الوسائل المستعملة التمثيل المادي للمستهدف بواسطة خشيبات وقطع أقمشة لصنع دمية تمثل من يراد سحره ثم وخز المكان من الدمية الذي يمثل مكان الأعضاء التناسلية مصحوبا بعبارات ثم دفن هذه الدمية في قبر مجهول بمقبرة مهجورة.

هذه الطريقة وإن لم تُذكر لنا كثيرا فهي موجودة في الريف ويستنكرها الناس كونها لا يقدر علي إبطالها أي طالب ولا جان بحسب ما قيل لنا في قصور العين الصفراء والبيض. 'الطرق الأخرى يمكن إبطال مفعولها بعمل عكسيكما قالت لنا سيدة حاورناها في 'مغرار' بدائرة العين الصفراء.

نذكر أن تمثيل الضحية بواسطة الدمى موجود في حضارات أخرى مثل حضارات الهنود الحمر

بأمريكا الشمالية، وموجود عند قبيلة 'الأزتيك' وهذا منذ زمن بعيد. إذن نجد طقوسا وثنية حتى في مجتمع متدين مثل المجتمع الجزائري. ويمكن القول إنه قد وصل عبر الحضارات العديدة والمتتالية التي سادت في الجزائر (أغريق. فينقيون. روم. أتراك. عرب...) تاركة كل واحدة أثرها.

نلاحظ أن تعاطي السحر مجمع على تحريمه والكل مقتنع بحرمته إلاّ أنه موجود بكثرة عندما يراد إشباع غريزة أو انتقام، والغريب في الأمر أن لدي العامة يحرم التعامل دينيا مع الديانات الأخرى وخاصة اليهود ولكن في الغرب الجزائري يعتقد في قوة سحر اليهود وخاصة يهود المغرب الأقصى الذين اشتهروا في ميدان السحر ولم يتفاجأ الجزائري عند سماع عبارة 'و الله ما يسلكه طالب إهودي' كأنه أعلى درجة في قوة المفعول السحري ويعتبر تهديدا. كما نسمع 'فلان طالبه يهودي' للتعبير عن اليأس من الشفاء.[1]

وكل ساحر في هذا العصر يأتي بمعلومات علمية حديثة كأنه يريد أن يسبغ أفعاله بمفاهيم مألوفة لدى المتعلم حتى يطمئن ويريد من خلال إعطاء التفاسير أن ينافس العلم وما توصل إليه ومن بين ما يقوله للزوار أن سبب عقمه هو عملية سحرية استهدفت:

التقليل من عدد الحيوانات المنوية : وهذا الفعل المقترح لمعالجتك هو للتحكم في المناطق المخصصة لإنتاج الحيوانات المنوية : الخصية البربخ الحويصلات المنوية فالبروستاتا ، فيستطيع الساحر —حسب زعمه– التحكم في وظائف كافة الأمور المذكورة بحيث تؤدي إلى تقليل إفراز للحيوانات المنوية عن عددها الطبيعي بحيث تكون أقل من عشرين مليون حيوان في المليمتر المكعب وإن لم يكف هذا يقول الساحر إن له القدرة على قتل الحيوانات المنوية أو البويضة 'وهذا النوع يؤدي إلى منع إفراز

[1] يمكن ان اليهود استمدوا هذه القوة من كونهم استطاعوا سحر النبي ق كما جاء في بعض الآثار ويمكن أيضا أن عصا موسى ارتبطت باليهود

السائل اللعابي الذي تتغذى عليه الحيوانات المنوية داخل الحوصلة المنوية وبالتالي يؤدي إلى قتل تلك الحيوانات، أو إضعافها بحيث لا تستطيع الوصول إلى البويضة لتلقيحها ، أو تصل ضعيفة لا تستطيع اختراق الغلاف المحيط بالبويضة' ويمكن أن يفسر الساحر العقم بعمل سحري منع التلقيح بوضع حاجز بين البويضة والحيوانات المنوية ويمنعها من الوصول لتلقيحها وعند الإجهاض المبكر يقول الساحر إن المستهدف وقع تحت عمل سحري قتل النطفة بعد عملية الإخصاب

عندما نتحدث عن العلاج فإننا نضمر حديثا عن المرض، وعندما نتحدث عن المرض فالأمر الذي يتبادر إلى الذهن هو أسباب هذا المرض. والمرض عادة ما يكون لزمن محدد -إذا استثنينا الأمراض المزمنة المعروفة-وبعد علاج يشفى المريض أو يتضاعف مرضه.

المرض هو عطب في وظيفة عضو من أعضاء الجسم يكون عادة مصحوبا بألم وتجبر المريض على لزوم الفراش واستقبال الأقارب والمعارف من أجل الا طمئنان عليه .

وإذا صنّفنا العقم ضمن الأمراض – لكونه عطبا ويتطلب العلاج–فهو يختلف عن الأمراض الأخرى لكونه دائم وعير مصحوب بألم (إلاّ الألم النفسي) ولا يلزم الفراش ولا يزار العقيم. ولكن يدفع للبحث عن التخلّص منه بوسائل شتى منها المشروعة ومنها غير موثوق في شرعيتها ولا في نجاعتها لأن النتيجة في كل الحالات ليست دائما مضمونة.

العوامل التي تتدخل في اختيار نظام العلاج هي عوامل سياسية. اقتصادية. اجتماعية. تاريخية وبيئية.

ومهما كان النظام المختار ليكتشف العقر وأسبابه. وليشخصه فإنه يتطلب سلوكات خاصة ليحدد طبيعة العلاج المناسب حسب كل نظام شعبي أو رسمي.

كما يختلف الخطاب الموجه للإنسان العاقر باختلاف الأنظمة ويستعمل كل منها مجالا خاصا. فمن خطاب علمي للطبيب في المستشفى إلى خطاب تجريبي للعجوز القابلة التقليدية حتى نصل إلى الخطاب العقائدي ل 'الطالب' أو مقدم الزاوية.

1 - الطب الشعبي والطب الرسمي:

يتعايش في الجزائر عدة طرق وأنظمة علاجية لجميع الأمراض بصفة عامة ولعلاج العقر بصفة خاصة.

تنقسم هذه الأنظمة إلى مجالين حسب ثقافة هذا المجتمع وحسب المعتقدات السائدة، وكثيرا ما تتداخل هذه الأنظمة عند فشل أحدها على تلبية الطلب أي النجاح في العلاج.

يسمى المجال الأول في الجزائر ب ' طب لَعْرب' أو 'دوا لَعْرب' أو الطب الشعبي. وبالمقابل يطلق على المجال الثاني 'طب النصارى' أو 'دوا النصارى' ويقصد به الطب العلمي الحديث أو الرسمي.

يغطي ما أسميناه 'الطب العربي' حقيقتين مختلفتين:

أولها المعنى الشعبي المتداول عند الجميع، وثانيها الناتج عن الطب الرسمي العربي المدروس عند العلماء العرب وأطبائهم والذي استفادت منه البشرية كلها[1] في مرحلة ما من مراحل تطور التاريخ.

وإن كان الأول موروث من الثاني في جزئه الكبير. نذكر أن الحالة الثانية. أي الطب العربي العلمي عرف مجدا كبيرا في القرون الوسطي وفي العهد العباسي. وكان هو نفسه منبثقا من الطب اليوناني[2] الذي كان مؤسسا على بعض المبادئ مثل توازن الصفات المجتمعة (رطب/يابس وحار/بارد) التي نجدها حاليا في بعض الكتب للعلاج 'الروحاني' (السحر) كما استفاد العلماء العرب من الطب الهندي والحضارات القديمة لبابل والبلدان الشرقية. وقانون الطب لابن سينا شامل في هذا الميدان.

كما برع العرب في تطور الطب بإضافات لا يمكن الاستغناء عنها وخاصة في مجال الصيدلة حيث ألف العرب مؤلفات تتضمن الجديد في الأدوية المستعملة عند الأفارقة وهذا من القرن الأول، وبعد ذلك بكثير دوّن ابن البيطر وكوهين العطار وبعدهم داوود الأنطكي أسس الصيدلة.[3]

---

1 قانون الطب لإبن سينا كان الكتاب الأساسي والمرجعي لدراسة الطب في الغرب والشرق وهذا حتى نهاية القرن XVII

2 ترجمة مؤلفات ديوسكوريد وأبقراط وغليان وغيرهم إلى اللغة العربية كانت بمثابة تقدم علمي للبشرية كلها.

3 د.شماتقنواتي :تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعهد الوسيط : أوراق شرقية للنشر والتوزيع – بيروت

بعد هذا المجد للطب العربي والذي دام إلى العهد العثماني بدأ الركود وسمح للطب الغربي أن ينافسه وحتى يتقدمه باستعمال التجريب والبحث. لم يبق الطب العربي محمولا لدي العلماء ولكن احتضنته الذاكرة الشعبية ومارسه العرب بصفة امبريقية أكثر منها تجريبية علمية وهذا حتى يومنا.

أصبحت أهمية استعمال الطب العربي مستمدة من الاستعمال الشعبي الواسع للأسباب المذكورة في المبحث الذى أفردناه في فصل الأول بعنوان 'مركبات الشخصية الجزائرية' ولم يعط له الصفة القانونية رغم بروز بعض الممارسات من الطب النبوي مثل الحجامة التي أولاها بعض الأطباء نوعا من الاهتمام بإخضاعها إلى التجريب في المخابر الرسمية أو بعض المبادرات التي تريد أن تؤسس الطب على الأعشاب والذي فرضه الاستعمال المتزايد علي الأطباء الرسميين المحاربين 'للطب العربي'.

إلاّ أن حصره في مجال الأنثروبولوجيا يجعل منه ممارسات وأفكارا أكثر منه علما تجريبيا ومفهوما. إن أنثروبولوجيا الطب في العلوم العربية يحمل مدلولا سلبيا للطب العربي العريق.

يشمل 'طب لعرب' -الذي نميّزه عن الطب العربي الرسمي-الأعشاب والرقية والطقوس والممارسات وهذا المجال كثيرا ما تكون مرجعيته الدين حتى ولو لم يستمد إلى الدين وهو كذلك له العارفون به، والمختصون فيه (الطالب. الفقيه. الشواف. السحار...) يشتمل 'طب انصارا' على المستشفيات والعيادات والأطباء الاختصاصيين والتكنولوجيات الحديثة ويلجأ المرء إلى أحد النظامين حسب مسببات العقر التي دارسناها في الفصل الثاني سواء كانت معتقدا فيها أو مؤكدّة. يلجأ إلى 'طب انصارا' عندما يُتأكد علميا من سبب عقمه ويلجأ إلى 'طب لعرب' عندما لا يتوصل إلى معرفة السبب أو عند فشل الأوّل أو عندما يعتقد أن السبب روحاني (سحر. عين. جان...). كما يمكن اللجوء إلى النظامين معا.

1-1-النظام الشعبي (أو القطاع الشعبي):

سنعتمد على تعريف منظمة الصحة العالمية التي تستعمل مفهوم الطب التقليدي وتحدده كما يلي: "أنه مجموع المعارف والممارسات، القابلة أو غير القابلة للتفسير، والتي تهدف تشخيص أو توقع أو القضاء على خلل جسدي. عقلي أو اجتماعي بالاعتماد فقط على التجربة المعاشة والملاحظة المتوارثة أو كتابة من جيل إلى آخر"

وواضح أن هذا التعريف الأكاديمي يركز على ماهية الطب التقليدي (مجموعة المعارف والممارسات ...)، وعلى طرقه في تحقيق أهدافه (التجربة المعيشة والملاحظات المتوارثة)، فهذا التركيز على ما هو ممارس والذي انتقل شفويا من جيل لآخر كموروث من أب لأبن ينفي صفة العلم المقنن لفائدة التجربة المعيشة والمتراكمة لدي جماعة[1] تكون مختصين أو جماعية يكتسبها من أراد ويطبقها داخل حيز تمثله العائلة.

ومما يميز كذلك الطب التقليدي (أو الشعبي) عن الطب الرسمي هو تركيبة محيط العاقر الباحثة عن الانجاب.سواء كان محيطا بشريا أو ماديا. فلأطباء الرسميون ومساعدوهم أجانب كلهم على طالبة الإنجاب وعدم معرفتهم يؤثر على العلاقة بين 'المريضة' والأطباء. أما المعالج التقليدي فهو محاط بعائلة العاقر أي وجوه معروفة ومألوفة وهذا الوسط يلقي على المريضة نوعا من السكينة الضرورية لتقبّل العلاج ويضعها في حالة نفسية تتقبل بإرادتها ما يقدّم لها أو ما تنصح به.وهؤلاء المحيطون بها لم تتغير هيأتهم من لباس وكلام على عكس الطب الرسمي الذي يرتدي أصحابه البدلة الرسمية البيضاء. وكما أن المكان يتغير من منزل العاقر أو ما يشبهه إلى مؤسسة رسمية مجهزة بآلات غريبة ومخيفة أو منفرة. كما أن الطعام المقدم داخل هذه المؤسسة يختلف عن طعام عائلي مألوف.

---

1 مجموعة من الأشخاص ممن يعتقدون أنهم يملكون القدرة على معالجة الناس

هذه الفروق لها دور نفسي ولا شك أنه تؤثّر على الجانب الفيزيولوجي ويحدث ما يسمى بالمعجزة.

إن مجال الطب التقليدي لا ينتمي إلى الممارسة العلمية بقدر ما ينتمي إلى الممارسة الثقافية (في مدلولها الأنتروبولوجي).

فهذا القطاع ذو أهمية كبيرة في المجتمع الجزائري[1] ولكنه الأقل دراسة. فهو الذي شخّص فيه العقم لأول مرّة. يبدأ بالكلام بين اثنين (قرار الزوج والزوجة لإنجاب طفل) وكونهما الوحيدين اللذين قررا هذا. فإنهما يعرفان الزمن وبالتالي تأخر موعد العادة الشهرية. ويمكنهما التواطؤ على إخفاء العقم مبررين عدم الإنجاب بعدم الإرادة في الإنجاب حاليا. وإن طال الأمر تتوسع دارة العلم بالمرض وتشخيص العقم إلى العائلة الكبرى (أم الزوجة أولا ثم أم الزوج والأخوات ثم الإخوة إلخ...)، ثم ينتقل الخبر إلى خارج العائلة وبصبح موضوع الكلام وتتدخل إرادة العلاج.

ويكون هذا القطاع الوسط الأنسب للتكفل بالعقر حيث يريد كل واحد أن يلعب دورا بإعطاء النصيحة، ولإشارة إلى العلاج المتداول عند كل الناس وخاصة التداوي بالأعشاب.

وعلى هذا المستوى تؤخذ القرارات لاختيار نوع التطبيب وتظهر صراعات عائلية لاختيار نظام من النظم حسب مستوى المتدخلين.

---

1 جاء في جريدة الخبر اليومية أن باحثين من جامعة سكيكدة وقسنطينة أجريا سبر لأراء358 مريض عن نجاعة الطب التقليدي وكان الجواب 74.86 % لنفس النجاعة بين النظامين (جريدة الوطن ليوم الخميس 6افريل2006

1-2- النظام المهني (القطاع المهني /العلمي)

يضم هذا القطاع الأطباء ومؤسساتهم النظامية. إنه الأقوى من حيث العدد وانتشار المؤسسات ويهتم بالطب المتطور العلمي والعصري. إلا أنه أكثر كلفة ولا زال لم يحظ بالثقة الكاملة كون العقر ليس ككل الأمراض يوصف له دواء ويشفى صاحبه بعد تناول الدواء. فهو – كما سنرى-غير ضامن للحمل.[1]

1-3- النظام الغيبي (القطاع الغيبي)

يمثله مختصون غير مهنيين. ويشترك بعضهم مع ممثلي الطب الشعبي في بعض الممارسات، كما يشترك في هذه الممارسات ممثلون للقطاع المهني الرسمي. ومن الواضح أن هناك معتقدات دينية تجمع بين هؤلاء المذكورين. وأبرز من يمثل القطاع الغيبي نذكر السحرة و 'الطُّلبة' والأولياء الصالحين ...

في كل الحالات التي صادفناها. تلجأ المرأة العاقر أولا إلي ذويها لمحاولة تشخيص العقر، ثم تتسع دائرة الناس الذين يرجى تدخلهم بصفة أو بأخرى وتصل إلى 'الطالب' الذى يلجأ إليه بدافع ذلك الاستعداد الموجود مسبقا عند الزوج أو عند أحد الأقارب، وهذا الاستعداد يترجم ذلك الإيمان الراسخ في نفوس الشعب ل[أن الغيب قد يحمل علاجا للعقر المستعصي على الطب. ويكون للخطاب 'المقدّس' تأثير على العاقر وعائلته لا محالة. ويرتكز هذا الخطاب على إطار روحي ينطلق من مبدإ أن الداء من خارج المريض أي بفعل فاعل أو بعامل غيبي.

دور 'الطالب' هو تحديد طبيعة ومصدر العدوان الذي كان ضحيته العاقر. وهذا بتحقيق

---

[1] بالنسبة للأمراض الأخرى جاء في التحقيق الذي أجري بسكيكدة أن 63.40 % يلجأون إلى الطب الرسمي أولا مقابل19.83 % الذين يفضلون الطب البديل عير الروحاني (طالب. زيارة ولي. رقية الخ..)

يقوم به مع المعتدى عليه. وتكون الأسئلة دائما موجهة، وكثيرا ما تعني مكانا أو زمنا شُكّ في أن العقر قد اكتُشف فيه لأوّل مرّة أو التي كان يظن فيها الأهل بأن الإنجاب تأخر، ثمّ تكيّف الإجابات مع 'علمه' ويصدر حكمه أن العقر من 'فعل فاعل' يجب التصدي له. ويوافق العاقر على هذا التشخيص كما يستسلم 'لكيفية العلاج'. لشيوعه عالميا، يوجد عبر العالم مواقف أساسية قانونية لممارسة هذه المنظومات أو لرفضها ومحاربتها:

- الموقف الإقصائي الذي يعترف بالطب الرسمي أو العلمي. كل تعاطي للطرق العلاجية البديلة ممنوعة قانونا وتعرض صاحبها إلى عقوبات.

- الموقف المتسامح الذي يضع الطب الرسمي الوحيد المعترف به ولكن يجوز استعمال البديل ما لم يؤد إلى هلاك المريض

- الموقف المجيز حيث يتساوى الطب الرسمي والطب البديل أمام القانون إلا أن المعالج غير الرسمي يجب عليه أن يخضع إلى بعض المعايير. نجد هذا الموقف في البلدان الأسيوية خاصة.

- الموقف المندمج يعطي الأولوية للطب العلمي ولا يمارس الطب البديل إلا من ظهرت نجاعته وبرهن عليها وإلا فيقصى مباشرة بقرار رسمي، ويمكن تصنيف الجزائر في الموقف الثاني أي المتسامح حتى ولو حارب العلماء والأطباء الرسميون كل ما يخرج عن الطب الرسمي معتبرين كل ما هو غير رسمي من مجال الشعوذة.

ونبدأ بالنظام التقليدي.

2- طب له بالدين صلة:

لمعالجة العقر بما اصطلحنا عليه بالطب ''طب له بالدين صلة'' أو ''الطب الديني'' لقد نهجنا مقاربة بنيوية. في هذا المجال يعتبر العقر انحرافا اجتماعيا ومعالجته مشروع نحو الطبيعة البشرية. يكون حينها البرء من العقر برءا روحيا منطلقا من إجراءات اجتماعية في مجتمعنا العربي المسلم،

وهذا يقودنا إلى إتباع عدد من القوانين والقيم إما بممارسات أو طقوس فردية أو جماعية[1].

منذ القدم استرعى عدم الإنجاب اهتمام الدين. لجَأ الإنسان إلى القوى الغيبية لإنجاب طفل وبالتالي استدعى الدين للوقوف إلى جانب المرأة العقيم. نخص المرأة دون الرجل بسبب تأنيث العقم في مجتمعنا.

هذه الدعوات للمقدس هي التي تغذي الأنثروبولوجيا الطبية والأنثروبولوجيا الدينية اللتين تلتقيان في البحث عن المعجزات والدعاء من أجل الإنجاب، والطقوس العلاجية وإقحام المعتقدات والممارسات الدينية في العلاج.

يكون مصدر المعتقد إما الأفعال الدينية التي تنتشر بممارسات وتأكيدات من عناصر المجتمع ثم تتأسس كطقس ديني إما نتيجة حاجة عاطفية أو نفعية يلبيها المعتقد بتوفير الاطمئنان والسعادة والراحة البدنية والمعنوية والشفاء من كل داء.

ويعبر عنها بواسطة طلب لغوي غيبي وهي بالنسبة للمسلم دعاء الله أو التقرب إليه بوسائل مختلفة شرعية مؤسسة بنصوص أو غير شرعية موروثة بممارسة وانتقال من شخص لآخر. وتلك التي أسستها النصوص تكون أكثر تأثيرا بنصوص القرآن والسنة من النصوص مما يجعل الجزائري المسلم يؤمن إيمانا قويا.

فمما جاء في النصص نذكر قوله عز وجلّ:

---

1 عندما نقول جماعية نقصد العائلة الكبرى للزوج (الرجل والمرأة) الراغب في الإنجاب. ويضاف إليها كل الفاعلين من جماعة الزوايا أو ''الطالب'' الخ...

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا)(الاسراء/ 82)

وقال أيضا في كتابه الكريم:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)' (فصلت/ 44)

وعززه الرسول (ص) بقوله:

(إن الله عز وجل لم ينزل داء إلاّ أنزل له شفاء)[1]

ويسعى الدين لتنقية هذه المعتقدات والدين الشعبي لإثرائها بالخرافات والصدفة.

يُستنتج من خلال الممارسات والطقوس المعتقد فيها العلاقة التي يربطها الإنسان مع الغيب وتكون هذه الممارسات في أماكن مقدسة تجمعه بالمقدس ويعبِّر الإنسان بوجوده في هذه الأماكن، عن ولائه لهذه المعتقدات.

[1] أخرجه الحاكم من مستدركه. وصححه عن أبي السعيد السيوطي (1|72)

صورة منقوشة موجودة في جبال الآهاقار بجنوب الجزائر وهي مما قبل التاريخ

رسم لتوضيح الصورة أعلاه

من بين الطقوس غير الشرعية والمتجدرة في الأزمنة الغابرة نذكر تلك التي صادفناها في عين طارق بولاية غليزان حيث تجول بالمدينة فرقة مسبوقة بثور عليه أقمشة من كل الألوان وعند الطلب من رجل أو امرأة تتوقف الجماعة عند باب منزل الطالب وتخرج المرأة العاقر وتدخل في وسط الجماعة التي تكون قد التفت حول الثور وتحاول لمس بطن الثور وهي تدعو الله ليرزقها ذرية، وهذا تحت أهازيج المجموعة وحراسة زوجها أو الرجل المرافق. فلنشاهد الصورة الآتية ونقارنها بما تقوم به هذه المرأة.

ويتساءل الإنسان عن طول حياة هذا الطقس الذي أسلمته ظاهريا العبارات التي يرددها أفراد المجموعة من الصلاة على النبي وترديد أسماء بعض الأولياء و الصحابة مثل سيدنا بلال.

أصبح العقم بهذا المفهوم سببا لممارسة هذه الطقوس الدينية بواسطة المقدس ومرجعيته الخطاب الديني وخاصة القضاء والقدر، وقدرة الله على فعل المعجزات وعلى تفوقه على كل ما هو بشري في علاج العقر ولكن في الوقت نفسه قد يكون العقم أسلوبا من أساليب عقاب الله على ذنب اقترف ويتطلب مغفرة الله حتى يرفع العقاب.

يمثل إسلام الفقهاء بالنسبة للعامي في الجزائر الاعتقاد في الأساسيات التي تجعل منه مسلما والمشروعة بالنصوص وهو يلتزم بها بدون أي تخلّف وهي الصلاة، الصوم، الحج، الزكاة. فعل الخير. وكثيرا ما يقوم بها بدون أي تفكير في أساسها وغاياتها ولكن ما يتعلق بالمعتقدات التي ألصقها بالدين الصحيح. دين العلماء. تؤثر على ممارسته لكونها تنفعه عاجلا كما يظن أنها حقيقة عضوية لها حميمية بذاته وجسده.

ومن هذا العلاج الذي ينتمي إلى الدين:

- الطب النبوي
- بركة الأولياء

- الرقية
- السحر[1]

2-1-الطب النبوي:

لم يكن النبي صلى الله وسلّم قد وضع وصفات مسجلة ومدونة لعلاج مختلف الأمراض ولكن كان ينصح هذا باستعمال كذا ويطلب من هذا أن يقرأ السورة الفلانية وما وصفه من أدوية كان موجودا عند العرب (ما عدا القرآن). وكل ما عندنا من أقواله في هذا الشأن انتُقي من الأحاديث وكوّن موضوعا ما اصطُلِحَ عليه بالطب النبوي.

وشاع مصطلح 'الطب النبوي' وكثر مروجوه في السنوات الأخيرة في الجزائر، يُراد به سلسلة من الأحاديث النبوية التي موضوعها بعض وصايا النبي صلى الله عليه وسلّم في مسائل تتعلق بالطب من علاج ودواء ووقاية ورقية.

لم يكن هذا التعبير معروفا ولا مستعملا عند المسلمين الأوائل وهو بالتالي مستحدث. ونسوق كمثال لعدم تداول هذا المصطلح أول كتاب في الحديث لصاحبه الإمام مالك بن أنس 'الموطأ' الذي لم يستعمل هذا التعبير ولم يخصص له بابا رغم ورود أحاديث عن المعالجة من العين، والرقية من الحمى والطيَرَة، كما نجد أحاديث عن الطاعون.

وبعد مالك، البخاري، وأبو داود وابن ماجه كلهم صنفوا كتابا أسموه 'كتاب الطب' وذكروا فيه تلك الأحاديث المتصلة بالوقاية والعلاج وبعض الأدوية. أما الإمام مسلم فقد جمع كل الأحاديث المتعلقة بالعلاج تحت كتاب 'السلام'، ضمّنه بابا سماه 'الطب والمرض والرقى' وإلى جانبه أبواب

1 و إن السحر محرم بالدين فإنه ممارس من طرف ''الطلبة'' خاصة وهؤلاء محسوبون على الدين كون جلهم حملة القرآن

أخرى عن السم والسحر والرقية والطيرة وغيرها. جعل الترمذي عنوانا لكتابه 'الطب عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم'.

إذن ما اصطلح عليه بالطب النبوي ما هو إلاّ تصنيف مجموع الأحاديث التي تطرقت إلى مجال الصحة والتداوي وكانت بعض الوصفات معروفة لدى العرب قبل الإسلام.

وردت أحاديث نبوية في مؤلفات غزت الأسواق ومحتواها العلاج والتداوي ونحوهما أدرجها أصحابها في كتبهم وأعطوها عنوان 'الطب النبوي' كرابط جامع لوصفات عديدة.

يبقى السؤال هل هذه الأحاديث المتعلقة بالطب أحاديث مشرِّعة أم لا هل المسلم ملزم بإتباعها عند الحاجة ؟. قد وضحنا في باب 'الدين الشعبي' أن الأمر محسوم فيه عند العامة (وهي الأكثرية) ويكفي أن ما هو صادر عن النبي صلى الله عليه وسلّم ومنصوح به الأحاديث يضفي عليه طابع القداسة لكون مصدره هو النبي صلى الله عليه وسلّم.

وإن لم يكن عدد الأحاديث المتعلقة بالعقم كبيرا فإن بعض 'الطُّلبة' يقحمونها في الوصفات أو في الترويج لطريقتهم العلاجية للعقم كما يبينه هذا الإعلان على الانترنيت

' أصبح بالإمكان معالجة الأمراض المستعصية (السرطان ، فيروس الكبد الوبائي ، الإيدز ، الربو ، **العقم** ، الضغط ، القولون ، العين ، المس ، السحر ، أمراض القلب ، الجلطة ، تنشيط البنكرياس وتحسن السكر ، الأمراض النفسية والقلبية والجلدية الخ بالطب النبوي المأثور عن النبي وذلك من خلال الاستشارة الهاتفية لفضيلة الشيخ / .ص الخبير والباحث في الطب النبوي المملكة العربية السعودية – المدينة المنورة على الهاتف 0000 من أحب الاتصال من داخل المملكة العربية السعودية فيمكن عن الرقم التالي :00000

بالنسبة لأجور الاستشارة وثمن عناصر ومستحضرات الطب النبوي يمكن التحويل على الحساب التالي مصرف الراجحي س.ص على رقم الحساب التالي00000

كما يمكن التحويل عن طريق – WESTERN UNIONMADINAH KSA'وحتى المؤسسات التجارية تستعمل هذا التعبير لما له من تأثير في نفوس الجزائريين كما تبينه صورة لإعلان في جريدة الأخبار الجزائرية .

ونلاحظ أن التعبير 'طب نبوي' إنما شاع في القرن الرابع الهجري، وربما يكون لذلك دلالة؛ إذ إن هذا القرن شهد نهضة علم الطب على يد الإمام الرازي (313 هـ) صاحب كتاب 'الحاوي'، وأمثاله، وذلك بعد أن أخذ الخلفاء في القرنين الثاني والثالث يهتمون بتنشيط العلوم، وخاصة الطب، فاستدعوا إلى بلاطهم المهرة من أهل هذه الصناعة.

بل إن الملاحِظ الدقيق لبعض مصنفات الطب النبوي يجد أنها متأثرة في ترتيبها بكتبِ أمثال ابن

سينا (428هـ) في كتابه الشهير 'قانون الطب'، الذي عُدّ فتحا في الطب كعلم له كلياته وجزئياته التفصيلية الشاملة، حتى كان المصدر الرئيسي لمهنة الطب، والذي لا يمت إلى الطب النبوي بصلة، فهو حصيلة تراكم معرفي لطب من سبقه وطب اليونان.

فابن القيم مثلا تحدث عن المرض وأقسامه والعلاج والتداوي، ثم عن العلاج بالأدوية الطبيعية، ثم عن هديه صلى الله عليه وسلّم في علاج أمراض مخصوصة، بدون أن يرقي هذا إلى علم يسمى 'طب نبوي'

ثم ذكر شيئا من الأدوية والأغذية المفردة.

ونلخص هنا ما جاء في بحث كامل 'انتقادات موجهة للطب النبوي'[1]

كتُب ما يسمى 'بالطب النبوي'، لا ترقى إلى مستوى 'العلم' الشامل، بل هي شذرات من هنا وهناك، وهو في غالبه يدور حول توجيهات عامة، فهو لا يتضمن نظرية طبية محددة حتى يسمى علما، وإن كان 'حاجي خليفة' قد بوّب له في كتابه 'كشف الظنون' بقوله: 'علم طب النبي عليه الصلاة والسلام' فإن ذلك لا ينطبق على العلم بمعناه الاصطلاحي، بل على المعنى البسيط الذي اشتمل عليه التصنيف، فإنه ذكر فيه مصنفات أبي نعيم وغيره ممن تلاه. وهو ما أكده 'طاش كبري زاده' في مفتاح السعادة فقال: 'علم طب النبيﷺوهو علم باحث عن الأحاديث النبوية الواردة في طب المرضى'.

ولعل ما قاله ابن القيم مميزاً طبه ق، عن طب الأطباء :

'وليس طبه صلى الله عليه وسلّم، كطب الأطباء، فإن طبه ق، متيقن قطعي إلهي صادر عن

1انتقادات موجهة للطب النبوي، ملف كامل https://alnorani.wordpress.com/2011/11/11

الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل، وطب غيره أكثره حدس وظنون وتجارب "[1]

و في مجال الطب النبوي عثرنا على مخطوط للشيخ الهاشمي وهو شيعي المذهب يروي فيه أحاديث للنبيصلى الله عليه وسلّم قلما يدققها برواتها ويكتفي بعبارة "عن النبي ﷺ" بدون أي سند حديثي مما يقلل من الثقة فيها بالنسبة للعلماء و لكن هي كافية للعامة، ومقنعة لهم، و نذكر منها:

أ) عن النبي ﷺ:إذا كتبت سورة آل عمران بزعفران وحملتها المرأة العاقر حملت بإذن الله تعالى.

وعنه ﷺ:" من قرأ سورة آل عمران أعطاه الله بكل حرف أمانا من حر جهنم وان كتبت بزعفران وعلقت على امرأة لم تحمل حملت بإذن الله تعالى وان علقت على نخل أو شجر يرمي ثمره أو ورقه امسك بإذن الله تعالى".

الملاحظ أن تأثير السورة المباركة هو التثبيت بدلالة ما يحصل للنخل والشجر وهي إذن تنفع لمن تنزل عندها البويضة قبل الإخصاب وكذلك لمن يسقط عندها الحمل. والظاهر أن المبيض إذا كان لا ينتج أصلا فتحتاج إلى علاج آخر بسورة أخرى أو آية كما سيأتي

ب) للشيخ البهائي في مخطوط أن المرأة التي لا تحمل تكتب قوله تعالى : ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا﴾ بالأحرف المقطعة على جانب بطنها الأيمن .

قال مؤلف الكتاب المخطوط جربته تسعمائة امرأة .

وقد أعطي هذا لامرأة لم تحمل سنين فحملت بتوأم ذكراً وبنتاً وهما في أحسن حال.

واشترط صاحب الكتاب أن تأخذ خروفا سمينا اسود لا عيب فيه ولا يقل عمره عن ستة أشهر

[1] زاد المعاد 11/4. ص 34

ويذبح في مكان مسقف ويطعم لحمه لأربعين من المؤمنين قبل كتابة الآية فإنها ترزق بولد ذكر[1].

وتكتب الآية هكذا :

(و ل و ا ن ق ر آ ن ا س ي ر ت ب ه ا ل ج ب ا ل ا و ق ط ع ت ب ه ا ل ا ر ض ا و ك ل م ب ه ا ل م و ت ى ب ل لل ه ا ل ا م ر ج م ي ع ا)

ويكتب بأي قلم أمكن ويبقى عليها حتى تزول الكتابة من تلقاء ها

بحيث يحدث الوطء خلال ذلك.

وروي أن المرأة التي لا تحمل يكتب لها هذه الكلمات وتعلقها عليها وهي :

(هوهوهوهوهوهوهوهو الله الله الله الله الله الله الله الله حي حي حي حي حي حي حي حي حي قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم وصلى الله على محمد واله اجمعين) .

أقول: كل واحدة تكتب تسع مرات كما هو واضح.

د .وروي أيضا أن المرأة التي لا تحمل تكتب آية ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الأعراف- 190 وان يجامعها زوجها في آخر الشهر .

هـ :وروي أيضا : أن تكتب الآية الكريمة في سورة يس:

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ 20/يس.

وتشد على عضد المرأة الأيمن ويجامعها زوجها يوم الخميس عند الزوال.

وللوقاية من العقم يوصي صلى الله عليه وسلّم بمنع العروس من أكل التفاح الحامض والكزبرة والخل والألبان لمدة أسبوع. في وصاياه لعلي كرّم الله وجهه:

---

1 الشيخ البهاني في مخطوط ذكره الشيخ محسن العصفور في مدالة ملتقى :
http://www.ekhbarion.com/vb/showthread.php?t=7270

' يا علي امنع العروس في أسبوعها من الألبان والخل والكزبرة والتفاح الحامض من هذه الأربعة أشياء فقال علي (ع) يا رسول الله ولأي شيء امنعها من هذه الأشياء الأربعة ؟'

وقال صلى الله عليه وسلّم:لان الرحم تعقم وتبرد من هذه الأربعة أشياء عن الولد والحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد.

وقال صلى الله عليه وسلّم: البنات حسنات والبنون نعمة فالحسنات يثاب عليها والنعمة يُسأل عنها .

كما ينصح البعض بالاكتفاء بالدعاء. وخصصوا للإنجاب الأدعية الواردة في القرآن والتي جاءت على لسان الأنبياء ونذكر منها :

يقول عزّ وجلّ على لسان زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (مريم/4-6)

يبيّن النبي زكريا عليه السلام حاجته الماسة إلى من يرثه لبلوغه مرحلة الشيخوخة ويرث الرسالة، ثم طلب ولياً مرضياً.

وجاء كذلك في القرآن

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (الأنبياء/89)

وقال عزّ وجلّ:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران/38

وقال أيضا على لسان إبراهيم :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الصافات/100

الممارسات (العرقات. الدلك .....).

2-2-البركة:

قبل أن نتعرّض لتعريف 'البركة' أرى من الضروري أن أشير إلى امتلاك بعض الناس لسلطة أو قدرة شفائية لا يوجد لها تفسير ولا تبرير من الجانب العلمي. ولكن ما هي هذه السلطة الشفائية ؟

يمكن تعريفها بالقدرة على تغيير مجرى الأحداث الصحية ويحمل هذا الفعل أفكارا عن الطبيعة، عن العلاقات بين البشر وهذه الطبيعة، وعلاقات بين البشر أنفسهم.

إذن القدرة على الشفاء ليست مجرّد عملية أو فعل تقني. بيّن 'ميشال فوكو' أنه لا توجد قدرة بدون معرفة والعكس صحيح. تتأسس علاقات القدرة على نسب : يحتكرها أحدهما ويجهلها الآخر[1].

لا تتميز سلطة الشفاء. في المجتمعات التقليدية عن الأشكال الأخرى للسلطة مثلما لا يتميز العقر عن الأشكال الأخرى للمصائب. سلطة الشفاء أو القدرة عليه أمر هو شخصي، غريب ولا يتجزأ.

---

[1] Michel Foucault, ' Il faut défendre la société ', éd. Gallimard Le Seuil, coll. Hautes Etudes, 1997 Cours du 14 janvier 1976, p22

أولا هو شخصي لأنه مرتبط بشخص، وليس بوظيفة، وينتقل من شخص إلى آخر بطرق متفق عليها وليست اعتباطية كما سنبينه لاحقا.

ثانيا القدرة غريبة بالنسبة للمريض، ولأن العاقر لا يرقي إلى تفسير فعل صاحب السلطة الشفائية على عكي المعالج عند الطبيب الرسمي الذى يستطيع أن يفسر لمريضه طبيعة مرضه، وقد يوضح له نوع العلاج الذى يقدمه لهكما يكون باستطاعة المريض المتعلم قراءة الوصفة الطبية. لا يستطيع صاحي السلطة الشفائية أن يشرح لمريضه طبيعة علاجه، وقد يكون هو نفسه غير عارف بها.

وثالثا السلطة غير قابلة للتجزؤ كونها لا تنفصل عن القدرات الأخرى لصاحب السلطة. إنه يؤثر في مجالات وميادين أخرى للمجتمع حتى لو لم يحتج إلى تدخله. فسلطته تجعله يتبوأ مكانة مميزة في المجتمع.

أما في المؤسسات الرسمية فإن سلطة الشفاء تنتقل من كونها ''غريبة'' إلى كونها واضحة ومقننة، ومن ''شخصي'' إلى مهني ومن موحدة و ''غير مجزأة'' إلى مفصلة ومخصصة.

2-2-1-تعريف البركة

مفهوم البركة في الإسلام نعمة إلهية، فهي ظهور الخالق في حياة المخلوق بكيفية نفعية للمخلوق. تصدر من الله عز وجل وتخص بعض الأشياء أو بعض المخلوقات.

وهي كذلك قوة فاعلة غيبية. واستعمل المصطلح بصورته الصوتية العربية (la Baraka) في لغات غير العربية وأعطاها مفاهيم أخرى مثل الحظ . و الكلمة تستعمل في مجالات كثيرة لتعدد مدلولاتها و دخلت في بعض العبارات التي يتداولها المسلم الجزائري مثل :

'على بركة الله' تقال عندما يعزم الإنسان على شيء (عقد زواج عقد تجاري..) و' البركة في

القليل' عندما يستنقص المرء شيئا ولكن يكتفي به. ويقال أيضا ' هذا خير و بركة' يعني نكتفي.

وفي هذا البحث سوف نحدد المفهوم في بُعده العلاجي وخاصة علاج العقر.

هل البركة معتقد إسلامي ؟

ينفي العامة البركة لغير المسلمين، ولكن المعتقد متواجد عند غير المسلمين ويرادف المصطلح في اليهودية 'باروخت' وفي المسيحية 'قراس إلهية' (grâce divine)[1] وكثيرا ما نجد أن الشيء نفسه مسلّم ببركته في ديانات مختلفة كما سنري عند الحديث عن بركة الأولياء الصالحين. كما أن مفهوم البركة متواجد في فضاءات ثقافية مختلفة جغرافيا.

2-2-2- نشأة اعتقاد البركة

(كيف ينشأ الإعتقاد في أن الشيء ضارّ أو نافع ؟ العلاقة والصدفة)

تلعب الصدفة دورا لاينكر في نسبة البركة إلى شيء ما.

إذ يمكن أن يكون الإنسان مريضا ويأكل أو يشرب أو يقوم بزيارة أو يقوم بفعل ويشفى من مرضه إن لم تكن له نية التداوي، ويكون هذا مجرّد صدفة فيربط الشيء بالشفاء وكلما مرض بنفس الداء لجأ إلى نفس الشيء حتى يصبح هذا الشيء هو الشافي في اعتقاده. وينقل هذا الخبر إلى كل من تعرض إلى نفس الأعراض. وحينئذ تكون الصدفة فد أقامت علاقة غير مبرهن عليها بين السبب والنتيجة.

---

[1] 'Apt. cité de Sainte Anne est dédiée à la mère de la Vierge Marie. Sa cathédrale (chapelle royale. trésor. ' voile de Sainte Anne ') est l'une des plus anciennes de Provence. Les restes de la sainte. supposés rendre les femmes fécondes. ont autrefois fait l'objet d'un pèlerinage intense. L'un des plus célèbres est celui d'Anne d'Autriche. venue à Apt en 1660. remercier la sainte pour la naissance miraculeuse de son fils. le futur Louis XIV. ' in *luberon-news* .revue numérique.

الشيء المشترك في نتائجه باستعمال الحواس :

يتطير الناس من كل ما هو مرّ . حارّ أو لون غير زاه ويتفاءل بما هو حلو. بارد. لون أبيض أخضر. هذا كان عند البدائي الذي كان تفكيره مرتبط كثيرا بما يصحب الفكرة من ممارسة أو شيء ملموس ولكن بقيت الخصوصيات الشفائية للأشياء، وحاول الإنسان أن يضفي عليها ما يبررها وهكذا نرى الإنسان الحديث يحاول أن يكشف سر المواد العلاجية بإخضاعها إلى تحاليل علمية مبرزا مركبات المادة المستعملة. مثل ما دفعه التطور الفكري إلى البحث عن أسباب معقولة. فقد دفعه الدين إلى البحث عن المبررات الشرعية لاستعمال ما يستعمله للعلاج وأصبح يشترط للقيام بممارسة علاجية بعض الأوقات أو حالات دينية محضة مثل شراب الدواء الفلاني بعد صلاة المغرب أو أن تكون على طهارة أو أن تصوم يومين أو ثلاثة أيام.

كل ما هو مذكور في النصوص الدينية (قرآن . سنة) ويكون مرتبطا بشفاء (عسل. تين. زيتون. رمان)

2-2-3- أصحاب البركة

الإنسان (الأولياء الصالحون)الحيوان النبات(الأشجار) والجماد (الحمامات والعيون)

أ) **الإنسان** (ونلاحظ أن الرجال أكثر عددا من النساء)

عندما نتحدث عن بركة الإنسان يتبادر إلى الأذهان كرامة الأولياء الصالحين عند القائلين بوجود الكرامة للولي. ولكن يتوجّه الكثير من الناس. سواء في البادية أو في المدن إلى معالجين ''مداويين'' أشهرتهم الحكايات والأخبار المتداولة عن قدرتهم العلاجية العجيبة لأمراض استعصت على الأطباء الرسميين. وعند سؤالك لأسباب هذه القدرة فالجواب الوحيد هو أنهم يملكون ''البركة''. بداهة هذا الجواب تفسّر وحده كل طبيعة الفعل العلاجي التقليدي. إن البركة تشفي العاقر وتضفي على صاحب البركة ''معرفة'' يُؤمن بها كل من اتجه إلى الاستفادة منها.

تتبوأ البركة مكانة مرموقة في قلب النظام الطبي الشعبي.

اكتسابها: كل 'شريف' منحدر من ذرية الرسول مُحمّل ببركة انتسابه الشريف كما تنسب البركة لغير الشريف بالعمل الصالح، لإنسان اشتهر بتقواه وعبادته خاصة إذا كان في خلوة أو زاهدا. كما يمكن لإنسان (رجل أو امرأة) اكتساب بركة علاج العقر بواسطة رؤيته لولي صالح (وأحيانا رؤية رسول الله صلعم) يطلب منه أن يساعد الناس بعلاجهم بالوصفة التي تملى عليه في المنام. هذه الطريقة منتشرة جدا، وإن كنا نشك في صدق من يدعي البركة بهذه الطريقة.

ذكر الباحث عبد الواحد مكي بركة[1] هذه القصة التي وقعت لامرأة مغربية والتي سردتها له :

بعد رُؤية أولى تعلمت كيف تجعل من زوجها العنيف رجلا مطاعا.

' لم تكن لنا ذرية أنا وزوجي وكان الجنين يسقط دائما و هذا وقع لي 17 مرة خلال 13 سنة.

حاولت كل شيء لأشفي . سَبَّبْت[2]. زُرْت كل الْوَلْيَ وخْسَرْت كل ما نكسب ولا إله إلا الله ما جاب ربي والو. أُو واحد الليلة شفت رُؤية وحْدَخْرى . شفت امْرَا لابسة لخضر كيما في الرِية اللَّوْلَى وقالت لي ديري أَدْباغْ. فيضيه[3] و شربي كاس كل صباح. درتها وجاتني بنت وقالت لي لمرا راكِ دْجِيبي غي لبنات.راها بنتي مولات إحدى و عشرون سنة،بعد أربع سنين عودت شربت الدباغ وجات بنت أخرى. من ذك الوقت راني انداويالعاقرات بالدباغ'

نلاحظ أن هذه الرؤية أو ما يجلب 'البركة ' تأتي بعد ما مرّ صاحبها بفترة تعاسة أو حزن يحكيها المستفيد ليتداولها الجميع.

---

[1] Abdelwahed MEKKI BERRADA. *La portée thérapeutique et herméneutique de la BARAKA.* Thèse :Université Montréal 1997.

[2] كتب لي 'طالب' طلسم

[3] دعيها في الماء واتركيه يغلي

تتحول الكفاءة والمهارة إلى بركة بحيث يوصف الطبيب الفلاني بأن له 'يد مبروكة' إذا ما نجح في تشخيص المرض وإعطاء وصفة تحمل بعدها من كانت عاقرا.

من البركة كذلك ابتداء كل فعل بالبسملة كما أن الأكل باليد اليمنى يكسب البركة كذلك.

انتقالها:

للأولياء الصالحين بركة اكتسبوها بعدة طرق منها الوراثة وسميناها الطريقة العمودية ومنها غير الوراثية وسميناها الأفقية.

الإنتقال العمودي

الحالة الأولى: تنتقل البركة من الأب إلى الابن بعد وفاة الأول تلقائيا ونادرا ما تستفيد البنت من هذا الإرث.

الحالة الثانية : تنتقل كذلك بإرادة الوالد أثناء حياته وهذا:

إما بتلقين الولد بعض النصوص (قرآن وأدعية بترتيب معين) التي تكون سرا لا يجب أن يفشى لغير مستحقيه ويقال بالعامية 'دّ عليه السر' لأن عملية تلقين الممارسة أو الكلام تكون دائما سرة. ويمكن أن تكون البنت هي وارثة البركة في عدم وجود الوارث الذكر.

وإما بدعاء من الولي الصالح لأبنه أو غيره كما سنبينه في ذكر سيرة سيدي قادة بن مختار.

تصحب هذا الانتقال مجموعة من الطقوس (اغتسال. وضوء. صلاة. صوم) ويختار الزمن المناسب (بعد صلاة الجمعة. أو في رمضان) والمكان المناسب (مسجد، ضريح ..) ويعتبر هذا الزمن مقدس وهذا المكان مقدس. ويجب حضور شهود من أعيان القبيلة أو العائلة الكبيرة وكلهم ذكور. ويختص الشرفاء من ذرية النبي صل الله عليه وسلم بالحالة الأولى ولا تحتاج إلى الطقوس الموجودة في الحالة الثانية التي تعم كل ذي بركة من الأولياء الصالحين غير المنتمين إلى ذريته صل الله عليه وسلم.

الانتقال الأفقي

يختلف هذا الانتقال عن سابقه لكون البركة ستمس كل ما كان له اتصال مباشر أو غير مباشر

بصاحب البركة. ويشترك في هذا النوع الإنسان والأشياء. يكتسب البركة الإنسان الذي مسح رأسه الولي الصالح أو نفت في فمه أو ضربه. كما تكون البركة في صحن أكل فيه الولي الصالح ويستعمل فيما بعد لإطعام أو سقي عاقر.

وتكتسب عصا الولي الصالح بركته وتمتطيها العاقر عدة مرات مستظهرة بعض الأدعية وآيات قرآنية وسمعنا في قرية 'بريزينة' بولاية البيض أنه يمكن ضرب العاقر ضربا خفيفا لإخراج مسبب العقر الذي يكون دائما جنيا.

كما تنتقل البركة إلى لباس الولي الصالح أو ما استعمله من أواني أو حذاء أو سوط. وقال لنا رجال في مدينة 'الأبيض سيد الشيخ' أن لأثر رِجل بغلة سيد الشيخ شأنا عظيما وأحاطها سكان المدينة بحجر جعل منها 'حُوَيطة' تزار.

تكون بركة الولي الصالح حتى في سؤره ويتسارع الناس إلى شرب ما تبقى من شرابه أو أكل ما فضل من طعامه ولعل ما وقع لي شخصيا مع رفاق ولي صالح أوضح مثال لما نقوله. دعيت إلى مأدبة عشاء بفلوسن بولاية تلمسان حيث كان الضيف الأساسي هو ولي صالح قادم من جنوب الجزائر وكان لي به صلة شخصية وقديمة. طلب أن أشاركه المائدة مع مجموعة من شخصيات أتت من وهران خصيصا لزيارته، وكوّنا مجموعة من خمسة أفراد كانوا ذوي مناصب توحي أن ثقافتهم ليست بالمتواضعة (قضاة ومحامون). عند تناول الحساء اكتفى الشيخ بملعقة أو اثنتين ثم أبعد 'الغرفية' التي اختطفها الضيف الذي كان على يسار الشيخ خطفا واحتسي منها ثم ناولها جاره الذي فعل مثله وناولني إياها بدوره ومررتها إلى جاري الذي استغرب عدم احتسائي منها وقال لي ' ما تاكلش من بركة الشيخ ؟ ' وأرجع إلي 'الغرفية' وأخذت منها ملعقة 'للبركة' وناولها الأخير إلي أصحاب المائدة المجاورة الذين فعلوا بها ما فعله رفقائي.

فسادها: لا تحوّل البركة صاحبها إلى ساحر دائم القدرة على العلاج. ولكنها يمكن أن تغادره في بعض الحالات. تفسد البركة بالأعمال غير الشرعية: بالفسق و بالكذب أو بمحاولة استعمالها

في غير الأهداف الشرعية.

كما تفسدها الأشياء النجسة (دم الحيض) ولعل هذا ما يبرر قلة النساء صاحبات البركة وإن وجدت فهي ذات سن متقدم من اللواتي يئسن من المحيض.

2-3 – زيارة أضرحة الأولياء الصالحين:

لظاهرة زيارة الأضرحة أهمية بالغة عند فئات عديدة من المجتمع الجزائري قرويا كان أم حضريا. يُقبل عليها خاصة النساء لقضاء حاجاتهن ومن المراتب الأولى لهذه الحاجات طلب الإنجاب للعاقر.

إن الضريح كملجأ يقصده من هو متشبع بقيمه وأدواره ومن ليس ل هذا الاعتقاد، لا يمثل الضريح عنده سوى ذلك الفضاء المحدود و الحيز المكاني الذي يحتوي جثمان شخص اشتهر بورعه وعلمه وزهده وشعبيته وغيرها من الصفات التي 'كانت كافية لجعله مثالا يحتذي بسيره، ويعمل بمأثوراته، وهو الذي يطلق عليه ولي اله الصالح في أغلب الأحوال.' وبهذه الصفات يُعتقد في بركاته التي تتداولها العصور والأجيال. يعتقد أنهم يملكون القدرة على قهر الأرواح الشريرة (الجان) وجلب الخيروالذرية بفضل هذه البركة التي اكتسبوها بفعل 'تقربهم من الحضرة الإلهية' خلال زمن اسمه 'بكري' زمن ليس له بالضرورة سياق تاريخي محدد إلاّ للبعض مثل سيدي قادة الذي سندرسه لاحقا و أصبحت لهم فيه القدرة على التوسط بين الإله، والبشر لقضاء حاجات السائلين.

تجدر الإشارة إلى أن الرجال هم الذين احتكروا هذا النوع من البركة رغم أننا لا نجد في النصوص الشرعية ما يمنع المرأة من أن تكون ولية صالحة فلم نجد إلاّ أسماء قلية جدا بالمقارنة مع الأولياء الرجال. ونذكر منها لالّة خديجة التي سمي بها جبل من جبال جرجرة في القبائل. و لالّة فاطمة الشهيرة بمقاومتها الاحتلال. كما يوجد بتلمسان لالّة ستي ولالّة مغنية (التي سميت باسمها أكبر مدينة في ولاية تلمسان بعد مقر الولاية) وهذه الأخيرة لها تحويطة بالمشرية في ولاية النعامة و لالّة صفية ولية أولاد نهار.

كما نجد في الصحراء للة عائشة بنت الشيخ بالقنادسة في ولاية بشار ولالة مورة بتاسفوت في

ولاية أدرار ولالة بنت الخص في بريزينا بالبيض . ولكن الوليات اللائي تقصدن للإنجاب لم نعثر منهن إلاّ على اثنتين، الأولى لالة مغنية بالمشرية التي تتداول النساء بركاتها في مجال الإنجاب وتزار تحويطتها في أسفل جبل عنتر[1]

والثانية ذكرها ' إدمون دوتي' في كتابه 'المرابطون' حيث نقرأ : 'يوجد في أعلى قمم جبل بوزقزة. بالقرب من الجزائر العاصمة ضريح لالة تمسقيدة الذي تزوره النساء طالبات الإنجاب'[2]

العدد القليل جدا من النساء الواليات الصالحات يؤكدّ رجولة هذا المجال إلاّ أن الزوار والمترددين على الأضرحة هم من النساء في أغلبية تكاد تجعل من هذا السلوك سلوكا نسويا محضا.

كما نلاحظ أن البركة. بخلاف السحر. تجلب لصاحبها الاحترام والتقدير وتكاد تضعه في آفاق القدسية. أما السحر فيسبب لصاحبه النفور والخوف منه.

عرف الاعتقاد في الأولياء الصالحين والاعتقاد في بركاتهم مراحل متفاوتة حسب الأوضاع التي سادت في المجتمع الجزائري.

فقبل الاستعمار عام 1830 كانت القبب والأضرحة متواجدة بكثرة في الغرب الجزائري بحيث إذا أريد حصر ترجمات وسير لهؤلاء الأولياء ولو بصفة مجازة لأحتيج إلى مجلدات [3].

---

1 لقد التقينا بمن ينفي لهذا المكان بركاته ويقول أنللّة مغنية المشراوية لا علاقة لها بللّة مغنية في الحدود المغربية وهي مجرد امرأة عادية لجأت لهذا المكان لصعوبة مسلكه وهذا لتأمن شرّ من أراد بها سوء

2 *Notes sur L'Islam maghrébin – MARABOUTS*- : Edmond DOUTTE Ed Ernest LEROUX 1900 p 149

3 يقول سكان القلعة التاريخية الموجودة بولاية غليزان أن بضواحي قريتهم يوجد 366 وليا صالحا منهم من له ضريح مثل سيدي دبة ومنهم من له حويطة صغيرة مثل سيدي عيسى

كان تأثيرهم قويا بحيث أن المستعمر اهتم كثيرا بهم وبنفوذهم في المجتمع. ودرس غير المختصين كذلك سير هؤلاء الأولياء والمعتقدات التي كانت حولهم نذكر على سبيل المثال الدراسات التي قام بها عسكريون.

- 'الطريقات الدينية الإسلامية ' لضابطين في الجيش الفرنسي وهما 'أُكطافدوبون' و'قزافييكوبولاني'. كلا هما منتدب لشؤون 'الأهالي' ولجيش.

- 'مرابطون وإخوان – دراسة عن الإسلام في الجزائر' للويس رين. قائد عسكري.

- 'المغرب المجهول' في جزأين و كانت كتبه مرجعية للضباط الذين كتبوا عن الجزائر كما يوحي به الإهداء المعترف بفضله من طرف 'دوتي إدمون' صاحب المؤلف ' مذكرات على الإسلام المغاربي – المرابطون–'[1]

وفي أواسط القرن العشرين وفي إطار نهضة للعالم الإسلامي أراد مجموعة من العلماء المسلمين في الجزائر محاربة الاعتقادات والطقوس السائدة معتبرين أنها بدعة وجاء في قانون وأهداف جمعية العلماء برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس. نذكر هنا ما جاء في القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والذي لخصه الدكتور أحمد الخطيب في مؤلفه ' جمعية علماء المسلمين الجزائريين

---

1 - *Les confréries religieuses musulmanes* : Octave DEPONT & Xavier COPPOLANI Ed Adolphe JOURDAIN 1897

-*Marabouts et Khouans (Etudes sur l'Islam en Algérie)* : Louis RINN (Chef de bataillon) Ed Adolphe Jourdain 1884

-*Le Maroc inconnu* : Auguste MOULIERAS Ed Joseph ANDRE Vol I : 1895 Vol II : 1899

-*Notes sur L'Islam maghrébin – MARABOUTS-* : Edmond DOUTTE Ed Ernest LEROUX 1900

وأثرها الإصلاحي في الجزائر' الباب الثالث الموسوم 'غاية الجمعية' وفي فقرة تحت عنوان 'موقفها من الطرق' ما يلي:

'بما أن الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين. وأنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا. وأن هذه الطرق هي اظهر آثارا واشنع صورة في القطر الجزائري. لذلك يجب محاربتها 'ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر. وأننا حين نقضي عليها ان شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر وضلال. ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية اصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة. ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان. ومع ما فيها من فساد للعقول وقتل للمواهب'.

'كما جاء في الفقرة 3 تحت عنوان 'موقفها من البدع والمنكرات العامة :

'غاية الجمعية في هذا المجال هي محاربة البدع المرتبطة بالمساجد والجنائز والمقابر والحج والاستسقاء والنذور. والتي اصبحت تشوه هذه المظاهر المقدسة لدى المسلمين.'[1]

وأصبح صراع بين إخوان الزوايا وجمعية العلماء الذين كان يطلق عليهم البادسيين نسبة للشيخ عبد الحميد ابن باديس. واتخذ المصطلح مدلولا مجازيا لدى العامة وهو الزنديق. وتقلص قليلا تأثير الأولياء الصالحين خاصة في المدن حيث تواجدت فروع للجمعية. ثم بعد الاستقلال والتوجه اليساري للبلاد ودخول متعاونين في التربية من كل المشارب أصبح لا يتعامل كثيرا بالأولياء إلا للأكثر نفوذا منهم (سيدي بومدين بتلمسان سيدي الهواري بوهران سيدي عبد الرحمن بالعاصمة سيدي عبد القادر الجيلاني الذي يوجد ضريحه في عدة مدن وغيرهم من الأكثر شهرة) نذكر أن لسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة الجزائرية ضريحا ضخما يزوره حتى كبار الشخصيات في العالم

1 د. أحمد الخطيب : جمعية علماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1985 ص114 و115

ومن هؤلاء ملكة المملكة المتحدة طالبة النصر في الحرب العالمية. وقد صُنّف ضريح سيدي عبد الرحمن ضمن الآثار العالمية من طرف اليونسكو.

وهذا حتى تغيرت القيادة في الجزائر في بداية الثمانينات عندما أكثر قادة البلاد من التردد على الزوايا والمجتمع الجزائري انقاد وراء قادته مؤكدا القول المشهور بأن الناس على دين ملوكهم.

وبعد انتهاء هذه الفترة السياسية بتغيير قادة البلاد وما عرفت الجزائر من تغيير في المفاهيم أريد بها إصلاح الدين. حوربت المعتقدات هذه بكل الوسائل من الخطاب ألمسجدي إلى المحاربة العنيفة بتحطيم بعض القبب (صورة سيدي عبد القادر بنواحي سيدي موسى بولاية غليزان).

وعندما تحسنت الأوضاع الأمنية في الجزائر وأعيد الاهتمام بالزوايا من قبل المسؤولين توافدت النساء الجزائريات إلى الأضرحة والقبور وازداد الرجال اهتماما بالزوايا حتى أسست جمعيات، ونظم ملتقيات يأتيها الناس من كل جهة حتى المسؤولين الكبار للبلاد.

وسوف يخرج عن نطاق هذا البحث إن تكلمنا عن جدوى هذا المعتقدات أو إن رجحنا رأيا من المتناقضين. بل ندرس الظاهرة في جانبها الأنثروبولوجي فقط ولم نأت بما سبق إلا لأهميته التاريخية. إن كان الإنسان العادي –و لو أنحذر من شجرة النبي صلى الله عليه ة سلم فإن نبيا أجدر بالبركة،

ولذا نستحسن أن نذكر ما يجري عند ضريح نبي بالأردن واخترناه لوجود قرية في ولاية تلمسان تحمل اسمه وهذا ما يجري عند ضريحه وأخبرنا به الشيخ ممدوح الحربي في محاضرة 'عبرات تسكب على التوحيد'.

'كما تزور المرأة العاقر والتي لا تنجب مقام النبي سيدي يوشع حافية خاشعة وتحثو أمام الضريح وتقبله بدموع وتضرع، ومنهن من يرقدن الليالي الطويلة بين أسواره بالصوم والصلاة ثم يغادرنه وفي أنفسهن من الفرح والسرور ما الله به عليم.'

نبرز أولا من هم الأولياء والمرابطين ومكانتهم في الذاكرة الشعبية الجزائرية وكذلك الأشياء التي تحيط بهم وتمثلهم في بعض الأحيان. ثمّ نبرز اختصاص بعضهم في ما ينسب إليهم من كرامات وبركة . وطبعا سوف نخص بالذكر من هم يقصدون لمعالجة العقر لأن الذاكرة الشعبية والخرافات أعطت لهؤلاء الأولياء اختصاصات محددة ونجد هذا منتشرا في أنحاء البلاد العربية الإسلامية كما نقرأ:

'وترتفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون زوار أضرحة الأولياء إلى إضافة التخصصات للأضرحة بعد تقسيم درجاتها إلى كبرى وصغرى، فمثلما كان للإغريق –ومن بعدهم للرومان واليونان –إله لكل شيء. إله للحرب، والهة للحب، وإلهة للخصب، إله للخمر. وجدنا عند القبوريين أضرحة ومزارات تشتهر بتخصصها في حاجات مختلفة، يخصونها بالتوجه إليها لطلب هذه الحاجة منها.ولعل من هذا القبيل: الأضرحة والمزارات النسائية، كمقام الشيخة مريم... وقد اشتهرت ببركتها في الشفاء من العقم، وانتشر ذكر مزار (بنات عين) في معان بالأردن بين العواقر، يفدن إليه بالقرابين والمصابيح لنيل البرء والشفاء، وهو مختص بالنساء فقط ويدعونه بالمستشفى النسائي!'[1]

وطبعا هذا من معتقدات ما أسميناه الإسلام 'الشعبي' الذي يوازي الشرك والكفر حتى ولو صدر

1 مجلة البيان عدد 132 : عن المنتدى الإسلامي ص 58

عن فقيه مثل إمام خطيب. و من النماذج الصارخة التي تحوي أنواع الشرك كله ما أورده أبوبكر العراقي عن أحد القبوريين (وهو إمام وخطيب في أحد مساجد ديالى المهمة)، يقول: دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد فلم أرزق، وذهبت إلى شيخي مصطفى النقشبندي في أربيل فما أن استغثته وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين!).[1]

ولم نتفاجأ عندما عثرنا على كتابات على جدار أضرحة انتقينا منها واحدة لسلامة وأخلاقية ماهو مكتوب لأن ما قرأناه على الجدران لايدل على أن الزوار كلهم من الباحثين عن العلاج.

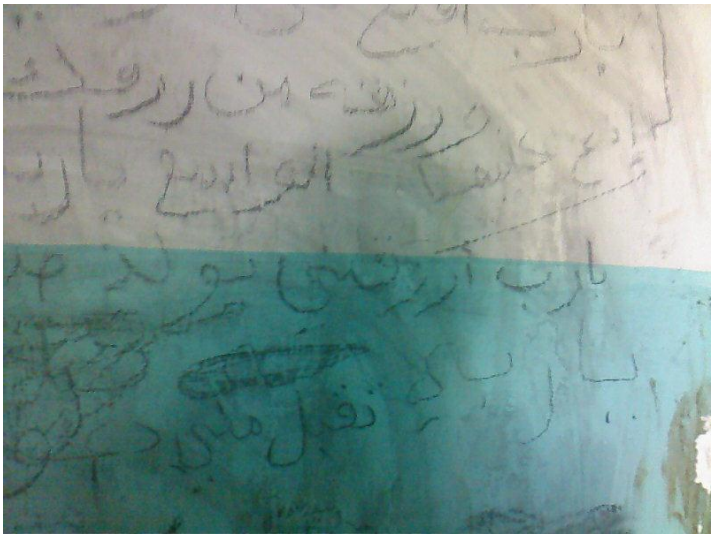

نظرا لكثرتهم سوف نكتفي بالأكثر شيوعا في الغرب الجزائري. المنطقة التي زرنا بها بعض القبب والأضرحة. ونكتفي بالأولياء المشهورين عند اللواتي تعانين من العقر ويقصدنهم لبركتهم المتخصصة.

أ– سيدي قادة

كل سكان مدينة سيدي قادة بولاية معسكر يعرفون الولي الصالح سيدي قادة معرفة جيدة.

1 مجلة البيان عدد 132 ديسمبر 1998مقال 'انحرافات القبوريين الداء الدواء' :للدكتور عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

و قد أكّد لنا أكثر من واحد أن سيدي قادة بن مختار من أولاد سيدي أحمد بن مختار الأربعة وهم: سيدي عبد الرحمن. سيدي عبد القادر. سيدي بن علي وسيدي محمد. وسيدي عبد القادر هو الذي يلقب بسيدي قادة.

والكثير من الناس يحفظون عن ظهر القلب شجرة سيدي قادة المنتهية إلى أصلها الشريف. السيد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. ولقد تعرّفنا على موظف سرد لنا الشجرة بسرعة لم نتمكن من أن نسجل بوضوح ما سرد علينا حتى كررها أكثر من مرّة لأنه لو قاطعنا المتكلم لأضطر إلى إعادة السلسلة من أولها وهذا ما يوحي بأن الحفظ غير مصحوب بالفهم. (تذكر السلسلة). ولد سيدي قادة ب 'بابا علي' سنة 945 هـ وبعد ما أخذ عن أبيه العلم اليسير رحل إلى تلمسان. مدينة كل العلوم في الغرب الجزائري. وهناك تفقه و' ألف في كل فن' حسب السيرة المكتوبة والمعلقة داخل ضريحه. ولما رجع كان مزودا بالعلم والجاه والسيادة وهو ما لم يكن عنده قبل ذهابه. لم يكن سدي قادة يقصد في حياته لغير العلم ولكن بعد وفاته بدأ يشد الرحال إلي ضريحه من أجل التبرك ولكراماته العديدة. لم نعرف بالضبط متى اشتهر سيدي قادة بكرامته التي أصبحت سبب الزيارات من كل جهات الوطن وحتى من خارج الوطن. ويمكن للزائر أن يشاهد السيارات العديدة والمرقمة من كل أنحاء البلاد، ولقد اضطررنا إلى أكثر من زيارة لمقابلة مقدم الزاوية. كما قال لنا بعض

الأساتذة من سيدي قادة أن بركته وكرامته اكتسبها من والده الذي دعي له ب 'عمارة الدار' لكل من يقصده وأكد لنا هؤلاء الأساتذة البركة محتجين بوقائع لم يخالطها أدنى شك لديهم. ونذكر هنا أشهر الأمثلة التي رددها جل من تكلمنا معهم.

قصة أولاد سالم: هو سيدي سالم الولي الصالح الذي طالما انتظر ذرية وكان زاهدا وكل دعاء موجه لله كي يرزقه الولد ولم يكن بعيدا على سيدي قادة، وعلم هذا الأخير بما يحن إليه وذهب إليه ذات ليلة مستضيفا إياه. لم يلبث إلا أياما قليلة حتى أحست زوجة سيدي سالم بعلامات الحمل. وأنجبت ولدا الذي انحدرت منه سلالة سيدي سالم التي أعطت اسمها لقرية لا يكاد يوجد فيها 'إلا السوالمية' ولم ينف أحد فضل سيدي قادة في إعمار دار سيدي سالم.

قصة رونو: بعد بناء ضريح سيدي قادة ازداد الزوار وكان مجاورا له مزرعة فرنسي يدعى 'رونو' وكان يترقب الزوار مستفسرا عن حقيقة سبب زياراتهم. ولم تكن له ذرية وعزم أن تزور زوجته الضريح وتقوم بكل ما كانت تقوم به الزائرات. ولم يخب ظنه وحملت زوجه أياما قليلة بعد طوافها حول شجرة سيدي قادة. أقام 'رونو' هذا حفلا دام أسبوعا أطعم فيه كل من زار سيدي قادة ذلك الأسبوع. ونسوق هذا الحديث المتقطع الذي أجريناه مع أستاذ بقرية سيدي قادة:

'يعني قلنا. سيدي قادة دّا البركة من عند بوه...الناس اللّي ما يضنوش للي ما عندهمش اطفال... يعني إجوا لسيدي قادة وديرو معروف. معروف للفقرا اللّي إكونو تمّ.

وفيه بعض العادات التي أتبعوها. كما هذا السنسل في الصورة الموالية.

يعني عمليات سحرية.

يتخيل حجات في راسه كما عندنا العادة يتخيل مربوط.

ومن بعد إحس بروحه خفيف.

جربها فرنسي اللهو نويرة اللي كان ساكن حدا سيدي قادة وشاف الناس إتجي من هاك وهاك وقت الإحتلال وإديرو هذا الطعم ويشوو للناس..

و قعدت هذه العادة وإجو من كل مكان.

و ماكانش واحد جا لسيدي قادة وما فراحش.

انعاود انوللي لذاك الفرنسي .. دار هذا الوعدة ونوا واوصل جاب جوج أطفال وزيد. فيه ناس جاو من عنابة وقصنطينة جاو لسيدي قادة. ما كنوش يضناو.

يعني القضية بالتجريب. بالتجريب ما كانش للي جا وما فرحش.

و هذا .. هذي حاجة اكتسبها سيدي قادة من بوه.

-هو ثاني كانت عنده نفس الحكمة ؟

(أردنا أن نعرف هل هذه البركة موروثة)

لّا . هي دعوة بوه وصلت.

هل هذه الدعوة متداولة ؟

لّا. ما هيش مداولة.

ما يعرفها حتى حد ولا هي مكتوبة ؟

هذا حاجة ادها من بوه . اكتسبها من بوه هذا ولكبار إقولو

عند زيارتنا لضريح سيدي قادة استخلصنا مجموعة من المعلومات عن الكلام والأدعية و حتى الصراخ الذي تصرحه طالبة الأنجاب والموجه إلى الولي الصالح وهنا نقصد سيدي قادة.

' يا سيدي قادة وفي بعض الأحيان يا سيدي دون ذكر الاسم'

تارة تتبع المناداة بالإفصاح عن الطلب 'يا سيدي قادة أعطيني الذرية الصالحة' أو التعبير العامي الذي سمعناه من الزائرات 'يا سيدي قادة أطلق حزامي' وسوف ترى أن الحزام يتكرر كثيرا عند زائرات الأضرحة أو أصحاب البركة. كما سمعنا 'يا سيدي قادة عمّر لي داري'.

ولاحظنا أن الطلبات والأدعية موجّهة إلى الله بالتوسّل بالولي الصالح سيدي قادة مثل 'يا ربي جبتلك سيدي قادة في الجّاه' وهذا وجذناه أيضا عند المتحدّثين إلينا عند الكلام عن سيدي قادة ناصحين من لم تعرف مخاطبة الولي. 'نفعنا الله ببركاته' و 'توسلت لك بسيدي قادة' وإن كان الله هو المخاطب في الدعاء، فالولي الصالح هو المقصود لشفاعته عند الله. ولكن كثيرا ما نستخلص أن الولي الصالح هو الذي يرجى منه الشفاء مثل في هذا التعبير 'جبتلك ربي والنبي يا سيدي قادة'. وهنا لم يكن الولي الصالح مجرد وسيط يوصل دعاء الداعي بل هو الفاعل في مخيال من أتى إليه لكونه 'ينتمي إلى الملء الأعلى '.

ب–سيدي بوزيد من الأولياء الصالحين المعروفين كثيرا من شرشال[1] إلى غرب غليزان وضريحه الذي نتحدث عنه موجود بالقرب من مدينة سيدي خطاب على قمّة ربوة وبجانبه منزل مقدم الضريح. تزوره النسوة الطالبات للإنجاب مصحوبات بهدايا وشمع وفي بعض الأحيان بديك للتضحية. ومما قاله لنا مقدم الزاوية أنه لم تمرّ إلاّ أيام قليلة على زيارة زوج أنجبت الزوجة في هذا الشهر وأتى ليشكرا سيدي بوزيد على تلبية طلبه وكان هذا الطلب عند الزيارة الأولى وكانت آنذاك أمّ المقدّم هي التي تتولى خدمة الضريح وجاءتها هذه الزوجة باكية شاكية لها متزوجة منذ 8 أشهر ولم يرزقها الله ذرية وزوجها يهددها بالطلاق. لم تتردد المقدّمة إلى فعل استنكره كل من كان حاضرا من النساء الزائرات. تقدمت المقدّمة إلى الضريح وهزّته هزّا حتى كاد أن يتزحزح من مكانه والنساء تحاول تهدئتها 'يا كيتك بسياس. درك اعوجك ولاّ ابكمك' وازداد غضبها وهددت سيدي بوزيد بالتخلي عنه إن لم يستجيب لطلب هذه 'الولية' المسكينة وسوف لن تخدمه ولن تزوره لمدة سنة كاملة.

وبعد السنة أتى الزوج يشكر سيدي بوزيد إلاّ أنّ المقدّمة كانت قد توفّيت وخلفها ابنها في خدمة الضريح وهو الذي قص علينا هذه القصة وأخرى ليبين لنا مدى قدرة سيدي بوزيد وزاد أن 'سيدي بوزيد ما هو إلاّ سبب فالشافي هو الله' وهذا عندما سألنا عن الحزام الموجود على الضريح والذي تتحزم به النساء الزائرات والذي قيل لنا عنه أنه السر في حكمة سيدي بوزيد.

وللتأكيد علي شيوع هذا المعتقد في الفضاء المغاربي نسوق قصة مواطن مغربي زار ضريح سيدي 'زويتينة':

وقد أكد لنا أحد المستجوبين وهو شاب يبلغ من العمر حوالي 30 سنة أثناء زيارته لضريح سيدي زويتينة هو وزوجته وأمه وحماته من أجل الحصول على الأبناء لأن زوجته حسب اعتقاده

1 مدينة ساحلية بالغرب الجزائري

كانت عاقرا، إذ أخبرنا بأنه رزق بمولود وذلك بعد زيارته للضريح في السنة الماضية وأن سبب زيارته هذه المرة وفي ذلك اليوم الذي استجوبناه فيه هو من أجل أن يقوم أحد أحفاد الولي بحلاقة رأس مولوده، وذلك وفاء منه واعترافا بالجميل للولي الدفين الذي قضى له حاجته المتمثلة في الولد الذي رزق به بفضل بركته.'

لقد وجدنا فكرة الحزام عند سيدي قادة إلا أن النساء عنده هن اللواتي تأتين بالأحزمة أو ما يعوضها.

الصورة عليها حزامان ألتقطت من الخارج	**أخذت النساء الأحزمة عند دخولنا**

ج–بتلمسان يوجد علي بعد 5 كلم باتجاه وهران الولي الصالح سيدي كنون. لم نعثر على وثائق تخص سيدي كنون إلا أننا وجدنا من قال لنا أن اسمه الحقيقي هو سيدي قانون لكونه كان قاضيا في المغرب الأقصى وكان يتنقل كثيرا بين الجزائر و المغرب الأقصى. ولعل القرية الحدودية بين هذين البلدين والتي تسمي بوكنون لها صلة بتسمية هذا الولي..

بقرب الضريح شجرة تين وعين مباركتين وتضع النسوة الراغبات في الإنجاب قطعا من القماش كما في الصورة.

وتتكرر الزيارات للتأكد من بقاء القطع أو من ذهابها وفي هذه الحالة تسعد صاحبة القماش المعلق وتتفاءل كثيرا وتزغرد صاحبتها كأن الحمل تأكدّ فعلا.

د– ضريح 'سيدي ميمون' بالمنطقة الشرقية من المغرب الذي يشتهر بين عامة الناس منهم سكان الغرب الجزائري. بكون المرأة العاقر التي تلجأ إليه تلد بعد وقت قصير وتعود إليها خصوبتها المفقودة. وضريح 'سيدي يحي بن يونس' الذي 'يزوج' العوانس.

2–4–النبات:

ما من دين أو معتقد بدائي إلاّ تكون الشجرة حاضرة فيه لأنها كانت دائما تكتسي طابع التقديس. فمن عبادتها عند الشعوب البدائية والوثنية إلى التبرك بها وطلب شفاعتها أو مساعدتها.

صدر عام 1890 للعالم الاجتماعي والأنثربولوجي البريطاني 'جامس جورج فرايزر' كتاب 'الغصن الذهبي' ومن بين مواضيعه تحقيق أنثربولوجي على الروابط بين السحر والدين في ثقافات مختلفة وفي كل القارات حتى كاد الكتاب أن يكون موسوعة وسوف نشير إلى فقرة من الكتاب

عنونها صاحبها ب 'عبادة الأشجار' .....

كما بيناه سابقا. ينشئ الإنسان علاقات بين الأشياء والأفعال وكثيرا ما يعتقد إذ أن الشيء مسبب للفعل الناتج عن وجود هذا الشيء وبالتالي اعتبر الانسان كثيرا من الأشياء رموزا لما يرضيه أو يسيء إليه ومن هذه الرموز الشجرة التي اكتسبت عند الجزائري مكانة مرموقة لعدة أسباب منها:

أن الشجر وخاصة بعض الأنواع المذكورة في القرآن اكتسبت بركتها من ذكرها بالخير من قبل الله (التين. الزيتون. النخل. الرمان. العنب) وبركتها مصرح بها :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة النور (35)

كانت الشجرة في أغلب الأحيان مأوى للأولياء الصالحين وهنا كذلك نجد أن بعض الأشجار هي التي فضلها الأولياء (نخلة سيدي لخضر بن خلوف بقرية تحمل اسمه بولاية مستغانم – الصورة)

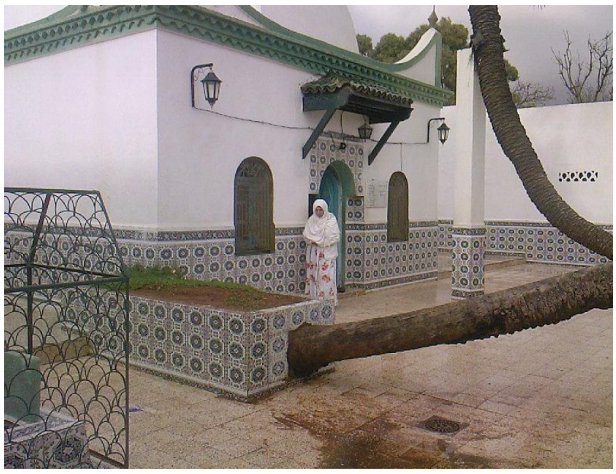

علاقة الأشجار بالأنبياء والرسل ومن اصطفاهم الله هي علاقة أكيدة، مبايعة النبي صلى الله

عليه وسلّم كانت تحت الشجرة كما جاء في سورة الفتح[1] ومخاض السيدة مريم لميلاد سيدنا عيسى عليه السلام كان تحت نخلة:

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (مريم:25). كما أن رمزيتها تكمن في كونها تمثل الحياة بنموها وبتجديد أوراقها وبدورية عطائها للثمرة كما أنه يوجد في الشجرة كل عناصر التكاثر.

والتسمية عند سكان الصحراء الجزائرية لعملية تلقيح النخيل هي 'التذكار' ويقال 'نذكّر' النخلة أو 'الكرمة' أي شجرة التين. وسنرى لاحقا كيفية علاج العقر عند المرأة بواسطة 'ذكّار ' النخيل.

اكتسبت الشجرة رمز الخصوبة عند عدة قبائل، ونذكر المسلمات الإيرانيات آللائي كن ترسمن وشما يمثل شجرة على أجسادهن ينطلق من أسفل البطن. مكان الولادة وتتفرع لتصل إلى الثديين مكان التغذية. وهذا حتى تكثر من حظوظ الإنجاب. كما يسهل لزائر الجزائر أن يصادف بعض الأشجار تحمل على عروشها قطعا من القماش الأحمر علقتها نساء طالبات الإنجاب والملفت للانتباه أن هذا الاعتقاد منتشر في كل بلدان الحوض المتوسط وكذلك في الهند.

فالشجرة هي رمز الخصوبة لكونها تمثل في شكلها علاقة وتسلسل النسب بجذرها وفروعها وحتى في تبيان النسب تدرس شجرة العائلة أو القبيلة من الجد الأول إلى الخلف الأخير ويحتفظ بها.

[1] لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَ هُمْ فَتْحًا قَرِيبًا

و يوجد في كثير من المعتقدات أن بعض المخلوقات الخفية اتخذت من الأشجار مأوى لها ويمنع أذى هذه الأرواح باقتلاع الشجرة التي كان يطلب حماها ومساعدتها في قضاء الحوائج ومنها الإنجاب، وصادفنا في بحثنا عن مثل هذه الأشجار شجرة لم يقدر أحد على نزعها خاصة وأن مشروع تمرير طريق وطني يستلزم قلعها واكتفت السلطات بتمرير الطريق جانب الشجرة –الصورة

و مثل هذه الحالات صادفناها عدة مرات في سيدي بلعباس و مستغانم وغليزان الخ...

كما يمكن تفسير الاعتناء بها واعتقاد في بركتها لما فيها من تجدد الثمرات بإيحاء التكاثر.

وكثيرا ما نسمع أدعية الخير لمن لم يكن له ذرّية مثل :

‘ اعمّر هذا الدار’’.أو ‘‘نطلبو لك عمارة الدار’’

‘‘يخضر جنانك’’.

‘‘تعمّر و ثمّر’’.

وكلها توحي بمقارنة الإنسان بالشجر والنبات الذي يتكثر.

وكثيرا ما نجد بجوار قبة أو حويطة أو 'ارجم' (ركام من الحجر) شجرة اكتسبت من البركة ما أعطتها الذاكرة الشعبية المتنقلة من واحد إلى آخر.

ولم يكن من الضروري أن تكون الشجرة بالقرب من ضريح ولي صالح حتى تكتسب هذه البركة ويكفي أن تصحب الشجرة أسطورة تميزها عن باقي الأشجار وهذا حتى لو كانت الشجرة في موقع خال. إلاّ أنه في هذه الحالة تربط بها قصة ولي صالح قد يكون هو الذي غرسها أو استراح تحت ظلالها أو أكل من ثمرها إن كانت مثمرة. ويعطى للشجرة اسم ذاك الولي.

وهذا الربط بين الشجرة والولي أو المرابط يبرر جواز الطقوس المتبعة من طرف النساء عند هذه الشجرة.

وهذا نوع من أسلمة طقوس وثنية لكون الشجرة كانت مقدسة وموضوع عبادة عند الشعوب البدائية ونسمع عند زيارة الجزائري لهذه الشجرة أنه يزور سيدي فلان (الولي الصالح الذي وهب اسمه للشجرة) وإن لم يكن معروفا فسوف تكنى الشجرة باسم نوعها مثل سيدي بوزبوجة إن كانت شجرة الزبوج أو سيدي بوكرمة وكثيرا ما نجد سيدي المخفي أو سيدي صاحب 'لمكان' أو 'سيدي مول لبلاد' وهذا لعدم معرفة الولي الصالح.

فالطقوس التي كانت تتبع ولا زالت إلى يومنا هذا كانت عبارة عن عقد أو تعليق قطع من القماش من طرف المرأة العاقر. فيكون إما قطعة من لباسها الداخلي أو منديل (وكثيرا ما نجدها تتحزم به قبل وضعه على الشجرة) . هذا المعتقد موجود عند كثير من المجتمعات وفي ديانات مختلفة ويراد من هذا العمل وضع الضرر الممثل في القماش وعند ذهابه تحت تأثير الرياح تشفي العاقر وينتظر أن تحمل بعد زمن قصير. وإن لم تحمل تكون هي المتسببة لكونها لم تكن لها 'النية' عند زيارة شجرة الولي أو لم تقم بالطقوس بكل جزئيتها ويجب عليها إعادة كل ما فعلته وهذا يمكن أن يدوم سنوات عديدة.

والشجرة التي كان يعلق عليها من طرف النساء التلمسانيات والزائرات الأخريات قطعا من

القماش وفي نفس الوقت آمالا كبيرة في الإنجاب نزعت في بداية التسعينات[1]

وإن اجتهدنا في إيجاد علاقة بين الشجرة والإنجاب سوف نميل حتما إلى ذكر خصائص الشجرة المتعلقة بالخصوبة والرياح اللواقح وراء هذه القداسة المعتقدة.

2-5- الجماد:

يكون من نافل الكلام ذكر بركة الكعبة لتأكيد هذه البركة في القرآن

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران:96)

إلاّ أن البركة أخذت عدة معاني نجملها في تفسير الألوسي [2]:

'{ مُبَارَكاً } أي كثير الخير لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة قاله ابن عباس ، وقيل : لأنه يغفر فيه الذنوب لمن حجه وطاف به واعتكف عنده . وقال القفال : يجوز أن تكون بركته ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ تجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص : 57].

وأضاف:

'بركته دوام العبادة فيه ولزومها ، وقد جاءت البركة بمعنيين : النمو وهو الشائع ، والثبوت ومنه البركة لثبوت الماء فيها، والبركة الصدر لثبوت الحفظ فيه وتبارك الله سبحانه بمعنى ثبت ولم يزل ، ووجه الكرماني لكونه مباركاً بأن الكعبة كالنقطة وصفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز ولا شك أن فيهم أشخاصاً أرواحهم علوية وقلوبهم قدسية وأسرارهم نورانية وضمائرهم ربانية'[3]

---

1 كانت هذه الشجرة في الطريق المؤدي إلى ضريح سيدي بومدين وكانت النساء تمرّ بهذه الشجرة عند زيارة سيدي بومدين

2 مرجع سابق

3 تفسير الألوسي - (3 / 135)

كما لايفوتنا أن نذكر ماء زمزم المعترف ببركاته عالميا و يُنقل من مكان إلى مكان لشهرة بركاته وتأكيد هذه البركة من النبي صلى الله عليه و سلم. ثبت في صحيح مسلم أن النبي ق قال في ماء زمزم

' إنها مباركة إنها طعام طعم [1] وشفاء سقم '.

يكاد الاعتقاد في المياه المقدسة (عيون، آبار، وِديان ...) أن يكون عالميا وتقريبا لنفس الغايات والتي يمثل فيها طلب الإنجاب أكثر من 50% إلى جانب علاج الأمراض الجلدية والعضوية الأخرى.

لقد إرتبط بالماء هذا المعتقد 'مساعد الخصوبة' لكونه الرمز الكبير لخصوبة الأرض ولولاه لما نبت شيء ولما كانت الحياة وجعل الله ﴿من الماء كل شيء حي﴾[الأنبياء:30] فهذا الرمز للماء وهذه الصفة يضفيان على لعيون والآبار هذه البركة التي تبحث عنها كل امرأة طالبة للإنجاب.

فمن ماء زمزم إلى عين سيدي كنون بتلمسان تكاد الكرة الأرضية تحتوي على عيون في كل بلد. واكتسبت بعض العيون البركة بمجرد أن مدحها ولي أو شاعر مثل عين شلال المصب الكبير عند لالة ستي في القرن التاسع عشر ويزار مكانها اليوم والتي قال فيها أحمد بن المقري التلمساني 'واقصد بيوم ثالث فوَّارةَ

وبعذب منهلها المبارك فانهلِ

تجري على درِّ لُجَيْفا سائلاَ

أحلى وأعذب من رحيق سلسل'[2]

---

1 صحيح مسلم [رقم2473] وزاد الطيالسي [364/1] البيهقي[147/5]

2 أحمد بن المقري التلمساني: ففح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : ص271: دار صادر- بيروت – لبنان 1997

كثيرا ما ينفجر الماء بقدرة إلهية يتسبب فيها نبي أو ولي صالح فقد تفجر ماء زمزم تحت ضربات سيدنا إسماعيل وهو طفل صغير، وسيدنا موسى فجر 12 عينا بعصاه و كثير من الأولياء فجروا العيون بضربة عصى.

لم تكن مياه العيون الأخرى أقل بركة خاصة إن كانت متواجدة بأماكن لها صلة بولي صالح. إمّا أن فجّرها أو أنه استسقى منها أو توضأ بها أو حتى وردّ دابته فيها. فإن البركة تعدّت إليها وبقي حتى بعد ذهاب أو نسيان الولي الصالح. وأصبحت هذه المياه ذات مفعول ألصقته بها الذاكرة الشعبية فمنها ما يقصد للبرء من الأمراض الجلدية أو أمراض عضوية. ومنها ما يجعل العاقر 'تحمل' إمّا بشرب الماء أو بالاغتسال به أو مسح البطن به.

حوض عين سيدى كنون

وذهب كثير من الناس إلى حمل الماء في قارورات وأواني وبيعت بأثمان لم تخفف حماس الباحثين عن بركاتها. ومن العيون الكثيرة التي انفجرت في الجزائر واكتسبت شهرة كبيرة حتى أصبح الناس يتوافدون عليها بشكل ملفت للانتباه 'عين بودة' ورأينا قافلات لحافلات وسيارات متوجهة إليها وهي متواجدة في جنوب غرب الجزائر ولم يكن لأصحاب البلدة كيف يستقبلون العدد الهائل من الزوار واضطرت السلطات المحلية لإستراد الخيام بالمئات. وكل هذا لانفجار عين قيل عنها أنها تبرئ من كل الأمراض ومنها العقر. ونذكر كذلك عينا ذات بركة مؤكدّة عند زوارها وهي عين سيدي كانون بتلمسان والتي تتوجه إليها النساء اللواتي يرغبن في الإنجاب.

ومن الممارسات التي شاعت عند هذه العين الاغتسال بمائها وغسل ملابس الزائرة ووضع الملابس الداخلية التي يعتقد أن سبب العقر سوف يذهب بتركها قرب مجرى الماء كما تبينه الصورة.

حمام ربي بسعيدة ويذهب سكان المغرب إلى عين سيدي يحي بن يونس المشهورة بالشفاء من العقر لمن زارها وتوجد بوجدة بالمملكة المغربية.[1]

نسوق الحادثة التي أخبرني بها احد المتحدّثين كمثال لما يعتقد في بركة المياه:

حين ذكر لزوجته ولم تكن تلد منذ 7 سنوات أن في ولاية عين تموشنت يوجد كهف يسيل من أعلاه الماء على شكل قطرات و أنه مهما زارت المرأة العاقر هذا الكهف ووضعت رأسها تحت مكان نزول الماء بعدد سبع قطرات فقد يكون ذلك نافعا وجربّه الكثيرون. ورغم تحفظ الزوج لاعتقاده أن هذا من قبيل الخرافات والشعوذة وليس بالعقيدة وأن الله هو الوهاب للذّرية مما دعاه إلى طرح السؤال على اللائمة عدة مرات.

هذا مما يوحي بأن ما كان عليه من أمر العقيدة تزعزع نوعا ما تحت إلحاح المجتمع و الرّغبة القوية في الإنجاب.[2]

منذ قديم الزمن أضفى الإنسان قداسة على الماء. فالماء هو الذي أعطى الأشياء الحياة و هو الذي يطهّر وهو الذي يجعل الأرض خصبا، وبالتالي للماء مكانة خاصة في كل الديانات. فبالماء ينتقل المؤمن من وضعية النجاسة إلى طهارة روحية وجسدية[3]. المرأة الحائض مطالبة بالتطهر لتظهر

---

1 تقول الأسطورة أن سيدي يحي هذا سابق للإسلام وأنه عاصر سيدنا عيسى ابن مريم وقبل وفاته بلحظات ضرب الأرض وانفجرت منها الغين وتقول الأسطورة أن اليهود تزور العين لنفس الغرض أي البحث عن الإنجاب

2 وهذا يدل علي رسوخ المعتقدات السطحية المكونة للدين الشعبي رغم ما يقال من مخالفتها لبعض مبادئ العقيدة الصحيحة التي تستفاد من النصوص الصريحة في دين الفقهاء والعلماء

3 كل العبادات تتطلب الطهارة من اغتسال ووضوء بالنسبة للمسلم

التعميد هو الذى يظهر انتساب الإنسان إلى المسيحية

جاء في مخطوطات البحر الميت أن اليهود الآسانيين كانوا يغتسلون ويتوضئ ونو حتى الوثنيون الهند يمرون بالغطس في مياه الغانج المقدسة.

قابليتها للإخصاب.

إن أغلبية العيون والحمامات المعروفة تحمل اسم ولي صالح عين سيدي يوسف وعين عند التوارق. كما رأينا في المسببات للعقم. يكون العلاج من طبيعة السبب. فكما يرجعون العقم لسبب اختلال في التوازن الحراري فالعلاج يكون بعكس ما سبب العقم. ويعالج ظهر المرأة باستعمال ما هو بارد عندما يكون السبب هو الحرارة والعكس صحيح وهذا تطبيقا لمبدأ توازن الأضداد. ونسوق كمثال ذكر لنا وهو أن توضع قربة مملوءة بالماء البارد أوتي به من عين داخل مغارة بجبال الهقار على بطن المرأة التي تسببت لها الحرارة في العقم.

2-6- الحالات التي يعتقد فيها بركة:

أ- قدوم الحجاج

كان هناك اعتقاد سائد بأن النساء العقيمات إذا قمن بحل حزام الحاج عند دخوله بيته وهو آت من البقاع المقدّسة. فإنهن يلدن لانحلال عقدهن عند حل الأحزمة متبرّكات بالحجاج عند قدومهم أول مرة.. وإنهن سوف يحملن وينجبن إذا قمن بهذه العملية، لذلك نرى بعض النساء تأتين مسرعات ويحللن حزام الحاج عند دخوله بيته أول مرة، ويروي البعض بأن الكثير من النساء العقيمات اللاتي سارعن لحل أحزمة الحجاج العائدين لأول مرة بعد أداء فريضة الحج، قد حلت عقدهن وحملن وأنجبن، إلاّ أن الحقيقة – يقول أطباء –أن هنالك نساء مصابات بعقر مؤقت نتيجة لحدوث التهابات في داخل الرحم وفي جداره تزول هذه الالتهابات بعد مرور وقت أو بالتداوي، مما يسبب زوال العقر المؤقت وحدوث الحمل والإنجاب، ولا علاقة لحل حزام الحاج بالعقر والإنجاب مطلقاً، أما النساء العقيمات عقماً دائما.. فإنهن لا يلدن مهما حللن من أحزمة الحجاج القادمين من الديار المقدسة لأول مرة، لكون عقمهن عقماً دائماً لا يزول مهما كانت الأسباب، وهذا ما أجاب به أئمّة لسؤال زائر لرجل عاد من الحجّ.

2-7- الرقية :

1-7-1-تعريف الرقية :

قال الأزهري في تهذيب اللغة:'رقي الرّاقي رقية ورقيا إذا عوّد ونفث'

وقال ابن الأثير : 'الرقية بالضمّ : العودة التي يرقي بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغيرهما.'

كما وجدنا أن الرقية هي العزيمة وهذا عند الجوهري في الصحاح حيث نقرأ في مادة (عزم) '

العزائم هي الرقى كما قال الفيروز آبادي : 'العزائم أي الرقي'[1] وتوسّع ابن فارس [2]' عزّمت على الجنّي وذلك أن تقرأ عليه من عزائم القرآن وهي الآيات التي يرجى بها قطع الآفة عن المؤوف أي المرض'

و لكون لسان العرب لابن منظور من المصادر الموثوق فيها. نورد ما قاله: ' العزائم هي الرقي. وعزم الراقي كأنه أقسم على الداء'.

وتفسير العزيمة بالرقية يوحي بترادف المعنى الذي هو ' نعويذ المريض ليشف'.

كان لفظ العزيمة في الجزائر ولم يزل هو المتداول والأكثر شيوعا عند العامة لأنه يحمل اعتقادا غيبيا مؤكدّا كالسحر. وكثيرا ما كنا نسمع 'العزّام' بمعنى السحّار الذي يقرأ شيئا و'العزيمة' هي الكلمات التي كان يتلفظ بها العزّام. كما كان يعبر على استحالة فعل الشيء ممن طولب منه 'بغيتني نعزّم عليه باش إكون' بمعنى أنه لن يكون.

وبعد غزو الأسواق الجزائرية بتلك الكتب ذات المواضيع المتشابهة استبدلت الكلمة بالرقية وأضيف لها بعض الأحيان نعت 'الشرعية' حتى تطمئنّ قلوب الناس ويستأنس طالبها بجوازها ولا بأس إن استرقي. وهذا ما أدّى إلى النجاح الكبير الذي عرفه 'الطلبة' وبعض مدعي الرقية الذين

---

1 الفيروز آبادي . القاموس المحيط ج3، ص92،

2 هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي من أئمة اللغة و الأدب.

أصبح لهم عيادات وحتى مواقع في الأنترنات وحتى قنوات تلفزية تدعي شفاء كل داء ويطلبون أجورا حسب اختلاف المرض والعقم من الآفات التي استثمر فيها الرقاة فكسبوا أموالا طائلة للراقين لكون الزبون الوفي لهؤلاء 'الطلبة' شريحة النساء الطالبات الإنجاب ولا يحتاج أدعياء الرقية إلى ترويج بحيث أن أسماءهم وخاصة المشهورون تتداول في كل الأماكن (حمامات. حفلات. عند زيارة الأولياء الصالحين ...)من طرف شديدي الإيمان بهذا النوع من التداوي. ودفعت هذه الظاهرة الاجتماعية بعض الكتاب والصحفيين إلى تناول الموضوع بنوع من السخرية في رسوم كاريكاتورية معبرة.

أخذت هذه الكاريكاتور من جريدة الخبر ليومي الأحد 3و24\12\2006

كما اشتغلت السلطات بالظاهرة وحاولت تقنينها بإصدار فتوى أدلى بها الناطق الرسمي لوزارة الشؤون الدينية والأوقاف الأستاذ عبد الله طمين بتصريح صحفي لوسائل الإعلام ا هذا نصها:

' إن شيوع الثقافة المادية في المجتمع مضافا إليها الفكر الديني الدخيل الذي أفرغ الممارسة الدينية الإسلامية بالجزائر من بعدها الروحي والذي روّجت له نحَل دخيلة على المجتمع الجزائري، هو الذي حرم بعض الأفراد من الغذاء الروحي وولّد لديهم اضطرابات نفسية ألجأتهم إلى أن يستغيثوا بقوم استغلوا وضعيتهم هذه واستثمروا حاجتهم إليه برقية كانت عنوانا واضحا للشعوذة والابتزاز' ونشأ

بعد ذلك جيل من الشباب أرادوا أن يحاربوا في الرقية تلك الشعوذة وطلاسم الشرك، لكنهم مع مرور الزمن صنعوا للرقية خرافة بيّنة في الممارسة، ودجلا واضحا في التطبيق. وقد حَجب عن الناس إدراك هذه الخرافة وهذا الدجل اقتصار أولئك في رقيتهم على القرآن الكريم وشيوع الصلاح عن أصحابها بين الناس. والمعلوم شرعا أن الإخلاص في العمل لا يعني بالضرورة صوابه'.

وكون الفتوى مطولة أوجزناها إلا أن يمكن قراءتها كاملة في الملحق رقم س.

2-7-2- كيفية الرقية

وردت كيفية الرقية في الكتب التي تناولت هذه الطريقة العلاجية ونذكر من كيفياتها ما يلي :

- القراءة المصحوبة بالنفث وتارة يتحول إلى التفل أو 'بزاق' على المرقي أي الشيء المقروء عليه (أكل شراب لباس أو حتى داخل فم المرقي).
- استعمال الريق والتراب على اليد أو أصبع ثم يمسح به أثناء الرقية.
- مسح الجسد باليد أثناء الرقية وفي حالة العقم يمسح بطن العاقر من فوق لباسها إن كان الراقي رجلا وعلى بطنها مباشرة إن كانت راقية كما يمكن للمرأة أن ترقي نفسها.
- الرقية في ماء الوضوء أو الغسل أو للشرب.
- ومن الشائع أن يكتب آيات من القرآن في إناء ثم يمحى داخل الإناء ويشرب أو يغسل به البطن العقيم. وتسمي هذه الطريقة 'سباب' أو 'التسباب' ويقال عن الطالب أنه 'ايسبب' أو 'إدير سباب'.

ومثل ما يقال على المريضة أنها ذاهبة للطبيب يقال عن العقيم أنها 'ماشية تسبب' بعض الأوصاف لمعالجة العقم والإسقاط بالرقية إن كان يعتقد أن السبب هو السحر.

يقول الراقي :

'أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بِسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحِيم

ويقرأ :

سورة الفاتحة. خواتم سورة البقرة مفصولة بآية الكرسي، ثم الآية 109 من سورة البقرة [النساء: 54] [الحجر :16-18] [طه:131] [الكهف:39] [الفتح:15] [الملك:14][القلم:51][المرسلات:20–24] [المؤمنون:12 – 14] [الأنعام:98] [الحج:5][النحل:72][آل عمران:38 - 39] [الأنبياء:89 - 90] [الفرقان71-74] [الشورى:49][نوح:10-12][القيامة:37-39] [الحجر:49-51] [الصافات:99-102][الطارق:5-7][التوبة:14-15]{[يونس:57][النحل: 68-69] [الإسراء:82] [الشعراء:80] } [فصلت :44]

و يختم :

﴿ قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ * اللّهُ الصّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لّهُ كُفُوَاً أَحَدٌ ﴾

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ الْفَلَقِ * مِن شَرّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ النّاسِ * مَلِكِ النّاسِ * إِلَهِ النّاسِ * مِن شَرّ الْوَسْوَاسِ الْخَنّاسِ * الذي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ * مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ ﴾

ثم يدعي "اللهم اصرف عني عيون العائنين ، وحسد الحاسدين ، وسحر الساحرين ، ومكر الماكرين ، وكيد الشياطين .

أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامه. اللهم رب الناس أذهب البأس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما.

بسم الله أرقي نفسي ، من كل شيء يؤذيني ، من شر كل نفس أو عين حاسد أو سحر ساحر

الله يشفيني ، بسم الله أرقي نفسي .

كما يوصي صاحب الرقية أن تقرأ الرقية في أي وقت وبأي عدد حتى يرزقك الله الذرية بإذنه ، ويمكنك أن تنفث بعد قراءة الرقية على جسدك وعلى الماء لتشرب منه وتغتسل به ، كما يمكنه ان تنفث على زيت الزيتون لتدهن به وكذلك العسل والحبة السوداء ولقاح النخل .

وبعض الطلاسم تتركب من أعداد يقال أنها سحرية وقد أظهرها الحجاج في مؤلفه شموس الأنوار وبين أن لكل حرف عدد يستعمل في إنجاز الطلسم وتعوض الحروف المفهومة لدى العامة و ها هي تلك الحروف و رموزها العددية :

أ= 1, ب=2, ج=3, د=4, هـ=5, و=6, ز=7, ح=8, ط=9

ي=10, ك=20, ل=30 م=40, ن=50, س=60 ع=70, ف=80, ص=90

ق=100, ر=200, ش=300, ت=400, ث=500, خ=600, ذ=700, ض=800, ظ=900, غ=100

ومن الأمراض التي تعالج بهذه الطريقة العقم. ونسوق هنا ما جاء في كتاب شموس الأنوار[1]:

200	5	90	40
89	41	199	7
32	92	4	198
5	197	33	91

[1] أبن الحجاج , شموس الأنوار ص 7 : القاهرة 1822 و ذكره دوتي في كتابه الدين والسحر مرجع سابق

م	ص	و	ر
7	199	41	89
198	4	92	32
91	33	197	5

نلاحظ أن ارقام السطر الأول (40 ,90, 5, 200) قد عوضت بالحروف المناسبة أي (م, ص, و, ر) وهي كلمة مصوّر أحد أسماء الله الحسني الذي له علاقة وطيدة بالإنجاب حيث نقرأ في سورة آل عمران الآية 6 : "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء..."

2-8-الأعشاب:

يقول الكثير من الناس الذين يفضلون العلاج بالأعشاب، بديلاً أو مكملاً للعلاج الكيماوي: 'الأعشاب صيدلية متنقلة، كلما شحّ العلاج افتحها، وانتق منها دواءك'

عرف الإنسان منذ بداية التاريخ الأعشاب الطبية وفوائدها العلاجية المختلفة ولم يعرف الأولون غير الأعشاب كدواء، وبرع الصينيون والمصريون القدماء في علم التداوي بالأعشاب؛ إذ استخدموها للعلاج والزينة. وفي العصور الإسلامية انتشر أيضاً علم التداوي بالأعشاب، وظهر الكثير من الكتب والمخطوطات بكل اللغات. التي تشرح بصورة واضحة أنواع الأعشاب الطبية المختلفة وطرق استخدامها والأمراض التي يمكن أن تعالجها. وأصبح لها مختصوها وحرفها.

يقول الأستاذ الدكتور سعيدي محمد عن الحِرف النباتية 'يتمثل في ذلك الاستعمال العلاجي والوقائي من الأمراض وحماية الصحة. وقد سخّر الحرفيون النباتيون عددا من النباتات تسخيرا طبيا. كما عرفت هذه الحرف باسم الحرف النباتية الصيدلانية. ولعل ما يمكن الإشارة إليه أن هذه النباتات تنقسم بدورها إلى قسمين اثنين:

أ- يشتمل القسم الأول النباتات الطبيعية التى تنمو طبيعيا دون رعاية الإنسان.

ب-يشمل القسم الثاني النباتات التي يرعاها الإنسان بالغرس والمتابعة والقطف ... '[1]

وبالرغم من التطور الهائل في الطب وظهور الكثير من الأدوية في شتى مجالات العلاج، فإن الحقبة الماضية شهدت عودة إلى استخدام الأعشاب الطبية في علاج الأمراض، كواحد من أهم أفرع الطب البديل. وانتشرت في المدن الجزائية محلات مختصة في تسويق هذه الأعشاب وتكاد لاتخلو قرية أو مدينة من تاجر للأعشاب.

في مجلة الشرق الأوسط ليوم 5-9-2004 يكتب الدكتور هشام الإناني في مزايا الطب البديل وخاصة التداوي بالأعشاب :

'يقول مختص في طب الأعشاب وبائعها بتلمسان بأن هناك عودة كبيرة من قبل الناس الى الطب البديل خاصة لمن لم تجد معهم الأدويه والهرمونات، وتأتى هذه العودة في وقت أصبحت فيه أعداد كبيرة من الأمراض مجهولة الأسباب.

وأضاف بان طب الأعشاب توصل لدى أهل الاختصاص منهم إلى علاج كثير من أسباب العقم لدى الجنسين بكافة أعراضها ومن دون آثار جانبية عند تناول أي كمية من الأعشاب ولمدد طويلة مما ادخل السعادة على كثير من الأزواج الذين حرموا من الإنجاب.

وينصح السيدات اللاتي عانين من العقم لمدة طويلة وأغلقت أبواب الأمل في وجوههم بعد فترة طويلة داخل أروقة المستشفيات ألا يتأخرن في اللجوء الى الاختصاصيين في طب الأعشاب فقد يستعصي العلاج عليهن بعد فترة طويلة من تناول الهرمون.

وينهي الاختصاصي حديثه بأهمية اللجوء إلى الطب العام بداية وفي حالة تعذر إيجاد العلاج المناسب بعدم التأخر في اللجوء إلى الطب البديل لإنهاء المعاناة بكل سهولة ويسر.'

[1] أ.د.سعيديمحمد . مقدمة في أنثروبولوجيا – مظاهر الثقلفة الشعبية – ص 69 دار الخلدونية 2013.

ويرى البعض أن المستقبل سيكون للعلاج بالأعشاب لأنها متوفرة بكثرة، وسهلة الاستخدام، ورخيصة الثمن، ومخاطرهاقليلة. واشتهرت الأعشاب لمعالجة العقم مثل طلح النخيل و الحبة السوداء.

ورأينا في الفقرة السابقة أن بعض 'الطلبة' يصفون للزائرات الأعشاب تكميلا للرقية. وهذا يتطلب أن يكون للراقي إلمام ولو بسيط بطب الأعشاب

2-9- وسائل لمحاربة الربط والعين والسحر

- الوقاية من العين :

ينصح الفقهاء لإبعاد مفعول العين المحافظة على الأذكار والأدعية الصحيحة الواردة عن المصطفى، وعدم إظهار النعمة - ومنها الذرية و بطن حمل - على أكمل صورة عند من عرف عنه الحسد والجشع والغيرة واشتهر بالعين الضارّة ، 'قال ابن القيم: ومن علاج ذلك والاحتراز عنه، ستر محاسن من يخاف عليه العين، بما يردها عنه، كما ذكره البغوي في كتاب شرح السنة: أن عثمان بن عفان رأى صبيًّا مليحًا، فقال: دسموا نونته لئلا تصيبه العين، ثم قال في تفسيره، ومعنى دسموا نونته: أي سودوا نونته، والنونة: النقرة التي تكون في ذقن الصغير'[1].

أي غيروا من شكله وجماله .

وقال كشاجم مادحًا رجلا بكمال الآداب والمكرمات:

يا كاملَ الآدابِ مُنفردَ العلا *** والمكرمات ويا كثير الحاسدِ

'شَخَصَ الأنامُ إلى كمالك فاستَعِذْ *** من شر أعينهمْ بعَيْب واحدِ'[2]

---

1 أبو عبد الله محمد الزرقاني المالكي : شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ص398 دار الكتب العلمية 1996

2 عبد الله رمضان و هو باحث في النقد الأدبي : مقال على موقع/http://www.odabasham.net

والعامة من الناس يستعملون وسائل اشتهرت عندهم مثل 'ضرب الرصاص' وهو عبارة على تسخين قطعة من معدن الرصاص وعند احمراره يرمى في إناء به ماء بارد وعند التقاء المادتين —الماء البارد والرصاص الحار– ينتج انفجار بسيط. وتكون العملية بين رجلي من أُصيب بالعين.

كما يظن البعض أن الوقاية من العين تكون بتعليق الخامسة وهي شكل كف في وسطه عين مرسومة (كما في الصورة) ويتخلل الأصابع حية أعقرب في بعض الأحيان (كما في الصورة الثانية)

وتارة يكون الجدار الخارجي للمنزل هو حامل 'الخامسة مصنوعة بالخزف. مثل ما في الصورة الآتية والمأخوذة في متجر للخزف.

كما يلجأ العوام اليوم إلى تعليق الودع[1] والخرز والتمائم وأشكال أخرى كثيرة تعتقد بها وتفعلها العوام لدفع العين.

ونقرأ في ' موقع لقط المرجان' لأبي أحمد :

' أما إذا عرف العائن ولم يكن من حرج أن يخبر بان عينه أصابت المعيون فالعوام تطلب من العائن ، أن ينفث على جسم المعيون ويذكر الله ويبرك عليه ، أما في حالة عدم معرفة العائن فيستخدم الشب وبعض الأعشاب التي يعرفها كثيراً من أصحاب العطارة وأكثر ما يستخدم في البخور للعين الشبة ، الفاسوخ، السذاب . ومن خلال التجربة والمتابعة لكثير من الحالات التي تشتكي من العين خاصة تبين أن للاغتسال بالماء الذي قرئ عليه الرقية أو الماء الذي محيت فيه آيات من كتاب الله تعالى أثراً عجيباً في صرف العين.'[2]

- حل السحر :

يسميه الفقهاء النُّشرة و قسمه العلماء إلى قسمين الأول أجازوه وهو حل السحر بأدعية شرعية ودعوات وأدوية مباحة مثل والسدر الذي من الأمور المباحة، فإذا وجد فيه فائدة من حل السحر وغيره فلا بأس باستعماله. لما فيه من المصلحة وعدم المفسدة[3].

---

1 الوَدْع: شيء يُستخرج من البحر، يشبه الصّدف، يعلقونه على صدورهم أ,على أعناقهم أ,على دوابهم يتقون به العين

2 موقع لقط المرجان لأبي أحمد: المكتبة الإسلامية 'الشاملة': http://www.shamela.ws/

3 أجوبة عديدة عن أسئلة مفيدة : الشيخ عبدالعزيز الراجحي ج 1 ص 70

أما القسم الثاني وهوما يعرف في الجزائر با 'لقليع' وهو حل السحر بالسحر فذهب أغلبية الفقهاء إلى تحريمه. ويصفه أبو أحمد في موقعه كما يلي:

' نجد أن النساء المسحورات بسحر مأكول أو مشروب لأجل الربط والعقم يشتكين من آلالام في الأرحام، ويشعرن بمثل الكرة فوق الرحم وعلى إحدى أو كِلا جانبي الرحم خصوصا في بداية تمزقه ثم يشعرن بآلام ونزول هذه الكرة وهي تتمزق حتى يخرج السحر من الرحم على شكل قطع دمويه ودم غير دم الحيض شكلا ورائحة. ويستغرق نزول السحر من بداية تكوره إلى تمزقه وخروجه إلى بضعة أيام أو إلى بضعة أسابع، وذلك بسبب اختلاف الحالات من حالة إلى أخرى.'

ولحل سحر العاقر ينصح 'العارفون' بمادة مشهورة ومتوفرة لدى كل العشابين في الجزائر وهي مادة 'الفاسوخ' تتبخر بها العاقر أو الرجل 'لْمْثَقّفْ' وبمجرد هذه العملية يُحل السحر وقال لنا بعض العشابين أن كلمة الفاسوخ آتية من 'فَسَخَ' أي حلّ وأبطل كفسخ عقدِ.

وحضرنا إلى حصص 'قليع' في مدينة البيض عند 'طالب' معروف. بعد البخور بالفاسوخو الجاوي طلب من 'المسحورة' وضع يديها تحت قطعة قماش كان يغطي إناء به ماء وبعد لحظات كان الطالب يقرأ أثناءها القرآن ويقول قولا غير مفهوم ويحرك يده داخل الماء. ظهر عليه التعب وكان يتصبب عرقا. خلع الغطاء وظهر الماء أحمر وفيه مجموعة من الأشياء (حجاب. شعر. علبة صغيرة حديدية وقطعة قديمة من الذهب – 'لويزة') وقال لزوج السيدة 'المسحورة' هذا ما فعل بها فاعل خذوه و ادفنوه بعيدا واحتفظ بقطعة الذهب)'

كما نجد بعض المواد مثل العاج وهو أنياب الفيل، وأجوده ما كان من الإناث، وينفع من الرعاف ونزف الدم، وإذا شربت المرأة العاقر من نُشارته في كلّ يوم هيأها للحمل ونفعها. تشرب سبعة أيام

متوالية، في كل يوم مقدار معين بماء وعسل، ثم جومعت بعد ذلك، فإنها تحبل بإذن الله تعالى.[1] وهذا بعد ما خضعت إلى طقوس للحل السحر أي ما سميناه النشرة أو 'القليع'.

ونسوق هذه الإعتقادات المنكرة من طرف الشرع

أدّت الرغبة في الإنجاب إلى اعتقادات وعادات لاتقبلها العقل وينكرها العلماء معللين أن هذا ضرب العقيدة الصحيحة. نذكر منها على سبيل المثال[2]:

-تنبش العاقر قبر طفل أو مولود حديث الوفاة لكي تظهره وتنظر إليه فتحل.

-يعتقد بعض الناس أن العاقر إذا ألقي عليها حربا فتحمل.

-ويعتق آخرون أن العاقر تحمل إذا ما اغتسلت بماء قد غسل به بعض الحجارات الخاصة.

الملاحظ أن المرأة هي التي تتعاطي للسحر وفسره البعض أنه يستعمل للعلاج ولكن كذلك للمقاومة ضد سلطة الرجل. 'عيسى ويطيص' في مؤلفه الذي خصه للممارسات السحرية/الدينية من طرف المرأة كوسيلة من الوقاية من العقر و بالتالي من التطليق و كوسيلة للتحكم [3] وتشاطره الرأي

1 الجامع لمفردات الأدوية والأغذية: ابن البيطار: كتاب رقمي وموقعه: http://www.alwarraq.com

2 الإبداع في مضار الابتداع.

3 ينظر عيسى ويطيص : المتناقضات الاجتماعية وتعبير الرمزي في منطقة سطيف ص 156-159 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980

'كميل لاكوسط ديجاردان' التي تركز تحليلها للسحر على مفهوم 'السلطة المضادة' بالنسبة لها. قد يكون السحر استراتيجة نسوية للمقاومة ضد سلطة الرجل.[1] وتخص به النساء اللواتي لم يكن لهن ذرية لأن في مفهومها تكتسب المرأة السلطة من كونها أمّا ولا تحتاج المرأة إلى سحر إلاّ إذا كانت عاقرا أو بدون ذرية. ولكن لا نشاطر هذا الرأي الذي يحصر تعاطي السحر على المرأة لأسباب السعي وراء السلطة بين الرجل والمرأة[2].

2-10- نتائج هذا العلاج:

بالنسبة للطب الرسمي ومن وجهة نظر عقلنته فالنتيجة الإيجابية التي يتوصل إليها المعالجون التقليديون أو الروحانيون هي أولا قليلة جدّا لا تمكن ضبطها إحصائيات معبّرة، وثانيا لا تختلف عن النتائج الإيجابية التي توصّل إليها الطب الرسمي في حالات العقم الميئوس من شفائه ولم يكن يتوقعها حتى الطبيب الرسمي الذي يقول عند عدم اقتناعه بالوسيلة المستعملة ''درنا اللى علينا والباقي على ربي'' ناصحا العاقر أو أحد أهلها أن لا ينتظر شفاء. ومنهم من يفسّر ما يتوصل إليه المعالج غير الرسمي ''بالبلاسيبو''.

''البلاسيبو'' علميا هو المادة الطبية التي تُعطى للمريض ليتحقق من نسبة التأثير والمفعول النفسيين في الدواء المقدّم لأن ما يُعطى هو مجرّد مادة حيادية لا تشتمل على دواء ذي مفعول.

يقوّى مفعول ''الدواء'' إذا ما وُضع المريض -وهنا العاقر- في وسط يساهم في إثارة نفسية مثل

---

1 ينظر كميل لاكوسط ديجاردان : أمهات ضد نساء ص 154 1985.

2 ينظر سعدية راضي : الغيب والمجتمع مركز جاك بيرك 2013.

إعطائه وصفة بعد فحص مدقق و يختار لـ ''الدواء'' اسم مؤثر و لون مميز وطعم خاص و حتى ثمنه يساهم في التأثير.

كما يساهم المكان و الفاعلون مثل المستشفى والعيادة وشهرة الطبيب في تهيئة واستعداد العاقر للتفاعل مع العلاج.

وتكون نسبة مفعوله أكبر إذا ما كان للعاقر شحنة نفسية كبيرة. وخاصة إذا ما تأسست علاقة ثقة بين العاقر والطبيب أو المتدخل للعلاج.

ونشير هنا إلى أنه لا علاقة للتجاوب لهذا ''العلاج'' مع المستوى العلمي للمريضة كونها لا تعرف أن المادّة لا تأثير لها علمي مجرّب على الأعضاء او الوظائف الجسمية. وينجح هذا النوع من العلاج إذا ما كان للعاقر شحنة نفسية كبيرة ورغبتها في الإنجاب قوية كما يساهم في النتيجة علاقة الثقة التي التي تتكون عند المريضة مع المعالج.

لقد حاول الأطباء تقييم 'البلاسيبو' وأثبتوا مفعولا إيجابيا في 30% من الحالات. ولقد فسر هذا المفعول في حالة النجاح بالعلاقة التي تربط الجانب النفسي بنشاط الأعضاء والحركة الفيزيولوجية داخل جسم الإنسان. ولكن كيف يندفع الناس نحو العلاج غير الرسمي والمصنف ضمن ما اعتبره العلم بالبلاسيبو؟

إنّ لرأي الآخرين ولسلوكاتهم أهميّة كبيرة ويكوّن عنصرا حاسما في اتخاذ القرار عند الفرد.

لقد تفطّن لهذا أصحاب الاختصاص عندما لاحظوا أن مجموعة متفرّجين لفكاهة يضحكون عند رؤية الآخرين يضحكون وهذا بدون أن يفهموا أو ا يروا ما يُضحكهم فإنهم يضحكون بالعدوى. وهذا ما أسماه الباحثون ''الدليل الاجتماعي'' la preuve sociale. وهذا الدليل يقدّم عند الشك أو الجهل بالشيء أو التردّد. وسلوك الآخر هو الذي يُرجى منه أن يرجّح سلوك الآخر ويحثه

على اتخاذ القرار ويتبّع الجماعة اطمئنانا واستئناسا. ويمكن أن تكون سلوكات الآخرين هي التي تبرّر سلوكاتنا.

وهذا هو الذي يدفع المتعاملين بالسحر والشعوذة وما يقدّمونه للعاقر من أدوية تقليدية إلى سرد تجارب الآخرين التي نجحت.

كما تستعمل كأداة للإشهار أن يقول المعالج أن هذا الدواء استعمل من طرف المئات أو أنه يُستعمل مند قرون حتى تقدم العاقر على اقتنائه.

وما سميناه بالدليل الاجتماعي يعتبر وسيلة إقناع حاسمة لمن هو يبحث عن وسيلة لمعالجة عقره أو عقر زوجه. فإن كان 'البلاسيبو' المحضر في المخابر يستند على معطيات للتركيبة النفسية تدرس في الجامعات فإن ما يجري عند ''الطالب'' أو عند ضريح وليّ صالح أو عند السحار لا يختلف عنه كثيرا في الجانب النفسي والاجتماعي.

يكون الدليل الاجتماعي هو المحفز والدواء أو الطقوس ''هو البلاسيبو'' إلاّ أن هذا العلاج المستمد من الدين يفتقر إلى المشروعية ويخاطب الجانب النفسي بالدرجة الأولى مستغلا الرّغبة القوية في الإنجاب. وعندما يتوصل العاقر إلى نتيجة إيجابية يفسره النفسانيون بالوضعية أو الحالة النفسية للانتظار التي تحفّز وتستثير عدة قوى نفسية التي تنتج تأثيرا على العمليات التي توصل إلى برء الأعضاء.

وفي الحقيقة هذا الانتظار له صفتان: الانتظار الخائف والقلق والانتظار الإيماني.

وحسب 'فرويد' هذه الصفة الأخيرة هي التي تكوّن قِوة فاعلة تساهم في البرء وتجعل من الطقوس الدينية العلاجية معجزات حقيقية للعلاج عند المؤمنين بهذه الطقوس، خاصة إذا كانت عمليات العلاج محاطة بما يجعل النفس مستعدة كقراءة القرآن في مكان مقدّس، لكون المعالجين لهم من الانتماء الديني ما يؤثّر إيجابا على العاقر.

ويكون ذا فعالية أكبر عندما يكون المعالج ‘‘الطالب’’ مثلا لا يفقهون شيئا في الطب العلمي ويكون الدواء غير الدواء العلمي ويكون الفضاء غير المؤسسات الرسمية للاستشفاء.

هذه الحالات الإيجابية مؤكّدة عند كثير من العلماء النفسانيين الذين صرّحوا[1]: ‘إن عملية علاج العقم غير الأكاديمية ليست احتمالا بل هي حقيقة ثابتة.

بينت التجارب العلمية التي قام بها الأستاذ 'برنارد جراد' والتي قامت بها الباحثة جوستا سميت أثبتت بما لا يقبل الشك أن لدى المعالجين القوة للتأثير على الكائنات المريضة وتحقيق الشفاء لها. وفعلا كثير من البحوث تُظهر وقع التأثير النفسي على الجانب الفسيولوجي.[2]

ومن ثم يكون للعمل النفسي في علاج العقر، أو غيره من الأمراض، دور لا ينكر في جلب الشفاء للمريض.

وسواء كان هذا العلاج مستلهما من فكرة البركة، أو من قداسة هذا الشيخ أو تلك الشجرة، أو من هذه الممارسة أو تلك، فإن تأثر النفس بكل نوع من أنواع هذا العلاج يكون فيها استعدادا

---

1 معجزات العلاج : راجي عنايت دار الشرق ط5 . 1995 ص50

2 أكدت أبحاث أُجريت على مجموعة من المتطوعين في الولايات المتحدة أن الاستماع للقرآن الكريم المرتل يتسبب في حدوث تغييرات فسيولوجية لا إرادية عند الإنسان. فيساعد على تخفيف حالات التوتر النفسي الشديدة التي تثير في الجسم تغيرات في الاتجاه المرغوب فيه بقوة. ووجد الباحثون أن لتلاوة القرآن الكريم أثرا مهدئا على أكثر من 97 في المائة من مجموع الحالات. ورُصدت تغييرات لا إرادية في الأجهزة العصبية للمتطوعين. ما أدى إلى الشفاء لبعضهم وإلى تخفيف درجة التوتر لدى البعض الآخر وهذا بشكل ملحوظ. على الرغم من وجود نسبة كبيرة متهم لايعرفون اللغة العربية. كما لاحظ الباحثون أن الأشخاص غير المتحدثين بالعربية شعروا بالطمأنينة ةالراحة والسكينة في أثناء الاستماع لآيات الله عزّ وجلّ على الرغم من عدم فهمهم لمعانيها’ http://www.islamonline.net/arabic/index.shtml.

بيولوجيا للتماثل للشفاء كما أن الأمل المحقود على 'المعالج التقليدي' وقوة الرغبة في الإنجاب قد تُساهم بشكل أو بآخر في تقوية هذا الاستعداد الذي قد يؤدي إلى الشفاء الذي نسميه، في المعتقد الشعبي، كرامة تحققت أو معجزة وقعت، أو شيئا من هذا القبيل.

قبل بضعة عقود من هذا الزمن لم يكن الإنسان يتحكم في عملية الإنجاب بصفة ناجعة سواء عند الرجل أو المرأة إذا استثنينا ما كان من سلوكات عند المسلمين الأوائل باستعمال العزل عند من لا يرغب في الإنجاب. وكان العقر صفة سلبية لم تكن تحارب بالوسائل التقنية التي يعرفها هذا الزمن.

قفزت الإنسانية قفزة نوعية بما توصلت إليه من وسائل تكاد تمحو العقر تماما ونقول هذا بدون أحكام أخلاقية مسبقة.

يعتبر اللجوء إلى المساعدة الطبية للإنجاب بل مجرّد التفكير فيه ثورة علمية وثقافية في نفس الوقت. لم تبق التغييرات العميقة محدودة في السلوكات الجنسية التي تكوّن مصدر النشاط الإنجابي بل تعدّت إلى الدهنيات و حاولت تغيير العادات والمعتقدات.

يعتبر تشوق الزوجين إلى إنجاب الذرية أمرا ضروريا تتطلع إليه نفساهما وهو مركب في الفطرة الإنسانية.

إلاّ أن الوسائل العلمية ومنها التلقيح الصناعي قد تكتنفه بعض 'السلبيات' سواء على المستوى التقني أو الأخلاقي أو الديني وهذا حسب طبيعة المجتمع.

ما يميز بين المجتمعات الغربية وتلك التي تنتمي إليها الجزائر أي العربية الإسلامية هو الإباحة عند الأولين باستعمال كل الوسائل التكنولوجية للإنجاب المساعد طبيا. ولم يصبح الزواج الشرعي أو حتى العلاقات الجنسية شرطا للإنجاب الذي أصبح. إن لم يخضع لقوانين أخلاقية. عملية حقنة أو شراء حيوان منوي أو بويضة أي اختيار ''سلعة'' من بين أنواع مختلفة تعرض للزبون.

فالمجتمع الغربي يستحسنها ويباركها، فهي لا تخالف المبادئ والقيم التي يقوم عليها هذا المجتمع، حيث لا يولون أهمية كبرى 'للزواج الشرعي'، كما أن مفاهيم 'الأسرة'، و'العائلة' قد فقدت معانيها الحقيقية. فكل اتصال جنسي خارج إطار الزواج مشروع عندهم، حتى مع المثليين، فلا مشكلة في

الزواج المثلي ما دام التلقيح الصناعي يمد بالأطفال.

أما الجزائر مثلها مثل البلدان العربية الإسلامية فقد وضعت شروطا وحدودا لاستعمال البعض منها (الوسائل) وإبعاد البعض الآخر. إن السعي للإنجاب المدعم طبيا بالنسبة للجزائري. العربي المسلم. يكون دائما محاطا بالحذر والبحث عن الوسائل المقبولة شرعا. ولذا فإن رأي الدين أساسي في اتخاذ أي قرار.

وهذا التحفظ أملته الأخلاق التي يمليها الدين الإسلامي والممارسات الشائنة اللاأخلاقية بينت عدم جدوى تلك الأخلاق ومن هذه الممارسات استعمال وسائل (كاستئجار الأرحام و بنوك الحيوانات المنوية و/أو البويضات...) .

وهذه التحفظات مؤسسة لكون هذه الممارسات تمس بنقاوة الأنساب، وتم استعمال تلك الوسائل لتأسيس أسواق بأتم الكلمة.

إلا أن حق القرار يطرح نفسه في مثل هذه الحالات.

فعملية الإنجاب شخصية من جهة. تخص فردا أو زوجا يتمتّع بحرية مطلقة أو نسبية حسب المجتمع الذي يعيش فيه (أخلاق. دين. عائلة ...). ومن جهة أخرى تخصّ عملية الإنجاب مجتمعا كاملا إن لم نقل البشرية كما تخص العائلة (المجتمع المصغر) ومن هنا تفرض ثلاث استراتيجيات نفسها :

–**الإستراتجية الأولى** : تفويض كل الإشكالية إلى هيئة أو سلطة لتسيير عملية الإنجاب. ونقصد من الهيئة أو السلطة المؤسسات الرسمية والقانونية التي تسنها وكذلك الدين. فيمكن لهما (الدين والدولة) إصدار قوانين لجواز أو منع العملية التي تعتبرها لا أخلاقية أو تمس بثوابت. كما يمكن لهما منع البعض منها واجازة البعض الآخر، نظرا لتعدد التقنيات المساعدة على لإنجاب. كما يمكن لهما

الإجازة بتحفظ.

–**الإستراتجية الثانية** : وهي ترك قرار العملية لحرية الإنسان يفعل ما يشاء والقانون في تلك المجتمعات التي تُجيز هذا ، يضمن هذه الحرّية. ويكون الإنجاب في هذه الحالة عملية خاصة لا يتدخّل فيها الغير وهذا ما تطالب به الجمعيات النسائية في المجتمعات الغربية. التي رفعت شعار ''طفل متى أريد''. هذه الحريات غير المشروطة وغير المحدودة تهدد المجتمعات بالفناء بحيث أن نسبة النمو عندهم نزلت تحت 1.8بالمئة مما لا يضمن الخلف.

–**الإستراتجية الثالثة** : وهي الإستراتجية الأولى بحذف الحالة الأولى منها أي أن هذه الإستراتجية تجيز بعض الحالات وتجعل ضوابط ولا تمنع كل الحالات.

فطبيعة المجتمع هي التي تحدد الإستراتجية التي تنتهجها. ولقد فصلنا في البداية طبيعة المجتمع الجزائري ونخلص أن الإستراتجية الأولى هي الأنسب نظرا لتمسك الشعب الجزائري بدينه و نظرا لأن القوانين الوضعية مستمدة من الدين.

فتعدد التقنيات يجبر الهيئات على دراسة كل عملية وإخضاعها للشريعة. وهذا ما سوف نفصله بالتعرّف علي عمليات الإنجاب المدعم طبيا .

1.<u>التلقيح الصناعي:</u>

لغة : التلقيح الصناعي هو مصدر فعل ''لقّح'' ويقال ''لقّح النخلة أو شجرة التين'' وهو وضع اللقاح أو ''الذُّكار'' على الشجرة. والكلمة مأخوذة من اللقاح وهو ماء الفحل وما لقح به الشجر والنبات ويقال ''ألقحت الرياح الشجر و النبات'' وجاء في سورة الحجر الآية 22 (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

وأضيف لها صفة ''الصناعي'' للتعبير على طريقة أو صورة يتم فيها التلقيح والإنجاب بغير الاتصال الجنسي الطبيعي بين الرجل والمرأة ، أي بغير عملية الجماع. ويتم في أغلب الأحيان خارجيا كونه يقع داخليا أو خارجيا حسب أنواع التلقيح ولمحمل النوعين سبع صور بحثها الفقهاء في المجامع الفقهية، وفي الأبحاث الفردية، بعد أن ثبتت صلاحيتها لإنجاب نسل منها؛ حيث بينوا الصور الجائزة منها، والصورة المحرمة تحريما أبديا، والصورة المختلف فيها. وهي ما سيتم تفصيلها.

تفصيل كل الحالات:

أ) التلقيح الصناعي الداخلي:

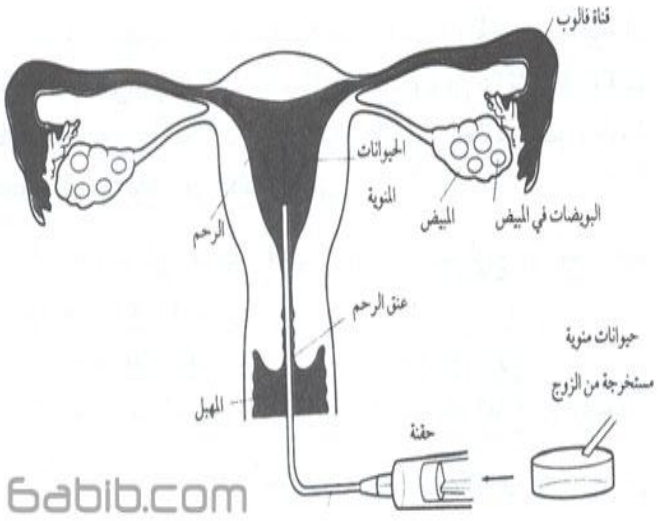

هو إدخال كمية من المني المعالج والمركز بحيث أن يكون عدد الحيوانات المنوية كافيا للتلقيح في المجاري التناسلية عند المرأة بهدف الإنجاب. ويستعمل لهذا الإدخال وسيلة حقن حتى يصل المني إلى داخل عنق الرحم وتحقن الكمية المتبقية من السائل المنوي في قعر المهبل خلف عنق الرحم كما يبينه الشكل.

يلجأ لهذه الطريقة في حالة عقر الرجل الذي يعاني من قلة الحيوانات المنوية أو بطء تحرّكهم. يخضع

المني المستخرج من الرجل إلى عمليات تنقية وتركيز. كما يلجأ إليه في حالة عقر المرأة عند انسداد القنوات المؤدّية إلى البويضة أو نزول هذه الأخيرة.

لا يعتبر التلقيح الصناعي مستحدثا بل كان معروفا عند العرب وأخرج السلف أحكاما فقهية في هذه الممارسة. ورد في كتب فقهية عند الأوائل تحت باب ' استدخال المني أو تحمله' . نذكر من النصوص ما جاء في حاشية ابن عابدين :

' إذا عالج الرجل جاريته فيما دون الفرج فأنزل فأخذت الجارية ماءه في شيء. فأدخلته في رحمها في حدثان ذلك. وحملت الجارية وولدت. فالولد ولده والجارية أم ولدِ له '[1]

يظهر مما سبق أن السلفَ كانوا على دراية بما نسميه التلقيح الصناعي في صورة إدخال المني في الرحم.

ب) التلقيح الصناعي الخارجي:

ويسمى كذلك طفل الأنابيب. ويتم التلقيح بعد إخراج البويضة من المرأة خارج الجهاز التناسلي وإخراج الماء ألذكوري وبعد التلقيح تعاد البويضة الملقحة أو البيضة إلى رحم المرأة.

ولإخراج البويضة يتطلّب أن يعرف الطبيب موعد التبييض عند المرأة بواسطة الهرمون التي تفرزها الغدة النخامية. ويمكن تفعيل عملية التبييض طبيا.

هاتان الطريقتان هما الأكثر شيوعا استعمالا في المراكز المتواجدة في الجزائر.

1 إبنعابدين : رد المحتار على الدر المختار ج 3 ص 528

للتلقيح الصناعي سبع صور :

- أن تؤخذ نطفة رجل متزوج وتحقن في الموضع المناسب من رحم زوجته، فيتم التلقيح والعلق في جدار الرحم.

- أن تؤخذ نطفة من زوج وبيضة من مبيض زوجته وتوضعا في أنبوب اختبار طبي بشروط فيزيائية معينة حتى تلقح نطفة الزوج بيضة زوجته في وعاء الاختبار، ثم بعد أن تأخذ اللقيحة بالانقسام والتكاثر، تنقل في الوقت المناسب من أنبوب الاختبار إلى رحم الزوجة نفسها صاحبة البيضة لتعلق في جدار

- أن تؤخذ النطفة والبيضة من زوجين وبعد تلقيحهما في وعاء الاختبار تُزْرَعُ اللقيحة في رحم زوجة أخرى للزوج نفسه

- أن تؤخذ نطفة من رجل وتحقن في الموقع المناسب من زوجة رجل آخ

- أن يجرى تلقيح خارجي في أنبوب الاختبار بين نطفة مأخوذة من زوج وبيضة مأخوذة من مبيض امرأة ليست زوجته (تسمى متبرعة)، ثم تُزْرَعُ اللقيحة في رحم زوجته

-أن يجري تلقيح خارجي في أنبوب الاختبار بين نطفة رجل وبيضة من امرأة ليست زوجة له (يسمونهما متبرعين) ثم تزرع اللقيحة في رحم امرأة أخرى.

- أن يجري تلقيح خارجي في وعاء الاختبار بين بذرتي زوجين، ثم تزرع اللقيحة في رحم امرأة تتطوع بحملها.

وبعض الصور من التلقيح الصناعي اتُّخِذَ لها عناوين مثل بنوك الحيوانات المنوية والبويضات والحمل للغير.[1]

[1] أمل علينا البروفسور الشارف كل هذه المعلومات وهو أستاذ بكلية الطب و رئيس مصلحة طب ا لنساء بالمؤسسة الاستشنفائية بوهران.

ج) بنوك الحيوانات المنوية و / أو البويضة

إذا قسناها بما يجري طبيعيا فإننا لا نبتعد عما يسمى حاليا 'الزنا' أو ما يسمى في الجاهلية بالإستبضاع (وهذا الأخير كان له نفس الغاية أي الإنجاب 'بفحل') خاصة وأن الحديث النبوي الشريف يستعمل مصطلح الوضع وها هو العلم الحديث يظهر هذه الكيفية بحقن مني أجنبي في مهبل زوجة شرعية لرجل عقيم.

الكنيسة هي الأخرى أبدت تحفظها في استعمال التكنولوجية التي تتطلب تدخل عنصر ثالث أجنبي على الزوجين.

كما أن هذه الوسيلة يمكن أن تضرب عرض الحائط العلاقات الشرعية للزواج. بحيث أ ن أي امرأة لا تحتاج إلى رجل لتنجب ويكفيها أن تقتني من بنك المني ما يجعلها أمّاً حتى ولو لم تتعرف أبا طفلها.

كما أن هذا الطفل يكون بدون أب معروف لديه وكل ما ينجر عن هذه الوضعية من صدمات نفسية. ورغم أسباب الحرمة المقدّمة نجد حالات شاذّة عند فئة من المسلمين الشيعة تُجيز هذا النوع من التلقيح الذي نشره صاحبه على الأنترنات تحت عنوان 'خبر سار للزوجات الاثنا عشريات'.[1]

---

[1] **خبر سار للزوجات الاثنا عشريات**/ اذا زوجك عقيم عليك بفتوى آية الله العظمى الاردبيلي

سؤال: هل يجوز تلقيح زوجة الرجل الذي لا ينجب بنطفة رجل أجنبيّ عن طريق وضع النطفة في رحمها؟ ولمن يكون الولد وما هي علاقته بهؤلاء الثلاثة) صاحب النطفة، صاحبة البويضة، الأب الذي لا ينجب)؟

جواب: لا يجوز تلقيح نطفة الرجل الأجنبيّ في رحم المرأة الأجنبيّة مباشرة، نعم يجوز تلقيح نطفة الرجل لبويضة المرأة الأجنبيّة خارج رحمها وبعد التلقيح وضعها في الرحم، فيكون الرجل صاحب النطفة أبا الطفل والمرأة صاحبة البويضة والرحم أمّه ويجري بين الطفل وكلّ من الأب والأمّ أحكام النسب وأمّا الرجل زوج المرأة فلا تكون بينه وبين الطفل أيّ علاقة نسبيّة بل الطفل ربيبه.

وهذا ما أثار ردود الفعل المستنكرة لفتوى آية الله العظمى الاردبيلي ورفض الشيعة هذا الفتوى الشاذة.

شاعت هذه الوسيلة في المجتمعات الغربية تحت اسم التبرع بالمني أو التبرع بالبويضات. إلاّ أن بعض الناس لم يقتنعوا بهذه الحرمة ويلجئون إلى أطباء ومؤسسات صحية خارج البلدان الإسلامية إلا أننا نلاحظ حسب اعترافات لبعض الأزواج أن اللجوء يكون دائما اقتناء بويضة وليس منيا لأن الرجل الجزائري لا يقبل أن تحمل زوجته بمني رجل آخر

ولا يعارض بقوة اقتناء بويضة، فمساهمته تقلل من شعوره الرافض، وتقبل الزوجة اقتناء البويضة لكونها سوف تحمل هي لمدة تسعة أشهر وهذا ينسيها أن البويضة لامرأة أًخرى.

2- إستئجار الأرحام

أثارت هذه الوضعية جدلا كبيرا من ناحية المصطلح نفسه ومن الجانب الأخلاقي. فالمصطلح يوحي بعملية تجارية[1] تأخذ المرأة التي سوف تحتضن مقابلا لخدمة سوف تؤديها ليس إلاّ. وعليه اصطلح على استعمال عبارة 'الحمل للغير' لصرف النظر عمّا توحي به عبارة 'استئجار'.وسوف نتعرض للجانب الأخلاقي بعد تعريف هذه النمط من التقنية الإنجابية.

إن أسلوب ' الرحم المستأجرة' في الإنجاب يتم بأخذ البويضة من امرأة ترغب في الإنجاب ولأسباب متعددة تجعلها غير قادرة على الحمل بنفسها. فلقد ابتدع علماء الغرب فكرة إدخال هذه البويضة الملقحة في رحم امرأة أخرى بدلاً من رحم صاحبة البويضة وبهذا الأسلوب تحمل الأم البديلة

1 نشر جريدة الشرق الأوسط في عددها 11057 المؤرخ في 07/03/2009 ملف الأمهات البديلات في الهند . شهرة تعدت الحدود وجدل أخلاقي. 12 مليار دولار حجم سوق الإخصاب خارج الجسم واستخدام أم بديلة.

هذا الجنين حتى الولادة.

يمكن أن ينتج عنها نزاعات بين الأم البيولوجية والحاملة والسؤال الكبير هو من هي الأم ؟ يحدد الله سبحانه تعالى الأم بالتي تحمل ولا غيرها.

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [1]

وقال تعالى :﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [2]

وقال تعالى :﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [3]

وقال تعالى :﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [4]

وقال تعالى:﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ [5]

---

1 سورة النحل : 78

2 سورة المجادلة : 2

3 سورة الزمر : 6

4 سورة النجم : 32

5 سورة لقمان : 14

وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[1].

لأن الحمل الذي يدوم تسعة أشهر يربط علاقات بين الحاملة (الأم) وجنينها فيه تبادل دم وغذاء وحنان ومودة وصاحبة البويضة لها بذلك علاقة جينية مع الجنين تهدى له من الممتلكات الوراثية ما يظهر على خلقه من تشابه من ذكاء، من مرض، ...).فكيف .يقول البعض. نوفق بين طفل ينمو في رحم أمّ وفي نفس الوقت في قلب أخرى هذا مما يؤدّي إلى التمييز بين البعد العلا قي وبين البعد ألحميمي الجسدي للأمومة. إن الحمل هو زمن العلاقة الحميمة بين الأم وطفلها وزمن تفاعل لا مثيل له بين جسمين ولا نتصوّر حملا بدون ارتباط وعاطفة. يشكل التخلّي المتفق عليه بعقد من طرف الحاملة للغير انقطاعا في حياة وتاريخ الطفل وتشيء جسد المرأة. كما سوف يستوجب إعادة النظر في تعريف الأمومة، في مفهوم الأم ومفهوم الأب.

وفي الحقيقة كل تمييز بين أبعاد العلاقة العائلية سواء كانت بيولوجية أو اجتماعية أو عاطفية تعتبر انقطاعا في حياة الطفل.

كما تودّي هذه الطريقة في الإنجاب إلى ثورة فيما كان مألوفا مثل تمكين هذه الوسيلة حملا لنساء طعن في السن أكثر من 50 سنة (72 سنة في الهند – مرجع سابق)

كما سوف يؤدي ببعض النساء اللاتي لا تردن الحمل خوف المساس بجمالها أو خوفا من عملية الولادة إلى استئجار رحم ناتج من بيضة ملقّحة من الزوج الشرعي سواء بالطريقة الطبيعية أو خارج الرحم (في أنبوب)

هذه الوضعية خاصة عند المجتمعات التي تجيز تعدد الزوجات من المسلمين بحيث أن تعدد

[1] سورة الأحقاف : 15

الزوجات المسموح به شرعا يجعل من الزوجة السليمة الشرعية هي التي تهب رحمها لضرتها والفقهاء يلحّون على أن تكون الزوجة شرعية. كان المجمع الفقهي قد أجاز هذه الوسيلة كون المتطوعة بالحمل هي زوجة ثانية للزوج. وهذا الأسلوب أجيز من اقتراح الدكتور مصطفى الزرقا عليه رحمة الله.

ولكن سرعان ما تراجع المجمع عن رأيه معللا تراجعه بما يلي:

-إمكانية حمل توأم بمعاشرة متقاربة زمنيا بعملية التلقيح الاصطناعي

(بتلقيح طبيعي والآخر اصطناعي).

-وفي حالة توأم وحدث مكروه لأحد الجنينين سوف يحصل خلاف بين الزوجتين.

وعلى رأينا يمكن رد هذه الأسباب بما توصل إليه العلم:

- يكفي أن يمتنع الزوج عن معاشرة زوجته حتى يثبت الحمل وهذا يتطلب أسبوعين على أكثر تقدير.

- كما يمكن إلحاق المولود بأمه في حالة توأم بتحاليل الشفرة الجينية (ADN) التي تمكّن من إلحاق الطفل إلى أمه الحقيقية.

والأرجح الذي لا يرتقي إليه أدني شك هو الامتناع.

وهذا التردد أدى بعلماء مسلمين إلى طرح الجدل، مما يضع درائع للذين يبحثون عن أي شيء يريحون به ضمائرهم ومن هذا الجدل ما نُشر في جريدة الشرق الأوسط والذي جاء فيه :

'اندلعت معركة فقهية ساخنة في مصر تحولت الى حرب منشورات بين علماء دين وازهريين بسبب فتوى لعميد كلية اصول الدين وعضو اللجنة الدينية د. عبد المعطي بيومي . عميد كلية أصول الدين

بجامعة الأزهر، وعضو اللجنة الدينية بالبرلمان المصري . تجيز تأجير الامهات لأرحامهن، وهاجمتها بشدة جبهة علماء الازهر، في حين دعا شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي مجمع البحوث الاسلامية الى عقد اجتماع طارئ ظهر اليوم، لتحديد الموقف الشرعي من تأجير الأرحام.

وقد اجاز الدكتور عبد المعطي بَيُّومي قيام الأرامل والمطلقات بتأجير أرحامهن لزوجات أخريات لا يستطعن الانجاب، وأفتى بأن استئجار الرحم ليس نوعا من الزنى لأن الزنى بالمعنى الفقهي هو شيء آخر، وبالتالي لا ينطبق الاستئجار على مثل هذا التوصيف الفقهي لجريمة الزنى، ويدلل على ضرورة اجازة تأجير الأرحام الى وجود ضرورات تبيح هذه المحظورات وأن المطلقة أو الأرملة أو أية امرأة أخرى لن تؤجر رحمها إلا إذا كانت مضطرة."[1]

'ثم من الطرائف: (ومن جانبه يرى البرلماني د. بيومي أن الرحم مجرد حافظ أو حاضن يغذي الجنين ويحفظه تماما مثل طفل الانابيب وأخذ بويضة من هنا وحيوان من هناك ووضعهما في رحم آخر يساعد على تكوين الجنين، ويمكن شرعا أن يدفع أجر للأم البديلة لأن هذه العملية تماما مثل المرضعة التي ترضع طفلا بالأجر. ويشير الى أن الشريعة تجيز الرضاع بأجر وإذا تم قياس عملية الرحم البديل يكون متشابها ويكون الطفل والطفلة الشريكان في رحم واحد، احدهما ابن صاحبة الرحم والآخر ابن امرأة أخرى مزروع في رحم الأم الأولى في نفس منزلة الاشقاء من الرضاعة'[2]

ولكن يبقى التحفظ على مستوى الأخلاق لأن في هذه الحالة يُعتبر جسد المرأة آلةَ أو جهازا تقنيا والحمل للغير كوظيفة حتى ولو لم تُؤجر عليها 'صاحبة البطن المستعار'. وتبقى الأسئلة الأخلاقية

---

1 جريدة الشرق الأوسط ليوم الخميس 04 محرم 1422 هـ 29 مارس 2001 العدد 8157

2 نفس المرجع

والنفسية مطروحة. كيف يمكن لصاحبة البطن أن تعيش حملها؟ ما هو إحساسها عندما تتذكر أن ما في بطنها سوف يُؤخذ منها عند الولادة؟ وهل سوف تشعر بالحب الذي يصاحب عادة الحمل وينمو طيلة زمنه؟ لا في أغلب الظن لأنها سوف لاتعتبر نفسها حاملا بل عاملة. وفي الأخير الحمل هو بداية الأمومة. هل سوف تكون هذه المرأة أمّا حقيقية؟

3- الإستنساخ:

هو عملية تكوين كائن حي باستخدام خلايا غير جينية من خلايا الجسم ونقصد هنا بالخلايا الجينية الحيوان المنوي والبويضة. وهذا الكائن المتكون يكون مطابقا من حيث الجينات للحيوان المأخوذة منه الخلية الجسمية وتتم هذه العملية بالخطوات التالية:

- تؤخذ خلية جسمية من الكائن الحي الأول من أي محل من الجسم ويتم تفريغ هذه الخلية وفصل النواة المحتوية على المادة الجينية الكاملة أي 46 كروموسوما.

- يتم إدخال النواة من الكائن رقم 1 داخل البويضة المفرغة من النواة للكائن رقم 2 وبعد تعريضها لشحنات كهربائية يحدث انقسام في نواة الخلية ليتكون جنين جديد يكون نسخة طبق الأصل عن الكائن رقم 1 من ناحية التكوين الجيني. لكن من الخطأ الاعتقاد بان هذا التشابه هو 100% إذ أن هناك مادة جينية موجودة في المايتوكوندريا (mitochondries) الموجودة في بويضة الحيوان رقم 2 والتي قد تُغير من تركيبة الكائن الجديد وتحدث اختلافا بسيطا فيه.

وهذه التجارب لم تنتقل بعد إلى الإنسان وذلك بسبب القيود التي أوردناها سابقا والتي فرضتها المؤسسات الرسمية على هذه الأبحاث ولم يثبت لحد الآن، على ما نعلم، ما يدل على نجاح هذه

الأبحاث على الجنس البشري.[1]

ولم نسق هنا هذا النوع من العلاج إلا لكونه موضوع أبحاث المجامع العلمية الإسلامية عن إمكانية اللجوء إليه فيما إذا توصل العلم (وسيصل حتما) إلى نتائج إيجابية. ودليل ذلك المحاضرة التي تورد الأحكام التي أفتى بها صاحبها الدكتور كامل العجلوني يوم 30.5.2005 والتي آتت تعزيزاً للكتاب الذي أصدره ووزعه الدكتور بعد المحاضرة وعنوانه 'الاستنساخ بين العلم والأديان والمعتقدات'

'لقد ذهب العلماء والباحثون في هذه النازلة في مجال استنباط حكم شرعي إلى مذاهب قائلة إما بالتحريم أو بالإباحة. ومنهم من فصّل في ذلك. وبعيداً عن هذا الخلاف الفقهي نقول وبعد دراسة الموضوع:

-يجوز الاستنساخ في المجال النباتي والحيواني ما لم يؤد الاستنساخ إلى ضرر أو تشويه للإنسان أو الحيوان أو النبات نفسه أو البيئة. وهذا ما ذهب إليه الشيخ عبد الستار أبو غدة والشيخ محمد بن عثيمين والدكتور محمود السرطاوي وغيرهم.

- يجوز الاستنساخ بين زوجين بينهما حياة زوجية مشروعة قائمة. إن لم يجدا حلاً لمشكلة العقم لديهما إلاّ بهذه الطريقة. ويشترط لإباحة هذه العملية أن يكون الرحم والبويضة للزوجة والحيوان المنوي للزوج نفسه. وألا يشترك طرف ثالث في العملية. والدليل على ذلك أن الاستنساخ هنا هو علاج لمشكلة العقم. والعلاج مشروع لقوله صلى الله عليه وسلّم: 'إن الله أ حيث خلق الداء خلق الدواء. فتداووا'.

– يجوز نسخ الأعضاء. كأن يتم استنساخ أنف أو أذن أو جلد أو غير ذلك بقصد العلاج. وهذا

[1] أنظر الموقع الإلكتروني http://www.mhrde.com/fjm/

ما قاله الشيخ فريد نصر مفتي مصر السابق. ودليله دليل النقطة السابقة.

– لا يجوز نسخ الأموات (لو نجح العلماء في ذلك عملياً ووجه الحرمة هنا أن الحياة الزوجية منعدمة بين المرأة التي ستتولى عملية الاستنساخ. وبين الزوج المفترض. لأن الحياة الزوجية تنتهي بالوفاة عند الكثير من الفقهاء. وتنتهي عند انتهاء العدة عند آخرين. ولم يقل عالم باستمرارها بعد ذلك.

– في النقطة التي ذكرها الدكتور من أخذ الخلية من البنت والبويضة من أمها. فالحكم الشرعي في هذه العملية هنا هو الحرمة وذلك لاختلاط الأنساب. فمن جهة من هي أم هذا الكائن المستنسخ؟ هل هي صاحبة الخلية (البنت) أم صاحبة البويضة (الأم). (الرأي الذي يميل إليه الكثير من الباحثين أن الأم هي من تحمل وتلد. ونفترض هنا بأنها الأم صاحبة البويضة. ومن جهة ثانية. فالأب هنا ليس له علاقة بعملية الاستنساخ فلم يقدم شيئاً (لا خلية من جسمه. ولا حيوانات منوية) فكيف سننسب له مخلوقاً لا دور له في عملية تخليقه؟ وإذا أخذنا بالقاعدة الشرعية بأن الولد للفراش. أي ينسب الولد للزوج الذي تربطه بالزوجة رابطة الزواج الشرعي. فإننا، عملياً، قد ألحقنا بهذا الرجل نسباً مصطنعاً ينطبق عليه الحديث الشريف: 'أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء. وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عنه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين' [وقد فصلت الأمر في كتابي (أطفال الأنابيب بين العلم والشريعة. وكتابي: قبسات من الفقه والفكر الإسلامي)].

– تجب دراسة كل حالة عند إجراء العملية دراسة علمية طبية وأخذ الاحتياطات الطبية حتى لا تحدث تشوهات خلقية أو مضاعفات أخرى'.[1]

---

[1] محاضرة ألقاها الدكتور كامل العجلوني يوم 30.5.2005

قراءة النتائج وتحليلها

من البطاقات الموزعة وكان عددها 108 استلمنا 74 من عند 37 زوجا.

توزع الذين ملأوا البطاقات حسب مقر سكناهم كالتالي:

ولاية وهران (17 زوجا)

غليزان(7 أزواج)

تلمسان(7 أزواج)

المشرية (4 أزواج)

جنوب ولاية البيض. (زوجان).

نشير إلى أن المدن والقرى حيث يقطن المستجوبون تتوفّر على النقل لكون تمرّ بها الطرق الوطنية، وتتوفر بعضها على مستشفيات أو عيادات متعددة الخدمات، وأطباء مختصين والبعض الآخر، في جنوب ولايي البيض وجنوب ولاية النعامة وبدائرة سيدي امحمد بن علي بولاية غليزان لا تتوفر على أطباء مختصين في طب النساء. أما بنسبة مراكز الإنجاب المدعم طبيا فلا توجد إلا في وهران والعاصمة وعنابة والمدن الكبري وتبعد عن مقر المستجوبين (النعامة والبيض) بـ 400 كلم وأكثر. وهذا كان له وقع على الإجابات.

ولقد أجرينا بعض الحوارات عند إرجاع البطاقات لنستفسر عن سبب جواب من الأجوبة.

كانت أعمار المستجوبين تتراوح ما بين 26 سنة إلى 57 سنة، وكل الذين تعدت أعمارهم 45 سنة كانوا رجالا.

المستوى العلمي يتراوح ما بين المستوى الإبتدائي إلى المستوى الجامعي مع عدد كبير للذين زاولوا تعليما ثانويا. كما وجدنا إماما واحدا ملأ البطاقة وأربع طبيبات مختصّات. وكان مستواهن هو أعلى المستويات المذكورة.

لم يكن المستوى التعليمي مميزا بالنسبة للذين قالوا باللجوء الى ما لم يعترف به العلم مثل زيارة الأضرحة وحمل 'كتاب' والتعامل مع الطلبة والمعالجات. ولقد التقينا بعضهم بضريح سيدي قادة كما جاء في الفصل الثالث 'الدواء'.بل التي حاورناها كانت مغتربة مثقفة تحمل شهادة عليا.

كما لاحظنا أن الذين كانوا دون ال 35 سنة والمتعلمين هم الذين كانوا يلجؤون إلى الطب التقليدي ومن كانوا كبار السن (أكثر من 40 سنة) وجدناهم في العيادات، وأجوبتهم تظهر زياراتهم إلى الأطباء الرسميين. كما وجدنا آخرين كانوا يزورون الأضرحة والطبيب الرسمي في العيادات.

فسرنا اللجوء إلى الأضرحة والطالب والعشابين من طرف صغار السن بأنهم كانوا آملين في البرء لكونهم ما زال لهم فرص الإنجاب طبيعيا وحالة العقم هذه عابرة أو مسببة من فعل فاعل.

أ) **التأكد من العقم:**

كم سنة لم تنجب (تنجبي) ؟	2<22	سنة
هل كان لك طفل قبل هذه المدة؟	نعم	لا
	12	62
(إذا كان نعم هل هو مع الزوج الحالي)	10	2
هل سبق أن تزوجت (تزوجتي) بغير الزوج الحالي ؟	4	70
(إذا نعم ما سبب الفراق ؟ طلاق وفاة	**3**	**1**

مدة الانتظار (أو مدة العقم) كان من سنتين إلى 22 سنة.

23 زوجا كانت مدة الإنتظار للحمل سنتين . هذا يبين أن القلق جاء مباشرة بعد المدة التي يطمئن فيها الطبيب لكونها عادية. وكانت عمر هؤلاء الثلاثة والعشرين زوجا تتراوح ما بين 28 سنة إلى 45 سنة.

31 زوجا لم تكن لهم ذرية تماما وهذا ما سميناه في التعاريف بالعقم الابتدائي ونضيف إليهم رجلين تزوج كل واحد بامرأة كان لها طفل من زوج سابق. ولم تنجب كل واحدة من الزوج الثاني. وهذا يكون من أسباب إتهام الرجل بالعقر ولكنه عقر غير مؤكد عندنا و من الممكن جدا أن تكون هذه المرأة في حالة عقر ثانوي. ولكن هذه الوضعية تطمئنها نوعا ما في نظر العائلة والأقارب لكونها قد أنجبت من قبل. ومن الذين كان لهم ذرية امرأتان كان لكل واحدة منهما طفل مع زوج آخر. (حالة طلاق وحالة وفاة).

خمسة أزواج سبق لهم أن أنجبوا طفلا واحدا لكل زوج، ولم يتكرر الإنجاب رغم المحاولات وهذا ما سميناه بالعقم الثانوي.

ب)شعورك إزاء هذه الوضعية

كآبة	27
خوف	3
صبر	20
شعور بالذنب	17
شيء آخر أكتبه	///

من الكلمات التي تكررت عند المستجوبين:

- الكآبة (27), شعور بالذنب (17) , خوف (3).
- الصبر (20).

وهكذا يكون مجموع الشعور السلبي 52 (كآبة، شعور بالذنب، خوف).

20 مستوجبا عبروا عن صبرهم وإن كان سبعة منهم أرفقوه بالخوف، والصبر لا ينفي الشعور السلبي إلا أن ممن أجاب بالصبر لم يضف إلاّ الخوف في بطاقة الاستجواب.

تكررت كلمة الذنب والخطأ عددا يظهر مدى الشعور بالذنب عند المتسبب في العقم وأضافت

مستجوبة هذا الفقرة على ظهر البطاقة ارتأينا من المفيد أن نذكرها:

'لما أنا؟ ها هو ذنبي اتجاه ربي، أنا مؤمنة ... أشعر بالذنب ' إنه ذنبي أنا , ذنب جسدي. حتى علاقتي مع زوجي أصبحت مضطربة. كنا نحس أن علاقتنا كانت من أجل الإنجاب وكفى. لم تكن من أجلنا، من أجل حبنا. كانت علاقة بدون رغبة. كانت من أجل طفل ليس إلاّ.'

كما حاورنا زوجا عند إرجاع البطاقات وكانت تتكرر كلمتا 'الذنب' و'الخطأ' في كلام الرجل:

قال الرجل :' في البداية كنت متيقنا أن زوجتي هي السبب (مذنبة في مصطلحه 'لافوط') وقد قلتُ ه\ا لوالدتي، قلت لها أن زوجتي هي التي تعاني من شيء، من مشكل ما. وبعد الفحوص اتضح العكس للجميع.

قالت الزوجة : كان يظن زوجي أني أنا 'المريضة' وكان يبرره قناعته بوجود حالات لأي عائلتي. لم يخطر بباله أنه هو السبب.(هو المذنب) وكنت أخشى أن يتركني إن كان المشكل عندي أنا، ولكن الحمد لله، لست السبب.'

نلاحظ ارتياح المرأة عند تبريرها بالفحوصات ولم تتكلم كثيرا عن وضعية العقم وعدم الإنجاب. بطاقتا هذا الزوج تظهر زيارة المرأة إلى 'سيدي قادة' بمعسكر وترددها عند 'الطالب' بمفردها. أما الفحوصات الطبية فخضع لها الزوج.

موقف المحيط من وضعية العقم (العائلة ومعارف آخرون):

سخرية	5
شتم	4
تشجيع	15
لا أدري	51

سخرية (5) شتم (4) تشجيع (15)لا شيء ولا أدري (51)

- أضاف من أجاب بالشتم (وكلهن نساء) أنه كان صادرا من الحماة أو من أخوات الزوج. وبعض من أجاب السخرية اعترف انها ليست سخرية معبرا عنها علانية بل كانت تفهم من النظرات أو من طريقة الكلام أو تلميحا في هذا الموضوع وهذا قيل لنا عند إرجاع البطاقة وألح المستجوبون على التعليق بهذا الكلام. ومما يلاحظ أن النسوة هن اللواتي كن يتعرضن للشتم والسخرية المجهور بها. ولم نجد رجلا تعرض لهذا النوع من المعاملات. وهذا كان متوقعا لكون الرجل قادرا على الدفاع عن نفسه وقد لا كون مستغربا أن يكون ردّ فعله عنيفا.

أما الزوجة فلها الدموع لتواجه بها سوء معاملتها. وهذا ما باحت به امرأة والدموع تنهمر من مقلتيها. 'لا شيء ولا أدري' إجابتان حازتا على الأغلبية لهذا السؤال إلاّ أننا نشك في صراحة الجواب لأن العاقر معرضة في أغلب الأحيان إلى أذى لفظي، والحياء أو الخوف يمنعان من التعبير. كان التشجيع قليلا نوعا ما وهو في هذا السياق يعبر عن تفهّم المحيط.

ومن الملاحظات التي وجدت عند بعض الزوجات :

- دفع الزوج إلى الزواج بثانية كانت نصيحة الأصدقاء وأبوي الزوج و تكررت بعبارات مختلفة.

- تطليق الزوجة كانت نصيحة أم الزوج وأخواته. (حتي في حالة عقم الرجل المؤكد طبيا أضافت زوجة).

- لا يهمني إن كان هو العاقر. أنا لا أريد أن أعيد حياتي مع غيره. ما دام 'ربي ما جابش نصبر'

- نصحت امرأتان زوجيهما باتخاد زوجة ثانية إن رغبا في هذا. وكلتها العاقرات حسب الفحوصات و عمل زوج بهذه النصيحة وها هي لها ضرة تقول أنها راضية وسعيدة بالوضعية. لم تقل لنا الثانية إن كانت لها ضرة أو لم يعمل بالنصيحة و ربما كان الطلب حديثا ولم يطبق بعد وهو في مستوى المشروع.

ج) العلاج

عند التأكد من عدم الإنجاب هل لجأت (لجأتي) إلى علاج ؟	
مستشفى	4
طبيب خاص	36
طبيب تقليدي	38
زيارة ولي صالح	40
عشاب	
طالب للرقية	27

- لجأ 19 من الأزواج (كل النساء وستة رجال) إلى الطب التقليدي.

- وتقدم عشرون زوج إلى الفحوصات الطبية الرسمية.

- زارت 37 امرأة ضريحا ولم نجد إلا ثلاثة رجال وزوجاتهم لسن من الزائرات 37 ويحتمل أن الزوجات لم يصحبن أزواجهن والعكس صحيح.

- 15 امرأة و5 خمسة رجال لجأوا إلى رقية مقروءة[1] كما لجأ ت سبع نساء إلى رقية مكتوبة[2]

الطب الرسمي لم يحظ عند المستوجبين بمثل ما يحظى به الطب الشعبي. إذ كان المترددون على الطب الرسمي من المتعلمين الذين لا يستغنون عن الطب الشعبي.

اعترف لنا بعض من لجأ إلى الأضرحة و' الطالب' بلجوئهم إلى الطالب من أجل السحر. وأضافوا أنهم كانوا ضحية سحر ولا يمكن إبطاله إلا بسحر آخر.

لم يوجد من زار العشاب كمحترف، ولكن لجأ الكثير إلى تناول بعض الأدوية المكونة من الأعشاب.

يلاحظ أن النساء من اللواتي تترددن على الأضرحة و' الطالب' وهذا حتى ولو تأكدت مسؤولية الرجل في عدم الإنجاب أي أنه وجدت علة فيه أثناء الفحوصات تجعل منه عقيما. وحتى النساء الاتي لم تعانين من مانع للإنجاب يواصلن العلاج التقليدي ولكن لا يلجأن إلى الطبيب الرسمي. وعند استفسارنا عن هذه الظاهرة قالت بعضهن

---

1 عند استفسارنا عرفنا أنه ماء قرأ عليه طالب القرآن. ثم يشرب أو يغتسل به.

2 الرقية المكتوبة هي كتابة بعض الآيات القرآنية على ورق أو جلد أو معدن يحمله المرقي

'لما الزيارة للطبيب فإنه قال ما يعرف ولن يزيد شيء آخر. أما العلاج 'الرباني' فيمكن أن يأتي بنتيجة تكون المعجزة. والطبيب الرسمي يكفر عندما يقول لنا لن يكون لنا طفل. هو ربي؟'

شعورك من الإنجاب

هل ترى أن الإنجاب قضية مصيرية بالنسبة لك؟	26	48
هل ترى أن الإنجاب يرمز إلى السيادة والقوة؟	17	57
هل ترى أن الإنجاب يحقق الإستقرار العائلي؟	70	4
هل تشعر بالخجل نتيجة العقم؟	6	68
هل تنتابك أفكار بأن لافائدة منك؟	5	69

هذه النتائج تظهر أن وقع عدم الإنجاب لم تتغير إلاّ قليلا عبر الزمن. فلقد رأينا في الفصل الأول كيف كان يؤثر العقم على الإنسان.

إذ أجاب 16 أن الإنجاب مصيري، فأكثر من ثلاث أضعاف المستجوبين أي 58 لم يروا في الإنجاب قضية مصيرية. هذه النسبة لا تعكس ما هو في المجتمع الجزائري. ولكن لا ننسى أننا سألنا رجالا ونساء لم تكن لهم ذرية في أغلبهم. ولاريب أن يكون الجواب مغايرا إن كان السؤال موجها لأباء وأمهات وهذه الفئة هي التي تصنع الرأي العام نظرا لكثرتهم.

وعند كون الإنجاب يحقق الاستقرار العائلي فكانت النتيجة لا تحتمل نقاشا يرى 70 من 74 أن

ا لإنجاب يضمن الاستقرار. و القليلون (4) أجابوا بعبارة 'لا أظن'، ولعل ثمة أشياء أخرى لم يفصحوا عنها.

طبعا فبالنسبة للمرأة في الماضي ' لم يكن لها إلاّ الأمومة لتملأ فراغ حياتها الزوجية. إنجاب طفل من مهام وواجبات الزوجة... موقع المرأة يتعزز بالحمل ثم مع الوضع وخاصة إذا كان ما أنجبت ذكرا'[3].

إن وافق هذا الكلام لشروط الحياة الزوجية فإننا نظن أن المرأة العصرية لها ما تملأ به حياتها في عصرنا هذا نظرا لكثرة المشاغل، ووفرة وسائل الترفيه، والتسلية على اختلاف طبيعتها.

3 Naamane Guessous Soumaya : Au-delà de toute pudeur, la sexualité au Maroc p 105 Casablanca Eddif 1988

الإنجاب المدعم طبيا:

د) الإنجاب المدعم طبيا (التلقيح الاصطناعي)

هل تنوي اللجوء إلى التلقيح الاصطناعي	نعم	لا	لا أعرف
	44	8	22

نصيحة العائلة	34
نصيحة الأصدقاء	6
قرار الزوج	1
قرار الزوجة	3

22 زوجا أجابوا بنعم ووجدنا 9 أزواج منهم في مركز 'المولود' بوهران. كما أن أحصينا 11 زوجا لم يتخذوا القرار بعد، والباقي أي 4 أزواج لم تكن لهم نية اللجوء لهذا النوع من التطبيب رغم النصائح الملحة الموجه لهم.

إن وافق المترددون –ولقد التمسنا عندهم رغبة غير معلنة– سوف يكون 33 زوجا أي 66 شخصا (أكثر من 89 بالمئة) من الذين يروا في الحل التكنولوجي وسيلة للإنجاب وهذا يعني تطور كبير في سلوكات الجزائري.

17 زوجا أجابوا بان هذه الفكرة كانت من نصيحة العائلة (10 من عائلة الزوجة وسبعة من عائلة الرجل) وهؤلاء السبعة أزواج كلهم من نصيحة عائلة الرجل.

تلقى خمسة أزواج نصيحتهم من عائلة الزوجة.

ثلاثة أزواج نصحهم أصدقاء.

وقرر زوج واحد اللجوء الى التلقيح الاصطناعي.

وكان عدد الأزواج الذين اتخذت زوجاتهم القرار للجوء إلى الإنجاب المدعم طبيا ثلاثة.

يستخلص من هذه النتائج أن دور العائلة حاسم في اتخاذ القرار عندما يتعلق الأمر ببقاء إسم العائلة.

ومن قال إن فكرة اللجوء إلى هذه التكنلوجية من أجل الإنجاب لم تراوده أرجع السبب إلى حرمة الوسيلة. وعددهم أربعة أزواج (نساء ورجال). وتسالنا إن لم يكن الأزواج قد أشتركوا في ملء البطاقات، وكنا قد أوصينا بأن يملأ كل زوج بطاقته بمعزل عن غيره، فما دامت البطاقة لا تحمل أسماء فهي مجهولة لكوننا قد جعلنا وضع الإسم اختياريا. ومنهم من أرجع سبب عدم اللجوء إلى هذه الوسائل التقنية إلى تكلفتها الباهظة كما هو الحال بالنسبة للذي أرفق بطاقته بتقرير (الملحق 2) والسفر إلى خارج الوطن في بعض الأحيان يتطلب مالا كثيرا ما كان يفتقر إليه الناس.

يتجلى من قراءة الأجوبة أن الوازع الديني حان حاضرا عند جل المستجوبين. ولقد درسنا في فصل 'الداء' وفصل 'الدواء' بعض المعطيات المتعلقة بالدين سواء في جانب أسباب العقر أو من جانب التخلص منه. يعتقد حسب الأجوبة أن العقر من قدر الله أو من غضبه المفترض كما ترسخت قناعة أن الإنجاب وهبة من الله. ولعل هذه القناعات هي التي تكون المرجعية للبحث عن الدواء بما له صلة بالدين (رقية، زيارة أضرحة ...).

تظهر النتائج ثقة عدد كبير من المستجوبين (40) في الطب الرسمي والطب المدعم طبيا لنجاعته مقارنة بالوسائل الأخرى. ويستخلص من هذا أن المجتمع الجزائري يتطور نوعا ما ويثق أكثر في العلم على حساب المعتقدات ويفضل الحداثة على حساب التقليد. ولكن كان السؤال "هل تنوي ... " والواقع مغاير فإن الوسائل التقليدية والمعتقدات مازال لها مستقبل كما يظهر في الأجوبة، إما بكون هاته الوسائل مكملة أو وسائل لا مفر منها لكون الطب الرسمي بعيد المنال لتكلفته المرتفعة.

إن المنطق الرّمزي الذي يتجلي من خلال التحليل والوصف الذين انتهجناهما في هذا البحث يكوِّن كلاّ متكاملا ممفصلا حول جدلية بين التمسّك بتقاليد لها جذورها في الأزمنة الغابرة وبين أملِ انتشار سلوكات عصرية في مجتمع لا يريد أن يُطلِّق تراثه ولا يستطيع أن يدفع ما هو آت في المستقبل.

ولاستيعاب هذا المنطق في شموليته سوف نختم بقراءة عرضية لأهمّ التحاليل سابقة الذكر.

تُؤكِّد هذه المنهجية على الصعوبة المتصلة بالصفة الخطِّية بالخطاب الأنثروبولوجي وخاصة لطبيعة موضوعنا، لأن العقم عاهة وليس مرضا في اعتقادنا. لأنه من البني الاجتماعية والتكفل به واجبٌ اجتماعي فردي ومؤسساتي. تكوّن وظيفة الإنجاب للمرأة والرجل. بالمفهوم البيولوجي. البقاء والتواصل. بالمفهوم الاجتماعي. لهذه الوظيفة لها من القِدَم عمر البشرية ولها من الآلام النفسية ومن التأثير ما لا يمكن إنكاره. وإذا انعدمت دفعت الإنسان إلى البحث للتغلب على العاهة باللجوء إلى المقدّس والمدنّس.

يتكون هذا المقدّس من كل المؤسسات غير الرسمية والتي لها علاقة بالدين. فمن الأمل إلى الاستسلام يظهر الخالق (أو ما يمثله في اعتقاد العامة). فهو متواجد في الدعاء ومتواجد عند 'الطالب' الراقي وهو موجود عند ضريح الولي الصالح وهو موجود بين طيات الطلسم المعلق كما هو موجود عند الاستسلام إليه بحيث أنه هو الذي 'يجعل من يشاء عقيما' وهذا في قمّة المقدس. إلاّ أن الولوج إلي حقل المقدس لم تثبت نجاعته حتى ولو اعتقد ممارسه أن الفشل له ما يبرره من غياب النية[1]

[1] النية هي هيئة نفسية للإعتقاد المطلق والخالص في الشيء وتضمن نجاعة الدواء. فهي كذلك الصفة الكاملة في الشيء. يجب التمييز بين هذه النية وما يعبر عنه بالنية في الكلام الشعبي والذي يعني السذاجة والنية الشرعية التي تشترط في بداية كل عبادة. إن النية تجعل من العاقر مشاركة ناشطة في العملية العلاجية.

أو عدم تطبيق الصفات المؤدية إلى النتائج المرجوة. وعند الفشل لا يتردد المرء في الانتقال إلى 'المدنس' أي الحقل الرسمي الذي وصفناه سابقا.

ويصل المدنس إلى ضرب بعض الثوابت لأمة مسلمة متمسكة بأخلاق كرّسها الدين والمجتمع، ليلجأ العاقر إلى أرقى التكنولوجيات لتصويب 'العطب'.

ولكن لم تتفش في هذا المجتمع الذي ندرسه بعض تكنولوجيات الإنجاب نظرا للحواجز الملقاة بين إمكانياتها وتطبيقاتها. وفي هذا الصدد يقول جاك تيستارت 'يجب أن نرفض بعض الممكنات وسنتعرّف عليه (هذا البعض الواجب رفضه) من خلال الضجيج القوي الذي يُحدثه والإزعاجات المتوقع في النسيج الذهني والثقافي والسياسي'.[1]

أصبحت وضعيات حمل الأم لابن بنتها أو امرأة تنجب ابن أب مجهول أو رجل يصير أبا لأطفال لن يعرفهم ولا ينتظر أن يلتقي بهم. أمهات سوف 'تأوين' أطفالا لامرأة أخرى وأطفالا سوف يولَدون سنوات بعد وفاة أمهاتهم أو آبائهم من الممكن علميا ووقعت في بعض الأحيان وأطلعتنا الصحف ووسائل الإعلام عن حدوثها وما انجرّ عنها من قضايا بالعدالة.

كما سوف ينتج تحولات ثقافية من هذه التكنولوجيات وتقع انقلابات في أصل التكاثر البشري وتغييرات في المعالم المؤسِّسة للشخص كالهوية والبُنُوّة والأمومة والأبوية والحياة والموت. كما سوق تنجرّ عمليات تجارية من هذه التكنولوجيات من بيعِ حيوانات منوية مجمّدة وبويضات واستئجار أرحام. ونحن نتساءل عما يحسه الوالدان بعد ما أنجبا'طبيا' طفلا يعني بعد ما نجحت عملية

---

1 Jacques Testard : *Procréation et Manipulations du vivant*, p 87 Éd. France Loisirs, 2000

الإخصاب المدعم. هل تغيرت حالة العقم أم بقي الزوج (المرأة والرجل) على حالتهما الأولى أي امرأة عاقرا أو رجل عاقر. وهل يكون شعور الأبوين بهذه الطريقة هو نفس الشعور الذي ينتاب والدين أنجبا طبيعيا؟

إن كان مجتمعُنا آخذا بضوابط الدين والأخلاق فسوف يتأثّر حتما بجوار ما يصنع حوله، وبدأنا نلاحظ من يلجأ إلى العمليات التي حرّمها الإسلام وهذا ببلدان تسمح قوانينُها الوضعية بتجاوز ما هو محظور في الجزائر. وهذه البلدان تجيز تلك العمليات حتى للأزواج غير الشرعيين وأزواج الأمثال بالرغم من حظر الدين المسيحي السائد في الغرب. نتج عن هذين الموقفين (الحرمة والإباحة) المتناقضين والمتنافسين جدل كثير مما أدى إلى حرب إيديولوجية تقابل أنصار الأخلاق الصارمة والمقننة وهو قمة المقدس وأنصار الحريات المطلقة الذين أجبروا أولى الأمر لدولهم على سن قوانين تبيح ممارساتهم وهو أسفل المدنس.

ولاشكّ أن السرعة في تطوّر التكنولوجيات هو مصدر التذبذب في طبيعة الأخلاق والممارسات والتطبيقات السياسية والمجتمعية.

يمكن أن نستخلص أن للإنسان الحق في التداوي وله الحق في اختيار نوع العلاج إلاّ أن حقَّ المولود في هوية وفي معرفة أصله يظل قائما.

وبالتالي احترام حدود المجتمع بمركباته (دين. أخلاق) ضروري ليبقى العلم والتكنولوجيا في خدمة الإنسان كما يجب أن يكون همُّ سعادة الطفل المنتظر. في مركز التفكير وتقييم المشروع العلاجي الذي يقْدِم عليه الأبوان الشرعيان اللذان يعانيان من عدم الخصوبة. يُؤدى هذا إلى أن تؤسس البشرية أخلاقا حياتية (bioéthique) وتثار مسائل هذه الأخلاق في فترة من حياة الإنسان سواء كانت

في بدايتها بالولادة وفي نهايتها بالوفاة[1] أو أثناها في الحياة اليومية.

كما يكون سياق الأخلاق الحياتية في جل الأحيان طبيا ولا يجب أن نغفل أن الحياة. وإن كانت تخصّ الشخص. تتعدّى إلى العلاقات بين الأشخاص وبين المجتمعات.

أن يولد الشخص فهذا يعني أنه يدخل في شبكة ترابط وفي هيكلة عائلية أي أن يكون ابنا أو بنتا. وأن ينجب الإنسان فهذا يعني أن يكون أبا أو أمّا.

إذا كلما ولد الإنسان فهذا نتيجة اتحاد جسمين (أو خليتين) ويكون مشحونا بمدلول وبقيم.

وإن كانت الروابط هي التي تؤسس الأخلاق الحياتية يجب أن نعتبرها هي الأخرى كرابط اجتماعي للحفاظ على قاعدة أنثروبولوجية.

[1] أنظر رسالتنا لنيل شهادة الماجستير 'الإجهاض وقتل الرحمة' للمزيد عن الأخلاق الحياتية.

ملحق 1

التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب

إضافة رجب 1427 هـ

قرارات مجمع الفقه برابطة العالم الإسلامي

القرار الثاني

في الدورة السابعة سنة 1404 هـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي قد نظر في الدراسة التي قدمها عضو المجلس مصطفى أحمد الزرقاء.

حول التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب

الأمر الذي شغل الناس وكان من أبرز قضايا الساعة في العالم.

واستعرض المجلس ما تحقق في هذا المجال من إنجازات طيبة توصل إليها العلم والتقنية في العصر الحاضر لإنجاب الأطفال من بني الإنسان ، والتغلب على أسباب العقم المختلفة المانعة من الاستيلاد.

وقد تبين للمجلس من تلك الدراسة الوافية المشار إليها أن التلقيح الاصطناعي بغية الاستيلاد بغير الطريق الطبيعي – وهو الاتصال الجنسي المباشر بين الرجل والمرأة – يتم بأحد طريقين أساسيين:

-طريق التلقيح الداخلي: وذلك بحقن نطفة الرجل في الموقع المناسب من بطن المرأة.

-وطريق التلقيح الخارجي : بين نطفة الرجل وبويضة المرأة في أنبوب اختبار ، في المختبرات الطبية ، ثم زرع البويضة الملقحة (اللقيحة) في رحم المرأة.

- ولابد في الطريقين من انكشاف المرأة على من يقوم بتنفيذ العملية

وقد تبين لمجلس المجمع من تلك الدراسة المقدمة إليه في الموضوع ، ومما أظهرته المذاكرة والمناقشة ، أن الأساليب التي يجرى بها التلقيح الاصطناعي بطريقيه الداخلي والخارجي لأجل الاستيلاد هي سبعة أساليب بحسب الأحوال المختلفة ، للتلقيح الداخلي فيها أسلوبان ، وللخارجي خمسة من الناحية الواقعية (بقطع النظر عن حلها أو حرمتها شرعاً)، وهي الأساليب التالية:

في التلقيح الداخلي

الأسلوب الأول:

أن تؤخذ النطفة الذكرية من رجل متزوج وتحقن في الموضع المناسب داخل مهبل زوجته أو رحمها حتى تلتقي النطفة التقاءً طبيعياً بالبويضة التي يفرزها مبيض زوجته ، ويقع التلقيح بينهما ثم العلوق في جدار الرحم بإذن الله كما في حالة الجماع.

وهذا الأسلوب يلجأ إليه إذا كان في الزوج قصور لسبب ما عن إيصال مائهِ في المواقعة إلى الموضع المناسب.

الأسلوب الثاني:

أن تؤخذ نطفة من رجل وتحقن في الموقع المناسب من زوجة رجل آخر حتى يقع التلقيح داخليا ،

ثم العلوق في الرحم كما في الأسلوب الأول.

ويلجأ إلى هذا الأسلوب حين يكون الزوج عقيما لا بذرة في مائه ، فيأخذون النطفة الذكرية من غيره.

في طريق التلقيح الخارجي

الأسلوب الثالث:

أن تؤخذ نطفة من زوج ، وبويضة من مبيض زوجه ، فتوضعا في أنبوب اختبار طبي بشروط فيزيائية معينة ، حتى تلقح نطفة الزوج بويضة زوجته في وعاء الاختبار، ثم بعد أن تأخذ اللقيحة بالانقسام و التكاثر تنقل في الوقت المناسب من أنبوب الاختبار إلى رحم الزوجة نفسها صاحبة البويضة، لتعلق في جداره وتنمو ويتخلق كل الجنين.

ثم في نهاية مدة الحمل الطبيعية تلده الزوجة طفلا أو طفلة ، وهذا هو طفل الأنبوب الذي حققه الإنجاز العلمي الذي يسره الله ، وولد به إلى اليوم عدد من الأولاد ذكوراً وإناثاً وتوائم تناقلت أخبارهم الصحف العالمية ووسائل الإعلام المختلفة.

ويلجأ إلى هذا الأسلوب الثالث عندما تكون الزوجة عقيما بسبب انسداد القناة التي تصل بين مبيضها ورحمها (قناة فالوب).

الأسلوب الرابع:

أن يجرى تلقيح خارجي في أنبوب الاختبار بين نطفة مأخوذة من زوج وبويضة مأخوذة من مبيض امرأة ليست زوجته (يسمونها متبرعة) ثم تزرع اللقيحة في رحم زوجته.

ويلجأون إلى هذا الأسلوب عندما يكون مبيض الزوجة مستأصلا أو معطلا، ولكن رحمها سليم قابل لعلوق اللقيحة فيه.

الأسلوب الخامس:

أن يجرى تلقيح خارجي في أنبوب اختبار بين نطفة رجل و بويضة من امرأة ليست زوجة له (يسمونهما متبرعين)، ثم تزرع اللقيحة في رحم امرأة أخرى متزوجة.

ويلجأون إلى الأسلوب عندما تكون المرأة المتزوجة التي زرعت اللقيحة فيها عقيما بسبب تعطل مبيضها لكن رحمها سليم وزجها أيضا عقيم ويريدان ولداً.

الأسلوب السادس:

أن يجرى تلقيح خارجي في وعاء الاختبار بين بذرتي زوجين ، ثم تزرع اللقيحة في رحم امرأة تتطوع بحملها.

ويلجأون إلى ذلك حين تكون الزوجة غير قادرة على الحمل لسبب في رحمها ، ولكن مبيضها سليم ومنتج،أو تكون غير راغبة في الحمل ترفهاً ، فتتطوع امرأة بالحمل عنها.

الأسلوب السابع:

هو السادس نفسه إذا كانت المتطوعة بالحمل هي زوجة ثانية للزوج صاحب النطفة، فتتطوع لها ضرتها لحمل اللقيحة عنها.

وهذا الأسلوب لا يجري في البلاد الأجنبية التي يمنع نظامها تعدد الزوجات ، بل في البلاد التي تبيح هذا التعدد.

هذه هي أساليب التلقيح الاصطناعي الذي حققه العلم لمعالجة أسباب عدم الحمل.

وقد نظر مجلس المجمع فيما نشر وأذيع أنه يتم فعلا تطبيقه في أوربا وأمريكا من استخدام هذه الإنجازات لأغراض مختلفة، منها تجاري ، ومنها ما يجري تحت عنوان تحسين النوع البشري، ومنها ما يتم لتلبية الرغبة في الأمومة لدى نساء غير متزوجات لا يحملن بسبب فيهن، أو في أزواجهن ، وما أنشئ لتلك الأغراض المختلفة من مصارف النطف الإنسانية التي تحفظ فيها نطف الرجل بصورة تقنية تجعلها قابلة للتلقيح بها إلى مدة طويلة ، وتؤخذ من رجال معينين أو غير معينين؛ تبرعا أو لقاء عوض ، إلى آخر ما يقال اليوم في بعض بلاد العالم المتمدن.

هذا ، وإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي، بعد النظر فيما تجمع لديه من معلومات موثقة، مما كتب ونشر في هذا الشأن ، وتطبيق قواعد الشريعة الإسلامية ومقاصدها لمعرفة حكم هذه الأساليب المعروضة و ما تستلزمه، قد انتهى إلى القرار التفصيلي التالي:

أولا: أحكام عامة:

1- إن انكشاف المرأة على غير من يحل شرعاً بينها وبينه الاتصال الجنسي لا يجوز بحال من الأحوال ؛ إلا لغرض مشروع يعتبره الشرع مبيحا لهذا الانكشاف.

2- إن احتياج المرأة إلى العلاج- من مرض يؤذيها ، أو حالة غير طبيعية في جسمها تسبب لها إزعاجاً - يعتبر غرضا مشروعاً يبيح لها الانكشاف على غير زوجها لهذا العلاج ، وعندئذ يتقيد ذلك الانكشاف بقدر الضرورة.

كلما كان انكشاف المرأة على غير من يحل بينها وبينه الاتصال الجنسي مباحاً لغرض مشروع، يجب أن يكون المعالج امرأة مسلمة إن أمكن ذلك، وإلا فامرأة غير مسلمة، وإلا فطبيب مسلم ثقة، وإلا فغير مسلم، بهذا الترتيب.

ثانياً: حكم التلقيح الاصطناعي:

1- إن حاجة المرأة المتزوجة التي لا تحمل، وحاجة زوجها إلى ولد تعتبر غرضاً مشروعاً يبيح معالجتها بالطريقة المباحة من طرق التلقيح الاصطناعي.

2- إن الأسلوب الأول: والذي تؤخذ فيه النطفة الذكرية من رجل متزوج ثم تحقن في رحم زوجته نفسها في طريقة التلقيح الداخلي، هو أسلوب جائز شرعاً بالشروط العامة الأنفة الذكر، وذلك بعد أن تثبت حاجة المرأة لهذه العملية لأجل الحمل.

3- إن الأسلوب الثالث: الذي تؤخذ فيه البذرتان الذكرية والأنثوية من رجل وامرأة زوجين أحدهما للآخر، ويتم تلقيحها خارجياً في أنبوب اختبار، ثم تزرع اللقيحة في رحم الزوجة نفسها صاحبة البويضة، هو أسلوب مقبول مبدئياً في ذاته بالنظر الشرعي، لكنه غير سليم تماماً من موجبات الشك فيما يستلزمه، ويحيط به من ملابسات، فينبغي ألا يلجأ إليه إلا في حالات الضرورة القصوى وبعد أن تتوفر الشرائط العاملة الآنفة الذكر.

4- إن الأسلوب السابع: الذي تؤخذ فيه النطفة والبويضة من زوجين، وبعد تلقيحهما في وعاء الاختبار تزرع اللقيحة في رحم الزوجة الأخرى للزوج نفسه، حيث تتطوع بمحض اختيارها بهذا الحمل عن ضرتها المنزوعة الرحم، يظهر لمجلس المجمع أنه جائز عند الحاجة وبالشروط العامة المذكورة.

(سيأتي تراجع المجمع عن إقرار هذا الأسلوب)

5- وفي حالات الجواز الثلاث يقرر المجمع أن نسب المولود يثبت من الزوجين مصدر البذرتين، ويتبع الميراث والحقوق الأخرى ثبوت النسب، فحين يثبت نسب المولود من الرجل أو المرأة يثبت الإرث وغيره من الأحكام بين الولد ومن التحق نسبه إليه.

أما الزوجة المتطوعة بالحمل عن ضرتها، في الأسلوب السابع المذكور، فتكون في حكم الأم الرضاعية للمولود؛ لأنه اكتسب من جسمها وعضويتها أكثر مما يكتسب الرضيع من مرضعته في نصاب الرضاع الذي يحرم به ما يحرم من النسب.

6- أما الأساليب الأربعة الأخرى من أساليب التلقيح الاصطناعي في الطريقين الداخلي والخارجي مما سبق بيانه:

فجميعها محرمة في الشرع الإسلامي

لا مجال لإباحة شيء منها

لأن البذرتين الذكرية والأنثوية فيها ليستا من زوجين، أو لأن المتطوعة بالحمل أجنبية عن الزوجين مصدر البذرتين.

هذا ، ونظراً لما في التلقيح الاصطناعي بوجه عام من ملابسات حتى في الصورة الجائزة شرعاً ، ومن احتمال اختلاط النطف أو اللقائح في أوعية الاختبار ، ولا سيما إذا كثرت ممارسته و شاعت ، فإن مجلس المجمع ينصح الحريصين على دينهم ألا يلجأوا إلى ممارسته إلا في حالة الضرورة القصوى،و بمنتهى الاحتياط والحذر من اختلاط النطف أو اللقائح.

هذا ما ظهر لمجلس المجمع في هذه القضية ذات الحساسية الدينية القوية من قضايا الساعة ، ويرجو من الله أن يكون صوابا.

والله سبحانه وتعالى أعلم وهو الهادي إلى سواء السبيل وولي التوفيق.

القرار الثالث

في الدورة الثامنة سنة 1405هـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته الثامنة المنعقدة بمقر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في الفترة من يوم السبت 28 ربيع الآخر 1405 هـ إلى يوم الإثنين 7 جمادى الأولى 1405 هـ، الموافق 19 - 28 يناير 1985 م، قد نظر في الملاحظات التي أبداها بعض أعضائه حول ما أجازه المجمع في الفقرة الرابعة من البند الثاني في القرار الخامس المتعلق بالتلقيح الصناعي وطفل الأنابيب ، الصادر في الدورة السابعة المنعقدة في الفترة ما بين 11- 16 ربيع الآخر 1404 هـ ونصها:

(إن الأسلوب السابع: الذي تؤخذ فيه النطفة والبويضة من زوجين ، وبعد تلقيحها في وعاء الاختبار تزرع اللقيحة في رحم الزوجة الأخرى للزوج نفسه ، حيث تتطوع بمحض اختيارها بهذا الحمل عن ضرتها المنزوعة الرحم ، يظهر لمجلس المجمع أنه جائز عند الحاجة وبالشروط العامة المذكورة).

ملخص الملاحظات عليها:

إن الزوجة الأخرى التي زرعت فيها لقيحة بويضة الزوجة الأولى قد تحمل ثانية قبل انسداد رحمها على حمل اللقيحة من معاشرة الزوج لها في فترة متقاربة من زرع اللقيحة ثم تلد توأمين ، ولا يعلم ولد اللقيحة من ولد معاشرة الزوج، كما لا تعلم أم ولد اللقيحة التي أخذت منها البويضة من أم ولد معاشرة الزوج!

كما قد تموت علقة أو مضغة أحد الحملين ولا تسقط إلا مع ولادة الحمل الآخر الذي لا يعلم أيضاً أهو ولد اللقيحة أم حمل معاشرة الزوج!

ويوجب ذلك من اختلاط الأنساب لجهة الأم الحقيقية لكل من الحملين، والتباس ما يترتب على ذلك من أحكام..

وإن ذلك كله يوجب توقف المجمع عن الحكم في الحالة المذكورة.

كما استمع المجلس إلى الآراء التي أدلى بها أطباء الحمل والولادة الحاضرين في المجلس، والمؤيدة لاحتمال وقوع الحمل الثاني من معاشرة الزوج في حاملة اللقيحة، واختلاط الأنساب على النحو المذكور في الملاحظات المشار إليها.

وبعد مناقشة الموضوع وتبادل الآراء فيه قرر المجلس:

سحب حالة الجواز الثالثة المذكورة في الأسلوب السابع المشار إليها

من قرار المجمع الصادر في هذا الشأن في الدورة السابعة عام 1404 هـ.

وأعاد المجمع صياغة القرار ليصبح كالقرار السابق مع حذف الأسلوب السابع في طريق التلقيح الخارجي.

ملحق 2

بسم الله الرحمن الرحيم

تجربتي مع العقم

- 31 أكتوبر 1996 : تزوجت بامرأة أحببتها واخترت أن تكون رفيقة لي في الحياة تشاركني أفراحها وأحزانها وأنا الآن أدعو الله أن تكون رفيقتي في الجنة أيضا.

وددت أنا و زوجتي كأي عروسين شابين في مقتبل العمر الاستمتاع بحياتنا العاطفية والجنسية طبعا وعيش أحلام الشباب كما كنا نتصورها من خلال القصص و الأفلام والمسلسلات التي كانت تغزو عقولنا وقتذاك –

الحمد لله نحن الآن نتصور حياتنا من خلال قرآن ربنا وسنة نبينا ولله المنة و الفضل –

فأخذت زوجتي حبوب منع الحمل ثلاثة أشهر بموافقة مني وعلى غير علم من أهلها بطبيعة الحال.

- جانفي 1997: تغلبت عاطفة الأم المكنونة على أحلام الشابة المجنونة زد على ذلك السؤالات المتكررة ممن تعرف وممن لا تعرف.استفسارات الأم و الأخت والحماة والصديقة :'يادرا؟'أو مازال مكان والو ؟' أو ماتجيبولناش غريان؟

ولا انتوماقور ؟ تحت مطارق الأسئلة وإلحاح الأمومة على الزوجة والأبوة التي بدأت أحس و أفكر فيها.

ذهبنا الى طبيب مختص في أمراض النساء و التوليد .

طلب مني أن أجري تحاليل على المني SPERMOGRAMME.

وأعطى الزوجة علاجا هرمونيا منشطا لعمل المبيضين 'CLOMID'OVESTIN' كما هو الحال عند كثير من أطباء النساء .

النتيجة :

سبارموغرام جيد من حيث عدد النطف وحركتها (Nombre et mobilité).

*تأخذ الزوجة هذه الحبوب وتراقب كل يوم درجة حرارتها بالمحرار الإلكتروني عند اليقظة من النوم مع ما في استعماله من حرج .

تسجل النتائج على ورقة ملمترية أعطاها الطبيب إياها (GRAPHE) et (COURBE).

وصية الطبيب (بل أوامره)

بمجرد ارتفاع درجة الحرارة فوق 37°C عليكم بممارسة العملية الجنسية ابتغاء الولد. فان ارتفاعها علامة أن البويضة جاهزة للتخصيب. يمر الشهر و الشهران والثلاثة والأربع ولا شيء في الرحم والعادة الشهرية تنتصر في كل مرة.

الزوجة تبكي وتنهمر دموعها والزوج يجفف دموعها ويضيق بها ذرعا أحيانا ،لكنه يخفي ذلك في أعماقه رعاية لمشاعرها – طبعا هذا قبل أن يهدينا الله الى ما نحن فيه الآن – والزوجة تحس ذلك من زوجها وتسأله فيجيبها مطمئنا ' لا يفرق بيننا إلا الموت '.

بعد عام من الزواج : لا أحدثك عن الأسئلة المملة ولا النظرات المستفهمة ولكني سأحدثك عن الطبيب و أحاديث الطبيب. هذه المرة يطلب منها أن تجري راديو (ايستيروغرافيا) هذه الراديو تصور الرحم والمواسير.

النتيجة :

الحمد لله الرحم سليمة ليس بها شيء.

والمواسير مفتوحة تستطيع النطفة أن تمر منها إلى البويضة دون

لكن ما العمل ؟

تمر الشهور والعادة الشهرية دائما ترصدنا – نحاول طب الأعشاب : تحاميل وزعتر لكن بدون جدوى.

لا أخفي أنني قبل أن يأخذ الله بيدي إليه ،فكرت في الزواج مليا ،إلا أن حبي لزوجتي وشفقتي عليها وتفكيري في مستقبلها ،حال دون ذلك.

لكن بعد ثلاث سنوات من زواجي أو أكثر –لا أتذكر بالضبط –ومنذ أن انهمكت في شراء كتب الدين والشريعة، والتفقه في كتاب الله الجليل بدأت أشعر يوما بعد يوم أن الله يرحمني بهذا الابتلاء وأنه منعني إلا ليعطيني وأنه يهيئني

لأمر هو أفضل من الولد .هذا ما أحس به في أعماقي . وأنا يوما بعد يوم أحس حلاوة الرضا وبرد اليقين ونعمة الشكر .فلله الحمد والمنة. وأن الله لو كشف لنا ستار المخبوء لما جزعنا مما يقضيه لنا فانه حكيم وبنا رحيم .كذلك بالنسبة للزوجة .

مارس 2004 : بطلب الطبيب نفسه 'بن دحمان' إجراء راديو ' سيليوسكوبي ' وهو عبارة عن صورة إشعاعية تجرى

في بطن المرأة طبعا باستعمال البنج.

ثمن هذه العملية 40.000دج.

أجرت الزوجة العملية في عيادة 'قارة' بمستغانم في 04 مارس 2004 .

النتيجة :

نفس نتيجة ' الايستيروغرافيا ' رحم سليمة ومواسر مفتوحة.

وهدية من الطبيب :شريط فيديو نتفرج فيه على العملية

وتمر الشهور بعد هذه العملية والعادة الشهرية لا تخطئ وقتها إلا قليلا.

فقد تتأخر أياما لتضحك منا وتتلاعب بمشاعرنا المرهفة وليخيل إلينا أن الولد قد أتى ولكنه السراب المخادع الذي إذا وصل إليه الضمآن لم يجده شيئا.

لا أنسى أن أذكر بعض الحوادث الهامشية .

كان كل من يمن الله عليه بعمرة يأتينا بأعشاب طبية فيما يزعمون (**عشبة مريم**) ويحاول جاهدا أن يقنعنا أنها نافعة وأن فلانة جربتها فحملت لشهرها ولكن زوجتي تجربها ولا تحمل لشهرها للأسف.

لكن على كل حال نشكر لهؤلاء اهتمامهم بنا ودعاءهم لنا على العكس من بعض الأقارب أو النساء اللواتي كن يخفينا أولادهن من زوجتي خشية أن يصابوا بسوء جراء عينها فيما يعتقدن .

بل وصل الأمر إلى أن غريبة لا نعرفها اتصلت بزوجتي هاتفيا وعيرتها بكلمة (عاقرة) القا ليست كالقاف. إنها أشد ألما وتعبيرا عن الغل الذي تحمله بعض القلوب المريضة.

2006- يخبرني أحد المعارف أن في وهران في حي مارافال عيادة طبية متخصصة اسمها CLINIQUE MAWLOUD وأنها تجري ما يسمى بالتوليد بالمساعدة الطبية

(Procréation Médicalement Assistée PMA)،
(INSIMINATION أو(FIV) تخصيب. تلقيح الأنابيب.

إلا أن تكاليف هذه الأخيرة باهضةالثمن . أعطاني رقم الهاتف اتصلنا بالعيادة في شهر أفريل**2006** فقالوا لنا مرحبا بكم في كل وقت .

أفريل2006- ذهبنا إلى العيادة بوهران استقبلتنا La Réceptionniste باسمة الثغر طبعا.

اسمك لقبك سكنك رقم الهاتف تاريخ الزواج (ملف).

انتظرنا في القاعة ، كانت قاعة جميلة ومضاءة وهادئة على جدرانها صور لأطفال يخرجون من أرحام أمهاتهم ، لا أخفي أن هذه الصور جعلتني أحلم أحلام اليقظة وأنا أنتظر على كرسي وثير .

أول فحص عند السيدة **بلماحي** مديرة المركز (MEDCIN BIOLOGISTE) طرحت علينا أسئلة تعارفية ثم استفسارات كثيرة عن الراديووات والتحاليل.

المطلوب : تحاليل للمني جديدة SPERMOGRAMME + TEST (TMS) DEMIGRATIONتحاليل هرمونية للزوجة : ثمن التحاليل 12.000.00 دج

النتيجة مقبول وصالح للعمليةSPERMOGRAMME

التخصيب أي L'INSIMINATION

بالنسبة للزوجة :هرمون(FSH) موجود بنسبة عالية مما قد يتسبب في منع تكون البويضات .

ّ طبيب **شلبي** يفحص الزوجة ECOGRAPHIE.

المفاجأة : كيس في المبيض .

الوصفة :ORGAMETRIL لمدة شهرين .

جوان 2006: فحص جديد عند **شلبي** يختفي الكيس ولله الحمد .

تعاد التحاليل هرمون (FSH) ولا أحدثك عن الأثمان .

النتيجة : موجود بنسبة عالية أيضا .

الوصفة :PROGYNOVA و UTROGESTAN لمدة ثلاثة أشهر أي إلى غاية سبتمبر.

موعد تحاليل جديدة لهرمون (FSH).

سبتمبر 2006: رمضان شهر الصيام مستحيل أن نعود و لا نخفي أننا فكرنا في عدم العودة إلى الأبد.

أكتوبر 2006 : يقدم علينا عيد الفطر

تتأخر العادة الشهرية هذه المرة خمسة أيام ثم عشرة ثم خمسة عشر يوما يطمع الزوجان .

وفي كل مرة يشتري الزوج كاشف HCG من الصيدلية ب 100دج ويمني نفسه بالولد .الله يعلم أني اشتريته أكثر من ثلاث مرات .

النتيجة : في كل مرة يظهر الخط الأحمر الذي كان يمزق قلبي وقلب زوجتي المسكينة .لكن المحروم يطمع نفسه ويمنيها ويحلم هذه المرة كما لم يعلم من قبل .بل يتنافس الزوجان ويفكران في تسمية الولد ويختصمان في ذلك ويعيشان أحلاما سعيدة في أيام معدودات ولكن الحلم تقتله القطرة الحمراء

على القماشة البيضاء . إنها عدوتنا الشهرية.

تبكي الزوجة هذه المرة بكاء مرا ، لكن الله الرؤوف الرحيم ينزل رحمته عليها و على زوجها ويقرران أن يعودا إلى مركز المولود لعل الله يجعل لهذا الأمر فرجا وللضيق مخرجا.

نوفمبر 2006 : يعود الزوجان إلى العيادة وتعيد الزوجة تحاليل الدم.

النتيجة : هرمون FSH صار طبيعيا ويمكن إجراء العملية INSIMINATION وتحضيرا لها أجرينا تحاليل دم إجبارية بمقتضى قانون صدر في سبتمبر 2006 من المنظمة العالمية للصحة OMS.

هذه التحاليل HIV ½ .AgHbs .Anti Hev. TPHA RPR

النتيجة : رد فعل سلبي Réaction négative والحمد لله.

ديسمبر 2006 :

تأخذ الزوجة حبوب ' CLOMID 'منذ اليوم الثاني من العادة ، وحقن ' PEVUGAN 'منذ اليوم الثالث وهي منشطات هرمونية قوية غالية الثمن.

وفي اليوم الثاني : فحص طبي لمراقبة البويضات .

النتيجة: تفاعل جيد مع الدواء.

في اليوم 11 : فحص جديد .

النتيجة: وجود 4 بويضات جيدة بحجم مناسب لإجراء العملية. وجاء اليوم الموعود.

يوم الجمعة 22 ديسمبر 2006 : كان أول يوم لعطلة الشتاء ، وثاني يوم من الأيام العشر المباركة من ذي الحجة.

الشيء الذي زادنا تفاؤلا بالخير. صلينا الفجر، دعونا الله تعالى ثم توجهنا إلى العيادة. نسيت أن أذكر أن ذلك اليوم كان مطيرا .فتح علينا الأبواب.

كنا وحدنا في القاعة ننتظر قدوم الطبيب الذي تأخر عن موعده . وكنا ندعو الله سويا أن يتم سعينا بخير فيما نظن نحن .

- يتأخر موعد الطبيب إلى الساعة 11 سا.
- أدخل إلى القاعة لاستخراج المني ' ' Prélèvement
- ثم تؤخذ الزوجة إلى قاعة العمليات Le Bloc

تجرى لها العملية بسرعة ثم تبقى متمددة على السرير ساعة واحدة فقط.

بتنا ذلك الليلة في وهران والحمد لله عند أختي التي تسكن نفس الحي وأوصانا الطبيب بل أمرنا بالجماع في ذلك اليوم واليوم الذي يليه كي لا تضيع جهودهم سدى. وكتب الطبيب . وكتب الطبيب للزوجة وصفة دواء 'بروجينوفا ' و UTROGESTANو Acide Folique .

06جانفي 2007 : تحاليل دم ' B H C G ب 1600 دج .

النتيجة :50 > HCG = 0 Négative

نتصل بالطبيب فيجيبنا متأسفا بأن العملية قد فشلت وهو مع ذلك يعزينا بأن الحمل يمكن أن يتحقق في الشهر الموالي ولم لا بالطريقة العادية التي يتوالد بها الناس.

ثم هو يفتح لنا ذراعيه وجيوبه أيضا لنعيد العملية مرة أخرى.

الحالة النفسية : الحمد لله في الأولى والآخرة ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

اطمئنان كبير ورحمة واسعة من الرحمن الرحيم.

وداعا يا طبيب إلى الأبد. ومرحبا بالطرق التقليدية وطب الأعشاب. ورجاؤنا في الله كبير ودعاؤنا لا ينقطع إن شاء الله.

وحبنا لله يزداد دوما.'ربنا هب لنا من ذرية طيبة إنك سميع الدعاء'آمين.

البطاقة الموزعة

الإسم واللقب (اختياري) .....

الجنس **ذكر** ☐ أنثى ☐

السن ..... سنة

مقر السكن .....

المستوى التعليمي : إبتدائي ☐ متوسط ☐ ثانوي ☐ جامعي ☐

المهنة . .....

---

1 التأكد من العقم

كم سنة لم تنجب (تنجبي) ؟		سنة
هل كان طفل قبل هذه المدة ؟	نعم	
(إذا كان نعم هل هو مع الزوج الحالي)		
هل سبق أن تزوجت (تزوجتي) مع غير		

الزوج الحالي ؟		
(إذا نعم ما سبب الفراق ؟ طلاق وفاة		

2 شعورك إزاء هذه الوضعية

كآبة	
خوف	
صبر	
شعور بالذنب	
شيء آخر أكتبه	

3 موقف المحيط من وضعية العقم (العائلة ومعارف آخرون):

سخرية	
شتم	
تشجيع	
لاأدري	

4 شعورك من الإنجاب

	نعم	لا
هل ترى أن الإنجاب قضية مصيرية بالنسبة لك؟		
هل ترى أن الإنجاب يرمز إلى السيادة و القوة؟		
هل ترى أن الإنجاب يحقق الإستقرار العائلي؟		
هل تشعر بالخجل نتيجة العقم ؟		
هل تنتابك أفكار بأن لافائدة منك ؟		

5 العلاج

عند التأكد من عدم الإنجاب هل لجأت (لجأتي) إلى علاج ؟	
مستشفى	
طبيب خاص	
طبيب تقليدي	
زيارة ولي صالح	
عشاب	
طالب للرقية	

6 الإنجاب المدعم طبيا (التلقيح الاصطناعي)

هل تنوي اللجوء إلى التلقيح الاصطناعي	نعم		لا أعرف

في حالة نعم هل هذا من:

نصيحة العائلة	
نصيحة الأصدقاء	
قرار الزوج	
قرار الزوجة	

في حالة لا أو التردد هل هذا من

الدين (حرام)	
الإمكانية المادية (يكلف كثيرا)	
غير مضمون النتيجة	
الإنجاب من الله وحده	

باللغة العربية

*القرآن الكريم.

1. ابن العابدين : رد المحتار على در المختار. دار الكتب العلمية (بدون تاريخ)

2. ابن خلدون: المقدّمة

3. أبو كريشة، عبدالرحمن تمام: دراسة أنثروبولوجية لملامح الطب الشعبي في الريف العربي. مكتبة النهضة المصرية: القاهرة. 2001

4. احمد إسماعيل يحي: الإسلام و المعتقدات الدينية القديمة. مكتبة الدار العربي للكتاب ط1. 2002

5. أحمد دهمان: العقم: أسبابه وعلاج.المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية. 2001

6. جلول جيلالي: معسكر رجال و تاريخ. منشورات مديرية الثقافة والمجلس الثقافي لولاية معسكر. 2006

7. جمال الدين الدمشقي: جوامع الأداب في أخلاق الإنجاب. دار الكتب العلمية. Ed°20041.

8. حياة الرايس: جسد المرأة من سلطة الإنس إلى سلطة الجان، القاهرة، سينا للنشر، ط. I

9. د. محمد خالد منصور : الأحكام الطبية المتعلقة بالنساء في الفقه الإسلامي. دار النفائس – الأردن : ط 2

10. د. أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر. 1985

11. د. أحمد محمد لطفي أحمد: التلقيح الصناعي بين أقوال الأطباء وآراء الفقهاء. دار الفكر الجامعي. 2006

12. د. سامية حسن الساعاتي: السحر والمجتمع، دراسة نظرية وبحث ميداني، بيروت، دار العربية

13. د. محمود سعيد شلهوب: الإمكانية الجنسية والعقم .المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية .1997

14. د. محمود ناظم النسيمي: الطب النبوي والعلم الحديث ج1. مؤسسة الرسالة – بيروت ط4 .1996

15. د.عبد القادر خليفي: من الموروث الثقافي الجمعي ألمغاربي. دار الأديب للنشر و التوزيع وهران. 2006

16. د.عدنان الشريف: من علم الطب. الثوابت العلمية في القرآن.دار العلم للملايين – بيروت ط3. 2003

17. د.عشراتي سليمان: الشخصية الجزائرية 3 أجزاء. دار الغرب للنشر و التوزيع .2002

18. د.فهد بن ضويان بن عوض السحيمي: أحكام الرقى و التمائم دار أضواء السلف الرياض. 1998

19. د.كارم السيد غنيم : الاستنساخ و الإنجاب (بين تجريب العلماء و تشريع السماء). ط1. 1988. دار الفكر العربي

20. د.محمد التومي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990

21. د.محمد علي البار : أخلاقيات التلقيح الاصطناعي (نظرة إلى الجذور). الدار السعودية ط 1 1987.

22. د.محمد علي الهاشمي المرأة المسلمة وكالة المطبوعات و البحث العلمي. 2005

23. دافيد لوبروتون: أنثروبولوجيا الجسد والحداثة. ترجمة : محمد عرب صاصيلا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط2 . 1997

24. سعاد عثمان و آخرون: الصحة و المرض وجهة نظرعلمالإجتماع والأنثروبولوجيا. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1991

25. سعاد عثمان: الطب الشعبي: دراسة في اتجاهات وعوامل التغير الاجتماعي في المجتمع المصري. مركز البحوث والدراسات الاجتماعي2002

26. سمير يحي: الجمال الطب الشعبي التقليدي. مكتبة مدبولي. القاهرة د.ت

27. الشافعي.أبي القاسم علي بن الحسن إبن هبة الله بن عبد الله:تاريخ مدينة دمشق : دار الفكر – بيروت .1995

28. عبد الغني منذيب: الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتمدين بالمغرب، افريقيا الشرق – المغرب. 2006

29. عبد الله حمودي : الشيخ و المريد. دار توبقال للنشر، الدار البيضاء. 1999.

30. عبد الله عفيفي: المرأة العربية. دار الرائد العربي. 1982

31. عبد النور إدريس: الكتابة النسائية (حفرية في الأنساق الدالة.. الأنوثة.. الجسد.. الهوية). مطبعة سجلماسة – مكناس – المغرب طبعة .12004

32. عكاشة الشايف : الإعجاز و الغيب

33. علي المكاوي: الأنثروبولوجيا الطبية – دراسات نظرية و بحوث ميدانية دار المعرفة الجامعية الإسكندرية. 1994

34. علي المكاوي: علم الاجتماع الطبي – مدخل نظري. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1990

35. القرآن الكريم : طبعة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف : ط .2002

36. محمد عاطف غيث: دراسات في علم الاجتماع القروي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر- لبنان 1967

37. محمد علي البار : أخلاقيات التلقيح الاصطناعي (نظرة إلى الجذور). الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1407هـ. 1987م

38. محمود ناظم النسيمي: الطب النبوي و العلم الحديث (جزءان) الشركة المتحدة للتوزيع دمشق. 1984

39. مرسي عبد الحميد، جميلة عبد الحميد: التغلب على عدم الخصوبة بالوسائل الطبيعية. الدار العربية للعلوم-ناشرون 1995

40. مرفت العشماوي: الأنثروبولوجيا الطبية و الطب الشعب. مطبوعات كلية الآداب جامعة الاسكندرية. 1996

41. مصطفى الزهويلي: من أعشاب الرجال. مكتبة التيسير – تادار البيضاء .2002

42. سعيدي محمد : مقدمة في أنثروبولوجيا – مظاهر الثقافة الشعبية- دار الخلدونية للنشر والتوزيع –الجزائر 2013

43. كولن ولسن : أصول الدافع الجنسي (ترجمة يوسف شرورو و سمير كتّاب). منشورات الآداب – بيروت ط3 1986

44. طوالبي نورالدين ، الدين والطقوس والتغيرات،ديوان المطبوعات الجامعية OPU– الجزائر1988 -

باللغة الفرنسية

1. ABBE Barges. *Excursion à Sebdou*. Ed. Imprimerie Nationale. Paris 1849

2. AKHMISSE Mustapha. *Médecine. magie et sorcellerie au Maroc*. Ed . Dar Kortoba – Casablanca. 2000.

3. ALBRECHT Pierre-Yves. *Au cœur des zaouias (rencontre avec des soufis guérisseurs)*. Presse de la renaissance. 2004.

4. AUGE Marc) HERZLICH Claudine. *Le sens du mal. Anthropologie. histoire. sociologie de la maladie*. Paris. Editions des archives contemporaines. 1984.

5. BEDDIAR Abdelaze. *Le regard de l'islam sur les procréations médicalement assistées*. Ed AELF Paris. 1993.

6. BELLAKHDAR Jamal. *Le Maghreb à travers ses plantes*. Ed . Le Fennec - Casablanca. 2003.

7. BENOIST Jean. *Soigner au pluriel*. Essais sur le pluralisme médical. Ed. Karthala Paris 1994.

8. BONNET Doris. *Corps biologique Corps social*. Editions de l'ORSTOM Paris 1988.

9. BOURAOUI Soukina) BEHNAM Djamchid. *Familles musulmanes et modernité (le défi des traditions)*. Paris – PUBLISUD. 1986.

10.BOURQIA Rahma. *Femmes et fécondité.* Ed Afrique Orient CASABLANCA. 1996.

11.DAGOGNET.Françoise.*La raison et les remèdes*. Paris. P.U.F. 1964.

DEPONT Octave) COPPOLANI Xavier .*Les confréries religieuses musulmanes*. Ed Adolphe JOURDAIN 1897.

12. Detrez Christine. *La construction sociale du corps*. Le Seuil Paris. 2002

13.DIB Mohammed Souheil. *Tant qu'il y aura des mères*. Ed. Entreprise Nationale Du Livre ENAL ALGER – 1989

14.DOUTTE Edmond .*MARABOUTS (Notes sur l'islam maghrébin)* .Ernest LEROUX Editeur 1900.

15. El Khayat Rita. *Le Maghreb des femmes: les défis du XXIe siècle*. Ed MARSAM Rabat. 2001.

16. E.Mvone-Ndong Simon-Pierre ; La rationalité de la médecine traditionnelle en Afrique : Etudes Africaines 2014

17. Evans-pritchard E.E. *Sorcellerie. Oracle et Magie chez les Azandé.* Paris Gallimard 1972.

18. GALLAIRE Fatima. *Les co-épouses l'Avant Scène*. THEATRE. 1993.

19. GELLNER Enest. *Les saints de l'Atlas*. Ed Bouchène – St-Denis.2003

20. HERZLICH Claudine. *Santé et Maladie. Analyse d'une représentation sociale*. Paris.

21. Khodja Souad. *Nous les Algériennes. la grande solitude*. Casbah Editions – 2002.

22. Laplantine Françoise. *Anthropologie de la maladie*. Paris Payot. 1986.

23. LONGUENESSE Elisabeth. *Santé. médecine. société dans le monde arabe. héritage et enjeux*. Ed. l'Harmattan – Paris. 1995.

24. LOUX. Françoise. *Traditions et soins d'aujourd'hui : anthropologie du corps et professions de santé*. Paris. Inter éditions. 1990.

25. MERNISSI Fatima. *Femmes et Marabouts.* Ed LAMALIF. (non daté)

26. Monique A.PIETTRE.*La condition féminine à travers les âges*. Editions Marabouts Université 1974.

MOULIERAS Auguste.*Le Maroc inconnu*. Ed Joseph ANDRE. VolI : 1895 Vol II : 1899.

27 Naamane Guessous Soumaya : Au-delà de toute pudeur.La sexualité au maroc casablanca Eddif 1988

28 OuitisAïssa. *Possession.Magie et Prophétisme*. Sned Alger 1977

29 Ouitis Aïssa : Les contradictions sociales et leur expressionsymbolique dans le sétifois. Revue de l'occident musulman et de la méditerrannée No 29 1980.

30 PRUVOST Lucie. *Femmes d'Algerie (société. famille. et citoyenneté)* .CASBAH Edition 2002.

31RINN Louis. Marabouts et Khouans (Etudes sur l'Islam en Algérie) (Chef de bataillon) .Ed Adolphe Jourdain 1884.

32 Testard Jacque , *Procréation et Manipulations du vivant*, Éd. France Loisirs, 2000.

33 ZerdoumiNefissa. *Enfants d'hier L'éducation de l'enfant en milieu traditionnel algérien*. Domaine maghrébin. Paris. 1970.

الرسائل الجامعية:

1. بن تامي رضا , الطب الشعبي في المدينة , رسالة دكتورا جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان عام 2013/2012

2. ميلود طواهري , 'الطلبة' بين السحر والدين , دراسة أنتروبولوجية رسالة ماجستير جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان عام

1. Chantal DORE. *Procréation artificielle*. Thèse Université LAVAL Juin 1998.

2. Abdelwahed MEKKI BERRADA. *La portée thérapeutique et herméneutique de la BARAKA*. Thèse :Université Montréal 1997.

المواقع الإلكترونية

- http://www.alukah.net
- http://www.alwarraq.com
- http://www.altafsir.com
- http://www.mhrde.com/fjm
- http://www.shamela.ws/
- www.Droub.com

قائمة الآيات القرآنية الواردة في البحث

25 -اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار)

23 -الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا

23-دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) ·

32-فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌعَقِيمٌ) ·

-كهيعص(1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً(3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً(4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِيعَاقِرًافَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً(5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً(6)31 · (

39-هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(38) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراًوَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ)

31- قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ -وَامْرَأَتِيعَاقِرٌقَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (

23-وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) ·

32-يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً(7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِيعَاقِرًاوَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ·

23-رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) ·

فهرس

شكر	
مدخل: أنثروبولوجيا الطب أو أنثروبولوجيا المرض؟	01
الاشكالية	06
المنهجية	07
الفصل الأول: العقم بناء اجتماعي	09
1-مكونات المجتمع الجزائري	12
1-1-المكون التاريخي	12
1-2-المكون الثقافي	14
1-3-المكون الديني	15
1-4-تحبيب الإنجاب والرغبة فيه	18
1-5-معتقدات متعلقة بالانجاب	20
الفصل الثاني: الدّاء	25
1-العقم والعقر	26
2-عملية الانجاب	36
3-المرأة والعقر	41
4-الرجل والعقر	44
5-وضعية المرأة العاقر	46
6-المرأة العاقر في المجتمعات	49
7-العقم في الديانات	55
8-وضعية المرأة العقيم في الأدب	65

الفصل الثالث: مسببات الدّاء	70
القدر	71
1-الأسباب الطبيعية (العضوية)	72
1-1-عند الرجل	73
1-2-عند المرأة	74
1-3-أسباب مشتركة للرجل والمرأة	79
الفصل الرابع: الدّواء	106
1-الطب الشعبي والطب الرسمي	107
1-1-النظام الشعبي	110
1-2-النظام المهني	112
1-3-النظام الغيبي	112
2-الطب له بالدين صلة	113
2-1-الطب النبوي	118
2-2-البركة	125
2-3-زيارة الأضرحة	132
2-4-النبات	145
2-5-الجماد	150
2-6-الحالات التي يعتقد فيها البركة	154
2-7-الرقية	155
2-8-الأعشاب	160
2-9-وسائل لمحاربة الربط والعين والسحر	162
2-10-نتائج هذا العلاج	167

الفصل الخامس: الإنجاب المدعم طبيا	172
1-التلقيح الاصطناعي	175
2-استئجار الرحم	180
3-الاستنساخ	185
التحقيق الميداني	188
قراءة النتائج وتحليلها	189
الانجاب المدعم طبيا	199
الخاتمة	202
الملاحق	207
قائمة المصادر والمراجع	232
فهرس الموضوعات	245

ملخص :

يعد العقم من الكوارث عند المجتمعات العربية. ولذلك يسعى الفرد لتجنبه أو التخلص منه بكل الوسائل. وقد ظهر عبر الزمن مؤسسات رسمية وأخري شعبية وتقليدية للتخلص من العقم. منها ما هي مشروعة طبقا للعقيدة والأعراف ومنها ما هي مردودة شرعا وقانونا حسب المجتمعات. وقد تناول هذا البحث وسائل علاج العقم في المجتمع الجزائري، وسائل قد قاومت النسيان ولازالت مستعملة ووسائل أنتجها العلم والتكنولوجيا.

الكلمات المفتاحية: عقم- عقر- إنجاب- إنجاب مدعم طبيا- أم .

Résumé

La stérilité est considérée comme un fléau dans les sociétés arabes. C'est pourquoi l'individu est toujours en quête des moyens de s'en prémunir ou d'en guérir. Il y eut à travers les âges toutes sortes de procédés et d'institutions soit officielles ou traditionnelles pour prendre en charge les personnes stériles. C'est surtout la foi et les us de la société qui déterminent la voie à suivre pour décider de la meilleure thérapie légale. Cette recherche étudie cet itinéraire pour surmonter cette infertilité tant dévalorisante dans la société algérienne.

Mots clés : stérilité- infertilité- procréation- PMA- mère.

Abstract

Infertility is considered a scourge in Arab societies. That is why the individual is always looking for ways to protect themselves or heal. There was through the ages a variety of methods and institutions either formal or traditional support for the barren people. Especially the faith and the customs of society that determine the way forward to decide the best legal therapy. This research studies the route to overcome the infertility as demeaning in Algerian society.

Keywords : stérilité- infertilité- procréation- PMA- mother

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد –تلمسان-
كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ
شعبة الثقافة الشعبية

ملخص أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه موسومة بـ:

العقم بين الطب الشعبي والطب الرسمي في المجتمع الجزائري

-دراسة في أنثروبولوجية الطب لمرض العقم-

من إعداد الطالب:
الطاهر براهمي

إشراف:
أ.د.
العيد فقيه

السنة الجامعية: 2015- 2016م

الملخص

إن أنتروبولوجيا الطب موضوع رحب شاسع، تصعب معالجته في كل مجالته، ولذلك حاولنا أن نحصر مجال البحث في الطب التقليدي والطب الروحاني والطب الحديث فيما يتعلق بمرض واحد. واخترنا هذا المرض لما له من تأثير اجتماعي وبُعد أنثروبولوجي مميز، وهو مرض العقر الذي انشر كثيرا[1]. أسميناه مرضا لما يسعى الناس لعلاجه واتخذ هذا السعي وجوها متعددة ومختلفة منها ما تطور عبر السنين ومنها من بقي على وجهه الأول. فسوف ندرس ما تعارف عليه المجتمع الجزائري وكيف انتقل في بعض الأحيان إلى تبني ما وصل إليه العلم الحديث واستعمال التكنولوجيا الحديثة. فللجزائري قابلية للتنقل والتحويل من الطلسم إلى الاستنساخ بسهولة مدهشة وتكييف ما يفعل مع عقيدته وتقاليده. وهذا جزء من إشكاليتنا.

كيف يمكن أن يتجاوز الزوج العاقر التناقض بين تعليق طلسم (حجاب) وزيارة مركز للتلقيح الإصطناعي؟ كيف نفهم التزاوج بين تعاطي العاقر 'للمجمر' والسكانير أو جهاز تحليل المني؟ وكيف يمكن الانتقال من هذا إلى ذاك بسهولة مهما كانت ثقافة العاقر أو مستواه العلمي ؟ ما الذي يدفع بالعاقر أن يلجأ إلى ما هو غيبي وفي نفس الوقت إلى ما هو من قبيل الطب المتطور تكنولوجيا؟

ليس هدفنا أن نثبت أو ننفي شيئا أقرته الذاكرة الشعبية ولكن نريد أن نبحث كيف صمدت بعض المعتقدات طوال قرون وكيف تمكن الإنسان من التشبث بها وتكييفها رغم تطور المجتمع علميا وتكنولوجيا، وكيف تمكن المجتمع الجزائري أن يواكب ما يجري في العالم الغربي من استعمال لتكنولوجيات جديدة فرضت نفسها على المجتمع ذي الخصوصيات التي تنبذ ظاهريا ممارسات تعتبرها من المروق عن عقيدتها. وألزم هذا التقدّم الكبير للعلم رجال الدين أن ينكبوا علىّ النصوص الشرعية

[1] المؤتمر الذي انعقد في الجزائر في شهر نوفمبر 2007 يكشف عند أزيد من 300.000 زوج يعانون من عدم الإنجاب في الجزائر

لاستقرائها من جديد ومحاولة تكييفها مع ما يساعد الناس. وتارة وصل بهم الأمر إلى ليّ النصوص ليّا كما سنرى في حينه.

إن الرغبة في الإنجاب وبالتالي السعي وراء معالجة حالات العقر يكوّنان المحرّك الأساسي للمصابين بهذا الداء وذاويهم.

ونسعى من وراء هذا البحث إلى أن نُلقي النظر على الأنشطة البشرية المتعلّقة بصحة الإنسان الإنجابية وبالعقر كعاهة في المجتمع الجزائري خاصة وأنه يشبه المجتمعات العربية الإسلامية.

سوف نسلط الأضواء على المضمار الذي سلكناه مقتفين أثر الفاعلين.

كما تكون من الإشكالية محاولة فهم ما هو نظري (أي ما سوف يُحلّل) وما هو عملي تطبيقي (أي ما سوف يقوم به المصاب أو من يحيطون به).

لم يكن هدفنا معالجة موضوع طبي وإعطاء وصفات تقليدية للاستعمال وإن وجدت فكمثال لما نحن بصدد تفسيره كظاهرة أو أخرى. لن ننتقد أي معتقد ولن نحكم على أي ممارسة تظهر غريبة للقارئ. فهذا ليس هدفنا ولكن هدفنا هو دراسة هذا المرض كبناء اجتماعي لأن العقم يفتح مجالين:

ا) المجال الأول على مستوى الخطاب الطبي الذي يجعل منه مشكلة صحية شخصية فردية تتطلب تدخل طبيب مختص وتقنيات عالية.

ب) المجال الثاني على مستوى اجتماعي حيث نجد بعض الأبعاد للبناء الاجتماعي للعقر كالرغبة الغريزية في الطفل وما يثيرها، والمكانة الاجتماعية للمرأة الولود وللعاقر ونتائج العقم الاجتماعية (طلاق، تعدد الزوجات...)

إن طبيعة الموضوع الذي صنفناه في مجال أنثروبولوجيا الصحة، كما رأينا أعلاه تغطّي ميادين مختلفة تتجاوز في بعض الأحيان المجال الذي صنّفنا فيه بحثنا مثل علم الاجتماع الطبّي وهذا ما عقّد

دراستنا سعيا منا إلى أن نرتبط بالموضوع ونغيّب ما يُثقله حتى ولو كان له علاقة به.

1- مكونات المجتمع الجزائري:

رأينا من اللزوم أن نحدد مميزات المجتمع الذي ندرسه ومركباته مبرزين ما يمكن تبرير السلوكات التي تمارس في علاج هذا الوضعية.

ولكن المجتمع، موضوع دراستنا، شبيه بمجتمعات أخري يشاركهم فيها بمكوناته الثقافية مثل الدين والأخلاق والتقاليد والتاريخ والبيئة. وخلال دراستنا وجدنا الكثير من الممارسات والمعتقدات بين مجتمع المغرب الأقصى والجزائر وتونس. لهذا لجأنا إلى ببلوغرافية استقيناها من هذه البلدان أو لباحثين أصلهم منها وإن انتسبوا لجامعات غربية.

فالمجتمع الجزائري ليس سوى نموذج مصغّر يعكس المجتمعات العربية المشابه له في عناصر ثقافية التي نلخصها:

1-1-المكون التاريخي

غزت الجزائر أمم كثيرة أتت من مختلف الجهات وفي أزمنة مختلفة وما دفع هؤلاء الغزاة هو الموقع الاستراتيجي والثروات الزراعية التي جعلت من الجزائر حينها مخزنا للحبوب خاصة. كما أن البحر الأبيض المتوسط والساحل الذي يطل عليه كان مرسى لجميع السفن المبحرة فيه من الشرق ومن الغرب والآتية من الضفة المقابلة للجزائر. رومان، يونانيون، فينيقيون، وندال كلهم غزوا الجزائر وأثروا على ثقافة مجتمعها كما تأثروا بدورهم بثقافة الأهالي. دفع هذا الغزو المتعدد الوجوه القبائل والسكان الأصليين إلى الالتفاف حول العائلة الموسعة لتكوين قوة دفاعية وهذا يتطلب كثرة العدد (خاصة الذكور) وتوحيد القرار الذي أدّى إلى انفراد الأب 'الكبير' بالحكم والسلطة على العائلة، والزواج المبكر، وتعدد الزوجات الخ...

كما امتزجت معتقداتهم الوثنية وآلهتهم المختلفة بما كان ممارس عند الجزائريين من طقوس لمحاربة

القوى الشريرة المتمثلة في الظواهر الطبيعية والأمراض المتعددة والمتنوعة.

لم يكن يعرف آنذاك في مجال التطبيب سوى الممارسات الشعبية التي كان يمليها رجل الدين (الساحر أو الكاهن أو الذي كان يقود الطقوس التعبدية).

وعند الفتح الإسلامي ظهرت ممارسات أخري عوضت، عند جزء من المجتمع، الممارسات الوثنية كون الدين الجديد جاء ليحارب الوثنية ومعتقداتها. إلا أنه لم يستطيع أن يمحو كليا ما تعاطاه الجزائريون قبل الفتح.

كان هناك نوع من الطب الرسمي بجانب طب روحي يعتمد على القرآن والسنة التي أشارت إلى بعض الطرق العلاجية والتي سميت فيما بعد وحتى اليوم بـ 'الطب النبوي'.

وتطور العلم عند العرب المسلمين وكان له صدى واسع في العالم كله ومع ذلك لم يستطع أن يعوّض كليا ذاك الطب الموازي الذي تجذّر عند الجزائريين والذي تكوّن بالممارسات المختلفة التي كانت تضاف إلى سابقاتها.

وعند الغزو الفرنسي دخل الجزائر طب 'استعماري' ممارس من العسكريين الأطباء الذين كانت بذلتهم العسكرية ينظر إليها كرمز القمع عوض المساعدة والعلاج. وكان نوعا من المقاومة ألا يلجأ الجزائري إلى العدو[1] لعلاجه وخاصة النساء وبالأخص اللواتي كن يعانين من مرض أنثوي، والعقر من الأمراض التي كان يستحيل أن يلجأ إلى الفرنسي لعلاجها. وترك هذا الموقف بصمات إلى اليوم، وبخاصة في الريف إذ لا زال سكانه يتجنبون اللجوء إلى الطبيب الرسمي صاحب المئزر الأبيض.

بعد الاستقلال خلف الأطباء الجزائريون الأطباء الفرنسيين وبدأ الجزائري يتردد على

---

[1] كان يعتر من الخيانة أن يلجأ الجزائري إلى 'العسكر' للعلاج وكان اللجوء إلى الطب الشعبي نوع من إظهار الإنتماء إلى غير الكفار والاعتزاز بالهوية العربية المسلمة

المستشفيات والأطباء الرسميين ولكن بدون أن يُهمل العلاج المألوف المتجذّر عنده، وتارة كان يلجأ إلى النوعين من الطب في الأمراض العضوية وبالنسبة للعقم كان الطب الرسمي لازال منبوذا.

1-2-المكون الثقافي

شساعة الجزائر من العناصر التي ساعدت على تنوع الثقافات (بالمفهوم الأنثروبولوجي) فممارسات غربها تختلف عن تلك التي تسود في الشرق، ونمط معيشة أهل الجنوب (التوارق مثلا) تختلف كثيرا عن المعيشة في الشمال.

وتبرز هذه الشساعة التنوع في الطبيعة بحيث يمكن أن نميز بين التل في الشمال والهضاب العليا والصحراء. وسكان كل منطقة لهم خصوصيات في اللباس والأكل نظرا لما تتوفر عليه كل منطقة من حيوان ومن نبات ومن نمط للحياة.

نجد في الشمال أنواع السمك والخضر والفواكه أكثر وفرة من الجنوب حيث نجد الإبل النافعة ألبانها والأكلات الشعبية المتفاوت نفعها وضررها.

كما تتوفر المنطقتان الجنوبية والهضاب العليا على نبات طبي مختلف معروف عند الصغير والكبير في هذه المناطق. وحتى أنواع المرض تختلف من جهة إلى أخرى.

نضيف إلى كل هذا الجانب التعليمي عند البنات[1] حيث نجد نسبة تمدرس البنات في المدن تفوق بكثير نسبة التمدرس في الريف. كما أصبحت وسائل الإعلام الحديثة (القنوات الفضائية خاصة) في كل البيوت الجزائرية وتبث يوميا ما توصل إليه العلم بكل جوانبه وطبعا لم يبق لا الجزائري ولا الجزائرية جاهلا الوسائل المكتشفة كل يوم.

---

1 نشير إلى أن نسبة البنات المتمدرسات في التعليم الثانوي يفوق نسبة البنين

كما تتطلع المرأة الجزائرية إلى ما يجري في العالم من تكوين جمعيات نسائية تدافع عن 'حقوق' تكاد أن تجرد المرأة من أنوثتها ومن وظائفها الطبيعية ولقي هذا ترحابا عند شريحة من الجزائريات[1].

1-3-المكون الديني

قبل الفتح الإسلامي كان سكان الجزائر يتكونون من عناصر عديدة ومختلفة، فإلى جانب العنصر البربري المتواجد في الشمال والجنوب وهو الذي كان يكوّن الجزء الكبير-قد وجده الفينيقيون والأوربيون. ويرجع المؤرخون أن بداية التأريخ للممارسات الدينية البدائية تعود إلى ما قبل الميلاد.

لم يسجل التاريخ ديانة مكتملة بارزة للبربر بل كان زوار الجزائر من تجار وغزاة يأتون بديانات وثنية مختلفة باختلاف الوافدين وتأثر البربر كثيرا بما آتاهم من الآخر. ولقد عثر على نصوص في عدة مناطق تظهر الأصل الأسيوي لهذه المعتقدات التي نبرز منها الاعتقاد في قدرة قوى طبيعية على وهب الخصوبة ومنعها أما البربر فلم يكن لهم مثل اليونان والرومان آلهة معروفة إذا استثنينا الإلهة تانيت التي كان يعتقد في قدرتها لمنح الأولاد وجعل المرأة عاقرا إن أغضبتها فكانت إذن تانيت إلهة الخصوبة والإنتاج الفلاحي وإنتاج الأنعام[2].

وإلى جانب هذه الإلهة الأساسية كان للإله 'بعل' حمون مكانة أقل شأن من تانيت.

كما وجدت في منطقة بوعلام بولاية البيض ومنطقة تيوت بولاية النعامة رسوم لحيوانات يعتقد أنها كانت محل عبادة للبربر وهذا للأقراص المرسومة على رؤوسها مثل الآلهة المصرية القديمة (الكبش

---

1 طالبت الجمعيات النسائية بالجزائر تغيير قانون الأسرة حتى يفرغ من كثير من الثوابت. ونافستها الجمعيات التابعة لتنظيمات متمسكة بالأسس الإسلامية.

2 ينظر ألفيد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ص 56 ط3

المصري المقدس) ولم يستبعد أن المعتقدات المصرية وصلت إلى الجزائر والمناطق المجاورة بواسطة الرحالة التجار. وجود هذه الرسومات أوحت إلى مؤرخين مثل جيزلودولو أن يستنتجو إمكانية تفشى الطوطمية بين البربر القدماء،

والشيء المسلّم به هو اعتقاد البربر القدماء في الأرواح الشريرة والجن والعفاريت وتتخذ أشكالا وصورا مختلفة، إنها تسكن الأشجار والحيوان والأحجار.

"كان البربر يتعبدون بالخصوص في المغارات، أو في الأماكن العالية، أو بالقرب من العيون والأشجار المقدسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد..."[1]

وكان هذا الاعتقاد راسخا عند البربر مند القدم وما زال بعضه راسخا عند البربر وعند غير البربر في الجزائر الحالية، لم تستطع مسيحية الرومان ولا الإسلام محو هذا المعتقد أو القضاء عليه بل أصبح يظن أنها من الإسلام أي أسلمتها بعض الطقوس الشعبية كما سنرى في حينه.

أما أشهر الطقوس الدينية فكانت تتمثل في مراسيم كان هدفها طرد الشيطان وقوى الشر من جهة الدفاع وجلب الخير والبركة والخصوبة للحقل والمرأة من جهة النفع، كما أثبت المؤرخون أن اليد المفتوحة رمز من رموز الاعتقاد عند البربر ترجى منها الحماية من العين وطرد الشر وجلب الخير والبركة لخصوبة الأرض والنساء، ومازالت إلى يومنا تستعمل لنفس الغرض وتسمى الخامسة.[2]

وقد عرفت الجزائر تحولات كبيرة من فترة الاستعمار إلى يومنا هذا، من انتشار القبب والزوايا إلى محاولة الإصلاح لجمعية العلماء الجزائريين إلى اشتراكية بداية الجزائر المستقلة ثم عودة الإهتمام

---

1 شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة ص 120 الدار التونيية للنشر ط3 1983.

2 أنظر الفصل الثالث: الوقاية من العين

بالأولياء الصالحين لما قرّبهم النظام السياسي آنذاك إلى مي سمي بالنهضة الإسلامية التي حاربت هذا السلوك إلى العودة مجدّدا إلى الزاوية كمؤسسة دينية اجتماعية لها دور ديني وسياسي بالإضافة إلى دورها التعليمي الذي كان لها قبل الإحتلال الفرنسي. كل هذا أثّر في سلوكات الجزائري وفكره. وقد دعمه انتشار سائل الإعلام والقنوات الفضائية التي تصله بكل ما يحدث في العالم في مجال الطب وغيره.

إن الخطاب الديني الناجم عن الحركات الإصلاحية يؤثر كثيرا على السلوكات التي كادت أن تتوحد في العالم الإسلامي[1]. كما أنتجت الفتاوى التي غزت المجتمع الجزائري مواقف متباينة من السلوك اليومي عند الجزائريين. ويوزن كل جديد في المجال العلمي بميزان 'الشرع' إلى درجة أن الدين المعيش يوميا أو التدين بالأصح أصبح موضوع استنكار لبعض التيارات بوصفه من الشرك ومن البدع. وهنا نشير أن الأنثروبولوجي وعالم الاجتماع يهتمان بالدين كما يعيشه أصحابه وليس الدين كعقيدة وعلم اختص بدراسته رجال الدين من فقهاء وأصوليين. وهنا نميز بين الأنثروبولوجي المستشرق والأنثروبولوجي المسلم كما بيناه في المقدّمة. فالأول يجعل من الدين ''السحر'' الإيجابي أي الذي لا يسيء ولا يضرّ الآخر، والثاني يميز بين ما هو شرعي وبين ما تحظره النصوص ولا يقبل إلا الرقية كوسيلة علاجية مشروعة.

كما يضع المستشرق 'حتمس' السحر ''السلبي'' من الدين[2] ويرفضه المسلم لكونه حراما

---

1 فإن كان الحجاب شبه معمما عند النساء فارتداء القميص لم يعمم عند كل الفئات. فهو منحصر عند الشباب أكثر من أي فيئه أخرى.

2 Constant Hamès, ' Problématiques de la magie-sorcellerie en islam et perspectives africaines ', *Cahiers d'études africaines .* *2008*http://etudesafricaines.revues.org/9842

ويستند إلى نصوص شرعية لجواز أو تحريم أي سلوك.

1-4-تحبيب الإنجاب والرغبة فيه:

يحب الجزائري أن يكون له أطفال مباشرة بعد الزواج لأنه يتزوج من أجل ''عمارة الدار'' ويفضل أن يكون له أولاد ذكور. ويعتقد أن لن يكون ''رَجُلا'' إلاّ إذا أنجب وإلاّ يكون ''تيناش[1]'' أي وحيدا. ويقال لمن لا يتزوج مبكرا أنه ''كْلَ ولاده في كرشو'' ليحثه المجتمع على الإسراع في الزواج من أجل الإنجاب.

وبالنسبة للمرأة تعتبر الأمومة والرغبة في الإنجاب إحدى مراحل الأنوثة ويشكلان جزء من غريزتها.

كان طلب الذرية من تطلعات الإنسان لأنها أنس الحياة وبهجتها ورونق الدنيا وزينتها إذ قال عزّ وجلّ:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[2]

ويقال:' ففي المال جمال ونفع وفي البنين قوة ودفع' فآدم وبعده كثير من الأنبياء طلبوا من ربهم الذرية الصالحة أما آدم وحواء ف.﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾.[3] وبعد خليل الرحمن طلب الذرية الصالحة ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ

---

1 تستعمل هذه العبارة في الهضاب العليا حتى في شتم الرجل الوحيد بدون ذرية.

2 سورة الكهف : 46

3 سورة الأعراف : 189

بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[1]. ولم يتخلف نبي الله زكريا بدعائه معللا طلبه ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

كما أنتجت الآيات ﴿ . . .يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ **عَقِيمًا** إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) ﴾ من سورة الشورى فهما لعلاقة الدين بالإنجاب، علاقات على مختلف المستويات، نفسية، ثقافية، أخلاقية، واجتماعية. وتجعل الفرد المسلم يتصرف طبقا لهذا الفهم. إما يستسلم لقضاء الله وقدره. إما يحرص على السعي للإنجاب بكل وسائل المتاحة له خارج الإطار الطبي ويرجو إرادة الله الموافقة لأمله. وكل هذا يُؤثّر على سلوكاته وخصوبته. يقول محمد السقلاني: " إن الإسلام يُؤثر على الخصوبة بتقنين الشروط المؤطرة لها أكثر مما يُؤثر عليها بتوجهات مباشرة"[3].

وبما أن الرغبة في الذرية كانت دائما حاجة ملحة، ومطلبا فوق المطالب فإن من حُرم منها سوف يسعي إلى تلبية هذه الرغبة بكل ما عنده من وسائل وجهد وسوف يبحث عن كل السبل لبلوغ هدفه، ويطرق جميع الأبواب من أجل تحقيق هذه الغاية.

إلاّ اننا نجد حالات شاذة تخرج عن السرب وتعلن علة كراهيتها للإنجاب وإذا سقنا هذا المثال فلشهرة صاحبه وهو أبو العلاء المعري الذي كان ناقما علي المرأة لأنها سبب الإنجاب واستمرار

---

1 سورة الصفاة : 100 و101

2 سورة الأنبياء : 89

3 Mohamed seklani , La fécondité dans les pays arabes, attitudes et comportements in Population, No15 – Octobre 1960 p 123.

الحياة. ولعل سببا مضمرا وهو أن الشاعر قد يكون ذا مذهب فلسفي يحرم الزواج، أو كان عقيما ومعترف بحاله وهذا جعله يبيح بكرهه للنساء ماعدا أمه وابتعد عن الزواج المسبب للإنجاب وطلب أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي علي *** وما جنيت على أحد

1-5- معتقدات متعلقة بالإنجاب:

يحاط الإنجاب في مجتمعنا بمجموعة من الاعتقادات والأساطير. فقد تضطر المرأة خوفا من التطليق إلى أن تزعم أنها حامل وأن جنينها (راقد) أي أنه لا ينمو ويمكث في الرحم سنين عديدة حسب المعتقد السائد في الجزائر والبلدان المغاربية. والذي أكده الفقه الإسلامي، ولكن اختُلف في تحديد مدة الحمل.[1] منذ العهد الجاهلي تُعرف ظاهرة 'حش الولد' كما جاء في **حديث** عمر: ' أُتِيَ بامرأة مات زوجها فاعْتدّت أربعة أشهر وعشرا ثم تزوّجت رجُلا فمكثت عنده أربَعَة أشهر ونِصْفا ثم ولَدت فدَعى عمر نِسَاءا فسألُهُنّ عن ذلك فقلْنَ: هذه امرأة كانت حاملا من زَوْجها الأول فلمَّا

---

1 جاء في أرشيف ملتقى أهل التفسير الذي أعده أبو محمد المصرى على الموقع :www.aldahereyah.net

- أن أقصى مدة الحمل سنة واحدة لا أكثر، وبه قال محمد بن عبد الحكم وأختاره ابن رشد.
- أن الحمل قد يستمر إلى سنتين، وهو مذهب الحنفية.
- أنه قد يستمر إلى ثلاث سنين، وهو قول الليث بن سعد.
- أن أقصى الحمل أربع سنين، وهو مذهب الشافعية والحنابلة وأشهر القولين عند المالكية.
- أن أكثر الحمل خمس سنين، وهي رواية عن مالك.
- أن أقصى الحمل ست سنين، وهي تروى عن مالك والزهري.
- أن أقصى الحمل سبع سنين، وبه قال ربيعه وهي رواية عن الزهري ومالك.
- لا حد لأكثر الحمل، فإذا ظهر بالمرأة حمل أ,وجدت القرائن الدالة على الحمل كالحركة في البطن فإننا ننتظر وإن طالت المدة، أما إذا مضت التسعة أشهر ولم يظهر بها علامات الحمل فلا انتظار لأن الأشهر التسعة هي المدة الغالبة وبه قال أبو عبيد والشوكاني.

مات حَشَّ ولدُها في بَطْنها ' أي يبِس.

ويقال: أحَشَّت المرأة فهي مُحِشٌّ إذا صار ولدُها كذلك. والحُشُّ: الولد الهالك في بَطْن أمِّه'[1]

ويكاد هذا الاعتقاد في الطفل النائم أو 'الراقد' في بطن أمه أن يكون عاما في البلدان الإسلامية. وهذا يعني تواصل الحمل إلى أكثر من تسعة شهور ويبلغ عند بعض الفقهاء إلى خمس سنين ولم تعتبر هذه الحالات عندهم كظاهرة بل حالة طبيعية لما جاء في التفسير وبعض الأخبار.

يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ سورة الرعد(8)'. وفسّر ابن عباس 'ما تزيد' بما أكثر من الحمل العادي[2].

لكن قد أنكر بعض المالكية[3] وابن حزم أن يكون هناك حمل أكثر من تسعة أشهر، فقال ابن حزم: '... ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر... فمن ادعى أن حملا وفصالا يكون في أكثر من ثلاثين شهرا، فقد قال بالباطل... وبعد أن ذكر جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من تسعة أشهر، قال: 'وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا

---

1 أنظر لسان العرب مادة ح ش.

2 جاء في تفسير الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ج 7 ص 2226 :
حدثنا علي بن الحسين ثنا علي بن عبد المؤمن ثنا المحاربي عن أبي خالد الدالاني عن زريق الجرجاني عن الضحاك في قوله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد قال ابن عباس ما تزداد على تسعة وما نقص عن التسعة . وفي تفسير البغوي : 'وقال الحسن: غيضها: نقصانها من تسعة أشهر والزيادة، زيادتها على تسعة أشهر.' ج 4 ص 298

3 فيشرح زاد المستقنع لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي في دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net : 'لا أقبل فوق تسعة أشهر، وهذا قول ابن عبد الحكم من فقهاء المالكية، وما بعد التسعة الأشهر لو طلقها وأبانها ثم ظهر فيها حمل؛ فهو لغيره وليس له.'

يصدق ولا يعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا.'[1]

وهذا الذي أكده لنا الأطباء فلا تزداد مدة الحمل عن شهر بعد موعده، وإلا مات الجنين في بطن أمه. وما جاء في الحكايات للطفل 'الراقد'، وأن الحمل عند امرأة استمر لسنوات... فهو من خيال النساء ويعرف ب 'الحمل الكاذب' وهي حالة تصيب النساء اللاتي يبحثن عن الإنجاب دون أن ينجبن فينتفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة بأنها حامل رغم أن التحاليل المخبرية والفحوصات الطبية تشير إلى أنها ليست حاملا.[2]

وفي السوس المغربي يقال له 'أمكسور'، عبارة تدل على إيقاف النمو بعد عاهة أو مرض الجنين وبمجرد مواصلة العلاقة الجنسية يُجبر 'الكسر' ويتواصل النمو.

لم يوجد أي دليل علمي يؤكد 'رقود' الجنين إلاّ أن الدراسات الحديثة أثبتت وجود الظاهرة بدون أي دليل ونقرأ في 'ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر' التي وقعت بين 11-12-13 – 04-2006.[3]

'والعجيب أن هذه النتائج التي توصلت إليها الدراسات الحديثة في المسألة لم تجاوز في مضمونها، ما قرره بعض فقهاء الحنفية بهذا المعنى وحملوا عليه روايات الحمل الممتد لأربع سنين، فقالوا: ... فإن غاية الأمر أن يكون انقطع دمها أربع سنين ثم جاءت بولد، وهذا ليس بقاطع في أن

---

1 أنظر لسيل الجرار للشوكاني 334/2

2 راجع : تفسير القرطبي: 9 / 288-289، أحكام القرآن لابن العربي: 3 / 1109، الدر المنثور: 4 / 609. المحلى لابن حزم: 10 / 316-318 خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار، ص (452-454).

3 عدد من العلماء والباحثين قام بجمعها وتنسيقها: بو إبراهيم الذهبي.

الأربعة بتمامها كانت حاملاً فيها، لجواز أنها قد امتد طهرها ... ثم حبلت، ووجود الحركة في البطن ليس قاطعاً في الحمل، لجواز كونه غير الولد، ولقد أخبرنا عن امرأة أنها وجدت ذلك مدة تسعة أشهر من الحركة و انقطاع الدم وكبر البطن وإدراك الطلق، فحين جلست القابلة تحتها أخذت في الطلق، فكلما طلقت اعتصرت ماء، هكذا شيئاً فشيئاً، إلى أن أنضمر بطنها وقامت عن قابلتها من غير ولادة [1]".

ونخلص من كل هذا إلى أن العقر ظاهرة بيولوجية عرفها البشر منذ القدم، وحاول علاجها بمختلف الطرق والأساليب التقليدية والحديثة. وليس موضوعنا الأساسي هنا هو معرفة الوسائل التي يستعملها الطب لعلاج العقر ولكن طبيعة موضوعنا الأنتروبولوجية تدفعنا إلى أن نلتمس في البشر سلوكات أخرى وطرقا مختلفة يؤسسها الاعتقاد في الغيب، والرغبة في تجاوز العقر، بشتى الوسائل التي هي من صميم المقاربة الأنتروبولوجية.

1 السيوطي ، شرح القدير 1797/945 طبعة رقمية.

ملخص :

يعد العقم من الكوارث عند المجتمعات العربية. ولذلك يسعى الفرد لتجنبه أو التخلص منه بكل الوسائل. وقد ظهر عبر الزمن مؤسسات رسمية وأخري شعبية وتقليدية للتخلص من العقم. منها ما هي مشروعة طبقا للعقيدة والأعراف ومنها ما هي مردودة شرعا وقانونا حسب المجتمعات. وقد تناول هذا البحث وسائل علاج العقم في المجتمع الجزائري، وسائل قد قاومت النسيان ولازالت مستعملة ووسائل أنتجها العلم والتكنولوجيا.

الكلمات المفتاحية: عقم- عقر- إنجاب- إنجاب مدعم طبيا- أم .

Résumé

La stérilité est considérée comme un fléau dans les sociétés arabes. C'est pourquoi l'individu est toujours en quête des moyens de s'en prémunir ou d'en guérir. Il y eut à travers les âges toutes sortes de procédés et d'institutions soit officielles ou traditionnelles pour prendre en charge les personnes stériles. C'est surtout la foi et les us de la société qui déterminent la voie à suivre pour décider de la meilleure thérapie légale. Cette recherche étudie cet itinéraire pour surmonter cette infertilité tant dévalorisante dans la société algérienne.

Mots clés : stérilité- infertilité- procréation- PMA- mère.

Abstract

Infertility is considered a scourge in Arab societies. That is why the individual is always looking for ways to protect themselves or heal. There was through the ages a variety of methods and institutions either formal or traditional support for the barren people. Especially the faith and the customs of society that determine the way forward to decide the best legal therapy. This research studies the route to overcome the infertility as demeaning in Algerian society.

Keywords : stérilité- infertilité- procréation- PMA- mother

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
جامعة تلمسان
كلية الآداب و اللغات

المُعتمَد في الاصطلاح

عرب علم

مجلة يصدرها مخبر

تعريب المصطلح في العلوم الإنسانية والإجتماعية

رقم الإيداع القانوني : 1542 - 2004
العدد : 7 - 8 السنة : جوان 2012
ISSN: 1111 - 1771

دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع
قطعة بودغن عين النجار تلمسان-الجزائر
هاتف/ فاكس:60-40-38-43 (0) 213 +
E-MAIL:KKOUNOUZ@YAHOO.FR
WWW.KKONOUZ.COM

المعتمد في الاصطلاح

مجلة يصدرها مخبر تعريب المصطلح في العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تلمسان

مدير المجلة: أ.د. محمد عباس

هيئة التحرير

*أ.د.محمد عباس
*أ.د.خير الدين سيب
*أ.بوضياف محمد الصّالح
* د.محمد مذبوحي
*د.ابن عزة عبد القادر
*أ.فتوح محمـــود

هيئة القـــراءة

*أ.د.محمد عباس
*أ.د.مختاري زين الدين
*أ.د.محمد محي الدين
*أ.د.باقي محمد
*أ.د.قدور إبراهيم عمار
*د.عوني أحمد
*أ.د.دكار محمد
* د.أحمد بوزيان

الهيئة الاستشارية

*أ.د.عبد الله بوخلخال(قسنطينة)
*أ.د.شايف عكاشة(تلمسان)
*أ.د.عبد الجليل مرتاض(تلمسان)
*أ.د.عشراتي سليمان(وهران)
*أ.د.عزوز أحمد(وهران)
*أ.د.عرابي أحمد(تيارت)

المحتـــويات

الموضوع	الصفحة
تصدير أ.د محمد عباس.....	أ
الأدبيةُ حَفْرٌ في المصطلحِ وبَيَانٌ للمفهومِ د. زروقي عبد القادر.....	01
المصطلح النّقدي اللغوي عند التوحيدي بين التحليل والتعليل. د. عبد القادر بن عزة.....	14
الأخر الاستشراقي بين ادوارد سعيد و تزفتين تودوروف " مقاربة ابستمولوجية" د. تاج محمد.....	20
البعد الديني والعلمي لمصطلح "الاستقامة" في كتاب سـيـبـويـــه د. عبد الناصر بوعلي.....	32
أثر القراءات في الوقوف القرآنية أ. موفق عبد القادر.....	41
الحضور و الغياب أ. قلايلية عمر.....	55
أثر منهج الخليل الصوتي في بناء كتاب العين من خلال الجزء الأول أ. العيمش محمد.....	61
الشرح الشعري ونظرية التلقي أ. بوترعة عبد الرحمان.....	72
التكامل المعرفي بين الأسلوبية و البلاغة و النحو (الإشكالية و التطبيق) د. حمودي السعيد.....	80
دراسة تحليلية لرواية الأرض والدم لمولود فرعون أ. بن خنافو رشيد.....	92
قاموس المصطلحات الواردة في أضواء البيان ومذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي أ. بوعمامة نجادي.....	104

مصطلح الأسلوب من منظور الباقلاني(ت403هـ)
أ. محمود فتـــوح..... 112

مصطلح البيروقراطية عند (ماكس فيبر) من المنظور الاقتصادي
أ. عباس عبد الحفيظ..... 122

مصطلح التّضامّ في ضوء نظريّة النّظم البلاغيّة
أ. بوضياف محمّد الصّالح..... 129

مصطلح السّخريّة و تجلّياته عند شعراء الرّفض المعاصرين
د. محمد سعيدي..... 138

منهج الإمام فخر الدين الرازي في التأليف
أ. خالد بلمصابيح..... 149

علم الصّرف العربي، ومدارسه القديمة والحديثة.
د. شـــــاكر عبد القادر..... 162

إشكاليّة المصطلح العلميّ الحديث في اللّغة العربيّة
د. عجّال لعرج..... 184

الخطاب: بين تلقي المعنى وتأويل فائض المعنى
د. عميش عبد القادر..... 199

المفهوم البلاغي الفني في الحديث النبوي الشريف
د. لخضاري عيسى..... 212

الواقعية في الموقف السياسي في رواية الكرنك
أ. الحاج لونيس بلخياطي..... 226

مفهوم المعنى عند عبد القادر الجرجاني في جدليته مع علم النحو
أ. فتيحة عباس..... 235

LE WAHY, révélation ou inspiration Ou la polysémie tendancieuse
BRAHMI Tahar 01

Sommaire

LE WAHY, révélation ou inspiration Ou la polysémie tendancieuse

01 ..... D.BRAHMI Tahar

LE WAHY, révélation ou inspiration Ou la polysémie tendancieuse.

BRAHMI Tahar

Doctorant. Université de Tlemcen. Faculté : Sciences humaines. Département : culture populaire.

Résumé

Le wahy, terme central du Coran et de la foi musulmane est le terme le plus controversé chez
les traducteurs orientalistes. Tantôt révélation tantôt inspiration, chacune d'elle connote tous les référents des traducteurs et des fois leurs intentions. Inspiration est utilisée souvent pour dénier au Coran son caractère divin et introduire d'une manière insidieuse l'humanité de son auteur.

Le terme en arabe admet les deux sens mais dans des contextes différents. La révélation exclue toute responsabilité dans la formulation et les préceptes véhiculés par le coran.

L'inspiration quant à elle admet les formulations par le prophète des idées inspirées, dans les hadith par exemple.

A travers l'analyse de plusieurs traducteurs, musulmans et autres le présent article tente de percer ce que tentent de répandre les orientalistes.

Mais certains d'entre eux, mus par une volonté purement académique utilisent judicieusement les termes dans les contextes qui les imposent.

Les traductions tendancieuses sont pour une grande partie dans ce ressentiment né en Occident chez le citoyen ordinaire à l'envers de l'islam, car imbu des idées qui lui sont fortement suggérées.

Mots clés : révélation, inspiration, foi, coran, islam, orientalisme, traduction

Le Coran a suscité, depuis sa révélation, la curiosité et l'intérêt de tous, Musulmans et non- Musulmans pour diverses raisons : L'ultime religion est censée rectifier ce qui a, selon les musulmans, altéré les croyances préexistantes des religions monothéistes ; réaffirmant l'unicité de Dieu, déjà annoncée dans la Bible et dénonçant la trinité « innovée » par des sectes chrétiennes et officialisée par des conciles (surtout celui de Nikkei en 325) et des édits impériaux.

La société nouvelle proposée par l'avènement du Coran va bouleverser complètement les modes de vie des Arabes en dénonçant leur polythéisme et les inégalités sociales prévalant chez eux. Ce qui eut pour effet des réactions de rejet, de déni et d'attaques depuis la première révélation jusqu'à nos jours.

Ces réactions ont revêtu plusieurs formes.

D'abord la violence et le fait de jeter l'opprobre sur ce nouveau messager de son vivant, puis le fait de semer le doute sur la véracité de son nouveau message.

Les oppositions violentes des premiers temps ont cédé le pas à des moyens beaucoup plus insidieux. Les « recherches scientifiques et archéologiques », les écrits d'universitaires sont mobilisés pour essayer de jeter le trouble sur ce texte et sur son messager, pour en donner une image défavorable au prix de contorsions historiques, linguistiques, sémantiques et sociologiques. C'est cet aspect que nous nous proposons d'étudier dans les lignes qui suivent.

Parmi les subterfuges « intellectuels » et trames ourdies, la mise à la disposition du public occidental de traductions du Coran qui ne résistent point à l'analyse sérieuse bien qu'accompagnées parfois de commentaires quand la traduction littérale ne suffit pas à atteindre l'objectif.

Nous allons tenter de souligner les intentions des traducteurs et les erreurs sémantiques que nous y avons rencontrées.

Il serait hasardeux de prétendre recenser toutes les erreurs commises (involontairement ou à dessein).Parmi les traducteurs nous trouvons ceux qui ont privilégié le style, s'éloignant ainsi de la littéralité dont d'autres sont restés prisonniers pensant respecter l'esprit et la lettre du texte coranique. Ils ont ainsi laborieusement usé d'un lexique loin de respecter les sens des termes couramment usités à une époque où l'arabe du coran était celui de la communication. Nombreuses aussi sont les traductions qui se sont basées sur les exégèses du coran appartenant au patrimoine islamique et qui étaient le résultat d'effort d'interprétation à des époques diverses. Les exégèses du Coran sont liées aux périodes où elles ont été formulées et donc fortement influencées par le contexte car les situations politiques et sociales de chaque période diffèrent. Les données scientifiques évoluent et à fortiori les traductions qui sont sensées êtres des exégèses qui, aussi proches soient-elles de la vérité, ne peuvent prétendre à une fidélité et à une exactitude qui rapporteraient la signification juste , cela si l'on admet la bonne foi et l'intégrité du traducteur. Nous pensons que c'est une des raisons qui ont conduit à des traductions erronées.

Hélas, ce n'est pas la seule; la mauvaise foi est souvent la motivation essentielle. Nous allons essayer de le montrer à travers la traduction d'un terme qui se trouve être le centre de toute la foi musulmane. C'est le terme de « Wahyy » dont les occurrences sont très nombreuses dans le texte sacré.

Le Coran, objet de la révélation, est la parole de Dieu et aucun musulman ne contestera cette affirmation.

C'est le produit d'une inspiration non divine ou les manifestations des états psychologiques de Mohammed, affirment les non musulmans.

Les deux parties se sont intéressées et se sont appliquées à la traduction du texte sacré mais selon que l'on appartienne à tel ou tel bord les traductions s'en ressentent.

Les premiers, mus par la foi sous-jacente à leur effort; les deuxièmes pour étayer des thèses a priori.

Le Coran dans sa version originale est la parole de Dieu révélée au prophète Mohammed (QSSL). Les traductions sont des énoncés, produits de l'effort d'interprétation humaine.

La lecture d'un musulman du texte original diffère de la lecture d'un non musulman d'une traduction par le fait qu'il n'émane point de cette dernière ce sentiment particulier qui envahit le lecteur musulman du texte

original. Ce sentiment ne saisit pas non plus le lecteur arabophone non-musulman et maîtrisant la langue arabe. Un chrétien arabophone lisant le

Coran dans sa version originale ne peut ressentir tout ce qui charge le texte d'affectivité. La foi influence le lecteur et par voie de conséquence la construction du sens lors de la lecture.

La traduction du texte coranique sera elle aussi influencée par le fait que le traducteur soit de confession musulmane ou non.

Les traductions existantes sont pour une grande majorité l'oeuvre de non-musulmans mus par des objectifs différents qui vont de la lutte contre une religion rivale à la traduction d'une oeuvre littéraire attribuée à un humain donc faillible et passible d'une critique humaine. Cette critique et l'étude moderne du Coran représentent un domaine presque exclusivement réservé aux orientalistes.

Le wahyy

Le wahyy, terme central du coran, est au coeur de la foi musulmane. Terme coranique par excellence qui bien que polysémique n'admet aucune équivoque pour le musulman pour qui les sens exacts et précis sont accessibles pour chaque occurrence dans le coran, mais qui présente quelques difficultés à rendre toutes ses connotations dans une autre langue.

Bien que présent dans le langage des arabes de la période anté islamique le wahy n'avait pas le sens exclusivement coranique que nous lui connaissons dans le texte sacré.

Dans son sens essentiellement coranique, le plus récurent dans le texte sacré, le Wahy est un mode de transmission et en même temps le contenu de cette transmission.

Mode parce que c'est le moyen choisi par Dieu pour communiquer avec ses prophètes et Contenu parce que c'est l'objet même de cette communication; ici le Coran dont il est devenu le synonyme. Il désigne en outre les autres écritures saintes (bible, évangile, psaumes).

Le wahy désigne non seulement l'essence du discours divin c'est à dire la

révélation/contenu mais aussi le lien qu'a établi Allah avec ses prophètes, c'est à dire la révélation/mode de transmission.

Il qualifie aussi les inspirations à certains prophètes ainsi que les nombreuses suggestions qui leur ont été faites ainsi qu'à d'autres créatures ; dans diverses situations.

Ce même signifiant pour plusieurs signifiés a fait dire aux auteurs de

le christianisme, entre
révélation (wahī). Il es
Cette affirmation est
coran » et qui dit : «
désignent pas par wal
parvenue ainsi que tou
Cette polysémie a don
des nuances du contex
souvent amalgamant l
Les deux termes les p
culture du traducteur :
La simple consultatio
existe entre les sens d
Pour le contenu et
l'expression
« wahyy/révélation »
».

Le Wahy/révélation

La révélation dans le
l'inspiration dans cer
l Encyclopédie Univ
Dans la Bible, le fait
; et le terme *gilouï* dé
La révélation suppos
ou le messager. Le
rêve, lesquels ne sc
interprétés.
Nous retrouvons ce
prophètes étaient dé
qu'ils changeaient d
Dans le Nouveau T
manifestation d'un «
temps et maintenant
La tradition juive
shekinah. La révéla
Dieu hors de soi dar
Toutes ces définitio
jour un objet matér
processus de dévoi
choisi par Celui qu
communiquer.

le christianisme, entre révélation et inspiration. Le texte inspiré s'identifie avec la révélation (wahī). Il est tenu pour avoir été dicté mot à mot à Mahomet »1
Cette affirmation est atténuée quelque peu par N.ldeke dans son « histoire du coran » et qui dit : « Nous souhaitons faire remarquer que les musulmans ne désignent pas par wahy le Coran uniquement mais toute inspiration qui lui est parvenue ainsi que toute injonction divine qui lui est adressée ».
Cette polysémie a donné lieu à des traductions quelque fois tenant compte
des nuances du contexte, d'autres fois inspirées d'une référence chrétienne, le plus souvent amalgamant les différents sens.
Les deux termes les plus usités pour traduire le mot Wahy doivent leur choix à la culture du traducteur : ce sont les termes de « Révélation » et « inspiration » .
La simple consultation d'un dictionnaire fait apparaître la différence évidente qui existe entre les sens des deux termes.
Pour le contenu et le mode de transmission nous allons convenir d'utiliser l'expression
« wahyy/révélation » ; dans les autres cas ce sera l'expression « wahyy/inspiration ».

Le Wahy/révélation

La révélation dans le coran est désignée par le terme « wahy » qui désigne aussi l'inspiration dans certains cas que nous verrons plus loin.
1 Encyclopédie Universalis.
Dans la Bible, le fait de la révélation est exprimé principalement par le verbe *galah* ; et le terme *gilouï* désigne le « **dévoilement** » de ce qui était caché.
La révélation suppose un processus psychologique chez celui qui en est le témoin ou le messager. Le phénomène le plus fréquemment évoqué est la vision ou le rêve, lesquels ne sont pas simplement donnés mais demandent toujours à être interprétés.
Nous retrouvons ce processus psychologique chez Ibn Khaldoun pour qui « les prophètes étaient débarrassés des caractères humains à l'instant de la révélation et qu'ils changeaient de nature » (Ibn Khaldoun 1967. P 98)
Dans le Nouveau Testament, la révélation apparaît comme une « apocalypse », la manifestation d'un « secret caché dans les profondeurs de Dieu depuis l'origine des temps et maintenant dévoilé » (Eph., iii, 5)
La tradition juive parlera d'un **dévoilement** (ou exil) de la présence : *gilouï shekinah*. La révélation n'est donc pas d'abord présence de Dieu, mais sortie de Dieu hors de soi dans le monde.
Toutes ces définitions ont comme terme essentiel « dévoiler » c'est-à-dire mettre à jour un objet matériel ou spirituel qui existait et qui était voilé ou dissimulé. Ce processus de dévoilement se fera nécessairement par un procédé ou un moyen choisi par Celui qui est source de ce qui est voilé et qui décide de ce moyen de le communiquer.

Le fait de regrouper en arabe sous le générique de wahy toutes ces interventions divines pour les différentes religions a attribué au terme une qualité multiconfessionnelle qui
désigne « le discours de Dieu aux hommes » et bien avant le Coran les Arabes de l'époque anté islamiques utilisaient le terme « wahy » pour désigner «l'information discrète » et l'inspiration des génies aux poètes et aux devins. Les livres des Anciens foisonnent de récits qui sont, pour beaucoup, à l'origine de la prédisposition des orientalistes à traduire systématiquement wahy par inspiration ou suggestion, d'autant plus que
le Coran n'a pas tu ce phénomène de la communication des « Jinn » aux hommes : « Les satans inspirent à leurs liges de vous porter la contestation.. » : (Berque 1990, p. 155). « Les démons font des suggestions à leurs alliés.. » : (Penot 2007, 6:112.) « Les tentateurs exciteront leurs clients à disputer avec vous là-dessus » (KASIMIRSKY 1840, 6:112). « C'est ainsi que nous avons suscité un ennemi aux prophètes ; parmi les tentateurs des hommes et des génies, les uns suggèrent aux autres le clinquant des discours éblouissants » (KASIMIRSKY 1840, 6:121).
Nous soulignons la diversité des traductions du mot wahy dans le même contexte chez les différents traducteurs et des fois chez le même auteur comme chez Kasimirsky pour les notes 5 et 6 de la même sourate (6: 112 et 6:121).

Le contenu

Le wahy/contenu est, le plus souvent, le Coran lui-même comme le montre si bien ce verset: « Dis : Il m'a été inspiré qu'un groupe de djinns s'exclamèrent à l'écoute [du Livre révélé] : Nous avons entendu une révélation (litt. : un Coran) étonnante » (Penot 2007, 72:1).
Le coran se lisait au panthéon tel quel, par les anges et d'autres « êtres » l'écoutaient et en étaient émerveillés, c'est celui-là même qui a été révélé au Messager Mohammed.
D'autres occurrences du terme wahy en tant que contenu, parole de Dieu révélée à son prophète parsèment le texte sacré comme dans les versets suivants : «C'est ainsi que nous t'avons révélé un coran arabe » (Coran 2002. 42:7).
Comme le wahy/contenu peut désigner une partie du coran soit un ou plusieurs versets; soit une ou plusieurs sourates comme dans ce qui suit : « Récite ce qui t'a été révélé du livre de ton Seigneur sans en modifier les termes » (Coran 2002. 18:27).
Sens répété dans le verset : « Récite ce qui t'a été révélé du livre » (Coran 2002. 29:45) ou, comme l'a si bien montré A. Penot dans un de ses commentaires lors de la traduction du verset 78 de la sourate 3 qu'il désigne comme révélation : « Cette **révélation** (Coran 78/3) concernait entre autre Ka'b bnou Al-Ashraf qui déformait sciemment les passages de la Thora … » 2

Le mode de transmission

C'est Dieu Lui-même qui nous apprend quels sont les moyens qu'il a décidé d'utilise pour entrer en contact avec ses prophètes et envoyés et de quelles

manières Il leur transmet ses préceptes. C'est dans le verset 51 de la sourate 42 qu'Il nous le dit : «Aucun humain n'a de capacité que Dieu lui parle, si ce n'est par révélation, ou de derrière un voile, ou par l'envoi
d'un envoyé: alors Il fait révéler sur Son ordre ce qu'il veut » (Berque 1990, 42:51).
En ce qui concerne ces modes de transmission nous les assimilerons à la communication d'un message dont Dieu serait le Destinateur initial et les prophètes les destinataires finaux selon un schéma bien connu des linguistes.
Le code est la parole directe et intacte mais sans que le destinateur apparaisse matériellement comme dans le cas de la révélation de la bible (thora) au prophète Moussa(Moise) : « Et Dieu a effectivement parlé à Moussa » (Coran 2002. 4 : 164).
Dieu a parlé à Moussa sur le Mont Sinai sans qu'il se laisse voir malgré la demande insistante de Moussa.
Le Message pourrait parvenir au destinataire selon un code différent, celui de la parole toujours mais par l'intervention d'un intermédiaire, généralement sous la forme ,un ange'd2 Il y bien un groupe qui déforme les Ecritures en ânonnant afin que vous preniez ce qu'ils disent pour des
Ecritures.
(Jibril/Gabriel) qui ramène le message et le récite au Prophète comme c'est le cas pour Mohammed pour qui Dieu a privilégié le 3ème mode, c'est à dire l'envoi d'un messager.
Ceci est conforté par le verset 97 de la sourate 2 que A. Penot traduit laborieusement ainsi: « Dis : Que ceux qui sont ennemis de Gabriel [sachent] qu'Il a fait descendre [le coran] dans ton coeur avec la permission de Dieu.. » (Coran 2002. 2 : 97).
Et commentant sa traduction du verset 23 de la sourate 81 : « Déjà il (Mohammed) l'a vu à l'horizon lumineux » A. Penot utilise le terme de révélation pour parler de l'opération de la transmission du Coran par l'Ange Djibril (Gabriel) et il dit : « Là encore une majorité de commentateurs pensent qu'il s'agit de la vision que le prophète aurait eue
de l'Ange Gabriel lors de la révélation... » (Penot 2007, p586).

Révélation ou Inspiration ?

L'Encyclopédie Universelle accentue dès le début de sa définition du terme « révélation » l'amalgame, très courant chez les orientalistes en procédant à un parallèle entre les concepts des différentes religions monothéistes. Il y est dit que l'Islam «ne distingue pas, comme font le judaïsme et le christianisme, entre révélation et inspiration.
Le texte inspiré s'identifie avec la révélation (waḥī). Il est tenu pour avoir été dicté mot à mot à Mahomet. ».
Tenant très peu compte de la polysémie des mots les auteurs de l'Encyclopédie Universalys concluent que le fait d'utiliser le même signifiant pour deux signifiés

Cette distinction est rapportée par John J. Robertson pour qui « Révélation » représente l'action divine comme destinateur d'un message à un prophète élu et «Inspiration » représente l'action divine sans l'intermédiaire d'un prophète. Le prophète serait alors, dans le premier cas, le messager de la révélation aux gens.
Ce qui est loin d'être vrai puisque le prophète a subit des inspirations par l'intermédiaire de Gabriel mais ce qui lui a été inspiré ne relève pas forcément du coran tel ce hadith : « L'esprit saint m'a inspiré (insufflé) qu'une être ne peut mourir avant d'avoir épuisé le bien qui lui écrit, alors soyez pieux »

Opposition révélation/inspiration

- La révélation ne fait pas appel à l'activité mentale de celui qui en est le destinataire, en l'occurrence le prophète. C'est une information transmise telle quelle sans qu'il y ait besoin de la formuler ou de la reformuler mais juste de la répéter, la lire pour la réciter.
- L'inspiration donne lieu à une activité mentale pour formuler l'idée qui a été inspirée
- La révélation se matérialise par la voix et la vision d'un intermédiaire entre la source de la révélation et la cible, cet intermédiaire est l'ange Jibril (Gabriel) et se traduit par des paroles compréhensibles.

- L'inspiration est une connaissance inconsciente qui s'impose à l'esprit et qui nécessite l'effort de l'interprétation et de la reformulation.
- Noeldke fait aussi cette opposition en avançant que la révélation était le privilège des prophètes (messagers) et l'inspiration était l'apanage des « walis » (marabouts). Ce qui n'est vrai qu'en partie puisque les prophètes sont aussi inspirés pour tout ce qui concerne leur conduite, leurs propos et pour tout ce qui n'est pas écritures saintes.
- La révélation doit être transmise aux gens alors que l'inspiration peut ne pas l'être.

Enfin , note Ibn Khaldoun dans la Muqaddima ; la révélation surprenait les prophètes : ni Moussa (Moïse) ne s'attendait à recevoir la Thora près du « buisson ardent » ,ni Aïssa (Jésus) ne s'attendait à recevoir la « Bonne Nouvelle », ni Mohammed n'avait pris rendez-vous avec l'ange Jibril pour écouter le premier message lui recommandant impérativement:
« Lis ».Alors que l'inspiration peut être préparée par des circonstances particulières et des signes avant coureurs. Et que les devins qui disaient être inspirés par des forces mystérieuses se préparaient physiquement et matériellement pour la rencontre avec le «génie » qui leur inspirait leurs propos.
Ce genre d'inspiration était commun chez les arabes (voir paragraphe suivant ce qu'en dit J. Chabbi).

Le wahyy : inspiration ou le déni de la révélation

Dans l'Encyclopédie Universalis, dont l'auteur fait référence à une culture

procède à partir de la Bible à un renouvellement de cette définition en reconnaissant que la révélation en premier lieu ne se donne pas comme une somme d'énoncés livrés par un intermédiaire, mais comme un acte de Dieu » .

Ce déni de « l'énoncé livré par un intermédiaire, tel que vu par le musulman est la source de beaucoup d'erreurs et a fait traduire le wahy par inspiration chez beaucoup d' « islamologues » orientalistes ou leurs disciples tel Moundher SFAR3 qui traduit « wahyy » par « inspiration » et dénie la révélation à Mohammed (qssl); cette compréhension est à l'origine d'une analyse complètement erronée qui lui fait dire : 3 Moundher Sfar écrivain tunisien refugié en France et auteur des ouvrages : *Le Coran est-il authentique* ? et *Le Coran la bible et l'orient ancien.*

« Mohammed n'a pas reçu la révélation, selon le mode de la dictée mais selon le mode de l'inspiration (wahy) » (Sfar 2000. P.12.). Nous voyons bien que la volonté de dénier la révélation comme mode de transmission est manifeste chez lui puisqu'il donne entre parenthèses sa traduction du mot « Wahyy » et omet de préciser le sens de révélation par le même procédé, omission bien tendancieuse à notre avis.

Il récidive en reprenant les mêmes termes : « Il est clair, dans ces conditions, que les paroles révélées à Muhammad ne sont pas le produit d'une dictée des paroles originelles, mais d'un processus plus complexe, celui du wahy ou inspiration » (*Ibid.*, P 90). Ces propos ont toutefois l'avantage de marquer la différence entre les deux nuances.

Cette dictée que SFAR récuse comme forme de la révélation, il l'affirme en traduisant les versets 6 et 7 de la sourate 87 : « Nous allons te dicter [le Coran] de sorte que tu ne l'oublies pas, sauf ce qu'Allah veut [faire oublier] ». Là ou A. Penot parle de « faire réciter » et J. Berque traduit les traduit « Nous te le ferons psalmodier, n'oublie pas ».

Kasirmisky, lui parle d'enseigner le Coran « Nous t'enseignerons à lire le Coran, et tu n'en oublieras rien, » SFAR va plus loin pour essayer de prouver le caractère humain de la révélation, il nous propose ce qu'il juge comme étant les sources de l'inspiration du prophète : « Autre épisode (du Coran) inspiré de l'Apocalypse d'Abraham, celui du sacrifice. Ici aussi nous voyons des éléments empruntés et utilisés dans un autre contexte et but. » (Sfar 1998, P. 248).

Argument qu'il réitère à la page 249 en donnant sa source pour les versets 75-78 de la sixième sourate « Une raison supplémentaire pour voir dans ces versets sur les astres disparaissant un épisode inspiré du récit de l'ascension d'Abraham » S'étant souvenu du titre de son ouvrage 'Le Coran, la Bible et l'Orient ancien', SFAR , en rapportant un récit babylonien traitant de la 'fabrication' de l'Homme , dit: « L'homme a été alors fabriqué à partir du mélange de l'argile et du sang d'un dieu sacrifié à cet effet.

Cette idée va inspirer en partie l'anthropogonie biblico-coranique » Terminons cette série de « sources d'inspiration» par le manichéisme que

SFAR juge être à l'origine des propos coraniques sur les êtres, les âmes et l'eschatologie. SFAR ne se distingue pas par ces allégations, d'autres avant lui se sont laissé allés à raisonner de la sorte et J.Chabbi rapporte qu'ils pensent que le Coran va beaucoup plus loin qu'une simple similitude avec la bible qui la donnerait pour sa source d' inspiration : « Les apports extérieurs ont tendu à faire passer le Coran pour une copie et une 'mauvaise copie' de l'Ancien Testament » .Pour se disculper des ces assertions et pour , apparemment, s'en laver les mains , elle fait suivre ces propos par son jugement qui chatouillerait l'ego d'un musulman : « On n'a guère aperçu que raisonner ainsi conduit à une impasse » (Chabbi2010. P 57).

Mais elle n'a pas dévié de la ligne qui fait du 'wahy' une inspiration en donnant une définition du terme dans le même ouvrage où elle dit à la page 500 comme note : « Le terme de Wahî est généralement compris comme « l'inspiration prophétique ». Elle fait dire au terme wahî dans son sens de révélation que c'est un mode de communication des Djinns vers "certains humains". On se demandera pourquoi l'auteur n'a pas retenu le terme « inspiration » puisqu'il était plus approprié car rappelant les « muses»(djinns) inspirant les poètes. Mais nous relevons que face au souci de la rigueur de la traduction elle transporte au français le verset 102 de la sourate XI : « Telles sont les nouvelles du destin(sic) que nous te **révélons** ». Qu'elle transcrit en caractères latins : « Tilka min anbâ al-ghayb **nûhîhâ** ilay-ka ».

Gaudefroy s'est presque indigné en rapportant la traduction de « wahy » de certains islamisants : « Des islamisants ont cru trouver dans le Coran des indications qui feraient croire que Mohammed (QSSL) a pensé voir Dieu. Ils traduisaient par 'Il indiqua à son serviteur ce qu'il lui indiqua' au lieu de 'Il révéla' ou 'Il inspira' » (Gaudefroy- Demombynes 1969, P. 73).

C'est une traduction fort singulière que de traduire « awha أوحى » par « Il indiqua » là où « Il révéla » s'imposait. La reprise de Gaudefroy aurait été fort opportune s'il n'avait pas ajouté comme autre possibilité « Il inspira » qui n'est pas de circonstance dans ce contexte où nous avons la forme de wahy comme communication « Il révéla » et comme contenu « ce qu'Il révéla ».

Gaudefroy utilise indifféremment « révélation » et « inspiration » pour traduire wahy.

Confusion que l'Encyclopédie universelle reproche aux Musulmans dans son article sur la révélation rapporté plus haut. Pourtant il rapporte clairement la distinction entre révélation et inspiration : « La doctrine musulmane a pensé qu'il a reçu désormais l'influence sous deux formes : la révélation proprement dite qui est l'Ecriture, le Coran, qui lui était apportée par l'ange ; et aussi une inspiration *wahy*, *ilhâm*, que Dieu fait descendre directement sur le coeur de ses prophètes. Celle-ci leur enseigne à diriger leur conduite et celle de leurs fidèles : elle est ainsi, pour Mohammed, la source de la tradition » (Gaudefroy-Demombynes 1969, P. 73).

Gaudefroy , utilise inspiration pour révélation afin de bien souligner qu'il n'adhère pas à« la pensée de la doctrine musulmane » la traduction qu'il a faite lui- même du verset 15 de la sourate 10 en utilisant « inspiré » à la place de « révélé » montre bien ce qu'il pense de « la doctrine musulmane » : « Dis : Il ne m'appartient pas de la changer de ma propre initiative. Je
ne suis que ce qui m'est inspiré ; et je crains, si je désobéissais à mon maître, le châtiment d'un Jour Formidable » A propos des lettres mystérieuses, ouvertures de certaines sourate Edouard Marie GALLEZ rapporte que « les scribes du prophète les notaient scrupuleusement, persuadés que toute parole sortie de la bouche du prophète, sous *l'emprise de l'inspiration* angélique était divinement révélée » (Gallez 2005b. P 47).
Gallez réfute même l'inspiration comme synonyme de révélation, il en parle comme étant un état psychologique sous l'emprise duquel le prophète énonçait le Coran.
En commentant la verset 16 de la sourate 75 qu'il traduit ainsi : « Ne remue pas ta langue en le (coran) récitant, pour aller plus vite » Gallez cite Maxime Rodinson : « Ces paroles ne sont pas très claires, mais il en ressort nettement que le prophète devait laisser l'inspiration *suivre son cours tumultueux* avant d'en exprimer au dehors la substance » (*Ibid.*, P 62.).
Comme précédemment Gallez insiste sur le fait que la révélation du Coran n'est que pur produit « exprimé au dehors » d'une inspiration psychologique tumultueuse « au-dedans ».
Ni Gallez ni Rodinson n'ont innové pour ce déni de la révélation en
l'attribuant à une inspiration sous l'emprise d'un état psychologique du prophète ; bien avant eux, Jean de Damas 'attribue le Coran à une inspiration de Muhammad simplement reçue durant son sommeil'.4
Le fait que le Coran soit un texte en langue arabe et que Dieu dit qu'il l'a transmis en arabe fait de la révélation une lecture d'un texte déjà écrit car il est difficile d'imaginer que ce sont des 'idées arabes » qui furent révélées car l'idée, le sens, le signifié ont des signifiants dans toutes les langues. L'idée peut être inspirée alors que le terme, le mot, ne peuvent qu'être communiqués si on veut préserver à la communication sa fidélité
« Récite ce qui t'est révélé de l'Ecrit de ton seigneur. Rien ne peut se substituer à ses paroles » (Coran2002. 18:27) ; ici injonction a été faite au prophète de ne rien modifier de ce qui est révélé et de le réciter fidèlement.

Le wahy = inspiration

Le wahy en tant qu'inspiration a été rapporté dans le coran mais dans des contextes différents : nous en donnons quelques exemples :
1. « Dieu a inspiré la mère de Moïse pour le mettre dans un berceau et le confier au Nil » (Coran 2002. 28 : 7). Cette inspiration s'est faite sans recours à la parole; Dieu lui a inspiré l'acte sous forme d'idée qui s'est imposée à son esprit; l'objet de l'inspiration n'avait pas une préexistence cachée que cette inspiration est venue

révéler et mettre au jour. La traduction du terme wahy, par révélation aurait été ici une grave erreur que seul Hamidullah et Kasimirsky avaient commise.

« Nous inspirâmes à la mère de Moussa » traduit A. Penot

« Nous inspirâmes à la mère de Moïse .... » dit J. Berque

« Et nous révélâmes à la mère de Moïse [ceci] » dit Hamidullah.

« Voici ce que nous révélâmes à la mère de Moïse.. » pour Kasimirsky.

4 Cité par J.M. Gallez 2005b. P72.

De même que Dieu inspira les apôtres pour croire en Aïssa (Jésus) et là non plus les traducteurs, mis à part Hamidullah, ne commirent point l'erreur en verset ont recours à la révélation puisque chacun d'eux traduisit la verset 111 de la sourate 5 par ce qui suit: Pour J. Berque : « Et que j'inspirai aux apôtres : 'Croyez en moi et à mon Envoyé... » Pour A. Penot : « Et lorsque J'inspirai aux apôtres de croire en moi et en Mon envoyé... » Si Kasirmisky n'a pas utilisé le verbe « inspirer », il n'a pas jugé utile d'utiliser celui de « révéler » mais il a rapporté le verbe « dire » et a placé du coup les apôtres aux rangs des prophètes : « Lorsque j'ai dit aux apôtres : Croyez en moi et en mon envoyé... » .

N'oublions pas que chez les chrétiens les apôtres, surtout ceux qui ont écrit les évangiles sont inspirés.5

Hamidullah a utilisé quant à lui le terme de révélation que nous jugeons inapproprié dans ce contexte : « Et quand j'ai révélé aux apôtres ceci ; 'Croyez en Moi et Mon Messager (Jésus) »

2. Sens que nous trouvons aussi dans toute situation dont l'action se fait sous l'inspiration de Dieu : A. Penot a traduit le syntagme « whyina » par « indications » en appelant à la rescousse le terme arabe wahy et l'équivalent qu'il a utilisé cette fois-ci à bon escient : « Construit l'Arche sous Nos yeux et selon Nos indications (wahî) (inspiration) ... » (Coran 2002. 11 :37).

J. Berque n'a pas chargé sa traduction de tant d'indices en disant : « construis l'arche sous Nos yeux et selon notre inspiration ... ». Là où kasirmirsky a dit, à tort d'ailleurs : «Construis un vaisseau sous nos yeux et d'après notre révélation ».

Hamidullah récidive en utilisant « révélation » : « Et construis l'arche sous nos yeux et d'après notre révélation » La traduction de Penot, bien qu'encombrée a le mérite de donner un sens différent de wahy/inspiration

3. « Dieu a inspiré les êtres animés et inanimés. Et ton seigneur a inspiré aux abeilles de prendre pour abri les montagnes, les arbres et les constructions. De butiner ensuite toutes sortes de fleurs et d'avancer, dociles sur les chemins de ton seigneur » (Coran 2002. 16 :68-69).

Dans ces deux versets le wahy est non seulement traduit par inspiration mais il revêt un autre sens, celui d'avoir doté cet insecte de l'instinct et des sens qui sont propres à la nature des abeilles comme il l'a fait pour toutes les créatures et Il nous le dit pour ce qui est animé dans la sourate Fossilate au verset 12et dans la sourate Taha au verset 50.

« Notre Seigneur, répondit-il (Moussa) est Celui qui a assigné à chaque

chose sa **forme**(*nature*) propre » (Coran 2002. 20: 50). Au lieu de **forme** J. Berques parle de *nature* pour traduire ce verset. 5 Timothée2 / 3 :16.
Et pour ce qui n'est pas animé, nous avons les versets suivants : « Il façonna sept cieux en deux jours et **inspira** à chacun d'eux sa mission » (Coran 2002. 41:12).
Même procédé chez A. Penot pour indiquer que l'inspiration est, ici, autre chose.
J. Berque va au terme adéquat « Il institua sept cieux en deux jours et pour chaque ciel en inscrivit l'ordonnance … »
Le prophète lui-même a eu ce genre de wahy/inspiration pour ce qui ne relève pas du Coran. Il le dit lui-même dans un hadith de Jarir Ibn Abdallah : « Le prophète a dit : Dieu m'a inspiré ceci 'Quel que soit celui de ces trois lieux où tu t'établiras, ce sera le territoire de ta hijra ».6
- Hadith divin dont les termes sont attribués à Dieu et qui nous sont rapportés par le prophète précédés par la formule « Le prophète rapporte les dires de Dieu» ou « Dieu a dit: « suivis de l'énoncé du hadith comme l'exemple célèbre »
- a dit dans le hadith sacré : « O Mes sujets, je me suis interdit l'injustice à moi-même et je vous la décrète illicite entre vous, alors ne soyez pas injustes entre vous»
- Hadith du prophète dont les termes lui sont attribués.
- Les actes du prophète qui lui ont été inspirés par Dieu et qui font l'objet comme les hadiths dits, de législation.
- Ses approbations devant les actes de ses compagnons.
Les songes que fait le prophète et qui lui font dire les hadiths; mode rapporté par Michel Aaron Weill qui, parlant de la révélation et comparant celle de Moussa (Moïse) avec les prophètes qui l'ont précédé, dit : « Les autres prophètes ne recevaient l'inspiration divine qu'en dormant, dans une apparition que la bible qualifie de songe ou de vision nocturne parfois aussi dans un sommeil diurne ».
Nul doute que Weill fait allusion à Abraham, Jacob et Joseph ... pour la distinguer de la révélation dont seul Moïse a eu le privilège d'après lui. Pourtant Werner Keller parle d'inspiration quand il s'agit de la bible , des psaumes et de l'évangile et il nous dit : « Juifs et chrétiens considèrent que ces livres, écrits de la main de l'homme, ont été inspirés par Dieu » (Keller 2005. P.8).
Le prophète Mohammed rapporte que le wahy/révélation avait débuté par le wahy/inspiration sous la forme de songes (Rou'ya) véridiques mais à
aucun moment il n'eut de discours coraniques par ce mode c'est à dire rêvé.
Le rêve avait besoin d'être interprété parce que le prophète qui l'avait fait avait vu des représentations symboliques qu'il devait interpréter Le soleil, la lune et les astres ainsi que les vaches maigres que Yousouf (Joseph) avait vus étaient successivement ses parents et les années de disette en Egypte) .
Il y eut d'autres personnages qui ont fait l'objet de songes prophétiques comme Marie, la soeur de Moïse (Moussa) qui eut le songe de l'annonciation de la naisance de son frère comme rapporté par Pseudo-Philon dans ses *Antiquités*

bibliques : «L'esprit de Dieu fondit sur Marie, une nuit et elle vit un songe qu'elle raconta le matin à ses parents ».

6 Hadith rapporté par Tirmidhi dans son Jaamîî.

Les motivations

Ce mode wahy/inspiration ne pourrait en aucun cas être le support de versets coraniques et c'est en partie ce qui a fait dire aux orientalistes et leurs disciples musulmans que le Coran a été inspiré et non révélé.

La plupart des orientalistes s'étant intéressé à l'Islam et à son Prophète sont de confession chrétienne ou juive à priori dont ils ne peuvent se défaire a marqué sensiblement leurs études. Il serait permis donc de suspecter une volonté manifeste d'avoir contribué à une traduction insidieuse déniant au Coran ses origines divines.

Mme J.

Chabbi ne s'embarrasse pas pour nous le dire :

« Après les anathèmes médiévaux et les sarcasmes dont elle fut longtemps accablée, il ne faudrait pas chercher longtemps aujourd'hui pour retrouver en nos contrées, vis à vis de la religion du Coran, les indices multiples et mal refoulés d'un rejet et d'un refus qui s'enracinent secrètement à un jugement d'insuffisance, de fausseté ou d'imposture » (Chabbi 2010, p. 59).

Alfred-Louis accorde tout un paragraphe aux « Scribes de l'inspiration » pour traduire les scribes du wahy : « Muhammed, dit-on (remarquer au passage le « dit-on») recevait des fragments « descendus » ou « inspirés » du ciel et l'un ou l'autre de ses scribes les prenait en notes, « il écrivait l'inspiration »7 (De Prémare 2004, p. 62).

Dans un autre ouvrage De Prémare ne put utiliser le terme d'inspiration mais bien« révélation » dans le même contexte mais il ne put résister à la tentation de rajouter des guillemets qui sont fort révélateurs de l'intention de l'auteur et il dit dans *Les fondations de l'Islam* : « Il est dit que Ubayy8 écrivait "la révélation" (al-wahy)9 reçue par Mohammed » (De Prémare 2002 , p 310).

D'autres usent de moins d'artifices pour exprimer clairement l'humanité du Coran et d'en attribuer la paternité à Mohammed (qssl) : « Le Coran doit être considéré comme l'oeuvre authentique et personnelle de Mahomet » (Lammens 2007. P. 49).

Tor Andrae non seulement parle d'inspiration mais attribue à l'auteur du Coran des attributs purement humains : « C'est un phénomène à peu près constant, que l'inspiration initiale devient peu à peu une suite d'idées largement contrôlées par la raison et la volonté » (Andrae 1945. P. 51).

Le rapport inspiration/idée est on ne peut plus clair.

La commodité de cette traduction sert avantageusement les orientalistes comme le dit Jacqueline Chabbi en définissant le Wahyy:

7 les guillemets sont de l'auteur

8 Ubayy ibn Ka'b l'un des secrétaires du prophète

9 Les guillemets et les parenthèses sont de l'auteur.

« [*wahî* : parole ou discours entendus de loin et façon rapide et indistincte, comme un roulement de tonnerre et signifiant qu'il ne s'agit pas d'une voix humaine; bien que commode et habituelle , la traduction par « inspiration » détruit la complexité et la spécificité de l'image initiale] » (Chabbi 2008. P. 81).

Relevons dans cette définition les termes « de loin » et « indistincte » que l'auteur a ajoutés à la définition du wahy rapportée par Aïcha, l'épouse du prophète.

Relevons aussi cet aveu que la traduction par « inspiration » est commode et habituelle mais qu'elle détruit la complexité (polysémie selon contexte) et la spécificité de l'image initiale que nous avions rapportée plus haut.

Et quand il ne pouvait plus se contenter de cette "commodité" et que le terme "révélation" s'imposait de lui-même, M. Rodinson ne put résister à la tentation d'atténuer le sens coranique du wahy/révélation en usant du wahy/inspiration en voulant parler de la nature de la révélation « La révélation se présentait sous forme d'une imagination intérieure qui ne s'exprimait pas en mots et quand la crise cessait, il récitait des paroles correspondant pour lui de façon évidente à ce qui lui avait été inspiré » (Rodinson 1994. P. 100).

Nous rencontrons, bien sûr, des intellectuels orientalistes sincères qui dénoncent les déformations de leurs coreligionnaires et nous n'en donnons comme exemple que cette remarque de Roger du Pasquier :

« Les études faites en Occident pour tenter de déterminer les sources où aurait puisé Muhammed ou de démontrer le phénomène psychologique par lequel il aurait tiré son inspiration de son inconscient n'ont jamais prouvé qu'une chose : Le préjugé antimusulman de leurs auteurs » (Du Pasquier 1984. P. 63).

Conclusion

La bonne et saine lecture du Coran contribuerait sans doute à le libérer de cet à-priori très répandu en Occident et qui à même de concourir pour une large part à la naissance et au développement de sentiments anti islamiques. Il est impératif que les intellectuels conjuguent leurs efforts à rétablir les écritures saintes dans leur statut de révélation divine provenant d'une même source donc complémentaires. Il n'existe pas de religion violente et d'autres pas, il existe des interprétations humaines faillibles et conjoncturelles. La révélation est la parole de Dieu transcrite dans la Bible, les Evangiles et le Coran par évolution successive. Depuis toujours Dieu a parlé aux hommes par révélation de son verbe ou par inspiration à des hommes élus.

Hicham Djait répond à toutes les allégations voulant dénier aux écritures leur caractère de révélation en l'opposant à l'inspiration : « ... le Qur'an ouvre des perspectives immenses à la connaissance de Dieu. Il ouvre également d'autres perspectives en raison de la structure directe de la révélation, parole de Dieu immédiate et non simple inspiration » (Djaït 1989. p. 40).

Bibliographie

- BERQUE, Jacques. 1990. *Coran* (traduction). Ed Sindbad.
- CHABBI, Jacqueline. 2008. *Le coran décrypté.* Ed Fayard.
- CHABBI, Jacqueline. 2010. *Le seigneur des tribus.* CNRS EDITIOND.
- DE PREMARE, Alfred-Louis. 2002. *Les fondations de l'islam entre écriture et histoire.* Le Seuil.
- DE PREMARE, Alfred-Louis. 2004. *Aux origines du Coran : questions d'hier, approches d'aujourd'hui.* Paris : Téraèdre.
- Djaït, Hicham. 1989. *La grande discorde.* Paris : Gallimard.
- Du Pasquier, Roger. 1984. *Découverte de l'Islam.* Paris : Seuil.
- Encyclopédie Universalis. URL : <http://www.universalis.fr/encyclopedie/revelation/>, consulté le 19/11/2011.
- GALLEZ, Edouard Marie. 2005a. *Le Messie et son prophète* Tome1. Edition de Paris.
- GALLEZ, Edouard Marie. 2005b. *Le Messie et son prophète* Tome2. Edition de Paris.
- GAUDEFROY-DEMOMBYNES, Maurice. 1969. *Mahomet.* Paris : Editions Albin Michel.
- IBN KHALDOUN. 1967. *Al muqaddima.* Traduction de Vincent Monteil. tomel.
Beyrouth : Ed. Commission internationale pour la traduction des chefs d'oeuvres.
- KASIMIRSKI, Mohamed Arkoun. 1840. *Le Coran* (traduction). URL : <http://www.portail-religion.com/lire/le-coran-traduction-de-kasimirski.html>
- KELLER, Werner. [1955]. La bible arrachée aux sables. ème édition : édition revue et augmentée. Coll : Tempus. 2005.
- LAMMENS, Henri. [1926]. *L'Islam croyances et institution.* Paris : éd. du Trident. 2007.
- Le Coran. 2002. version originale. Edition algérienne.
- PENOT, Abdallah. 2007. *Le Coran* (traduction). Edition Alif.
- RODINSON, Maxime. [1961]. *Mahomet.* Paris : Seuil. Coll : Points Essais. 1994.
- SFAR, Mondher. 1998. *Le Coran, la Bible et l'Orient ancien.* Ed Sfar.
- SFAR, Mondher. 2000. *Le Coran est-il authentique ?.* Paris : Editions Albin Michel.

république algérienne démocratique et populaire
université de tlemcen
faculté des lettres et des langues

EL-MOATAMED
en Terminologie

Arabo ilm

Revue du Laboratoire

L'Arabisation du terme en sciences Humaines et sociales

Dépôt légal: 1542 - 2004
Tome : 7 - 8 / Année: juin 2012
ISSN: 1111 - 1771

دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع
قطعة بودغن عين النجار تلمسان-الجزائر
هاتف/ فاكس:60-40-38-43 (0) 213 +
E-MAIL:KKOUNOUZ@YAHOO.FR
WWW.KKONOUZ.COM

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث لعلمي
جامعة سعيدة

التاريخ 2015/10/18

مخبر "تطوير" للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية

إلى المحترم : الأستاذ براهمي طاهر

شهادة نشر مادة علمية

1. تقدم إلينا الدكتور/ الأستاذ براهمي طاهر – بمادة علمية عبارة عن مقال بعنوان " **طقوس معالجة العقر – دراسة انتروبولوجية**"
2. بعد أن تم عرض الدراسة على المحكمين جاء تقرير التحكيم بقبول الدراسة للنشر في العدد المقبل من منشورات مجلة المخبر.
3. وهذه شهادة منا للاعتماد وإلى من يهمــه الأمر.

مدير المخبر
أ.د عبد الله موسى

الأستاذ الدكتور
عبدالله موسى

الطاهر براهمي
مدير التربية متقاعد استاذ
بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

طقوس لمعالجة العقر

ملخص

من الأمراض التي يستعصى على الإنسان معالجتها الأمراض النفسية و تلك التي لا يُرى سبيل إلى معرفة أسبابها. ورغم التقدم الطبي واستعمال أحدث التقنيات يبقى العقم من الأمراض التي يُلجأ من أجل معالجتها منه إلى وسائل غيبية منها ما لا يتقبله العقل السليم.
نحاول في هذا البحث إلقاء الضوء على ممارسات لم يقدر الزمن على القضاء عليها خاصة أن هذه السبل تستمد قوتها من الدين.
فمن الرقية الشرعية إلى زيارة أضرحة الأولياء الصالحين مرورا بالطب النبوي ينتقل طالب العلاج كيفما كانت مكانته الاجتماعية ومهما كانت ثقافته ومستواه العلمي.
يعتقد أن زيارة بعض الأماكن مثل المغارات والعيون والجبال لها قدرة علاجية لاريب فيها ويُشد إليها الرحال مهما كلف ذلك من أموال ومشقة.

مقدمة

منذ القدم ,و في كل مكان, استوقف ألَـمُ عدم الإنجاب الدين و الغيب. لَجَأ الإنسان إلى القوى الغيبية لإنجاب طفل وبالتالي استدعى الدين للوقوف إلى جانب المرأة العاقر, نخص المرأة دون الرجل لاعتقاداتنا التي تنزع إلى تحميل المرأة مسؤولية العقم قبل الرجل.

إن الاعتقاد في قدرة الغيب هو الذى يغذي الأنتروبولوجيا الطبية والأنتروبولوجيا الدينية اللتين تلتقيان في البحث عن المعجزات من أجل الإنجاب وفي دراسة الطقوس العلاجية وإقحام المعتقدات والممارسات الدينية في العلاج.

يكون مصدر المعتقد إما أفعالا دينية تنتشر بممارسات وتأكيدات من عناصر المجتمع ثم تتأسس كطقوس دينية إما نتيجة حاجة عاطفية أو نفعية يلبيها المعتقد بتوفير الشعور بالاطمئنان والسعادة والراحة البدنية والمعنوية والشفاء من كل داء.
ويعبر عنها بواسطة طلب غيبي, وهو بالنسبة للمسلم دعاء الله أو التقرب إليه بوسائل مختلفة شرعية أو غير شرعية ، مؤسسة بنصوص أو موروثة بممارسة عرفية كثيرة الإنتشار, وتكون تلك التي اسستها النصوص الشرعية من القرآن والسنة أكثر تأثيرا لأن في النصوص ما يجعل الجزائري المسلم يؤمن إيمانا قويا, كيف لا وهو يقرأ قوله عزوجلّ : "(***وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين الا خسارا***) ***الاسراء /82*** "
وقال ايضاً في كتابه الكريم : (***ءأعجمي وعربي قل هو للذين امنوا هدى وشفاء***) ***فصلت /44***
وعززه الرسول (ص) بقوله :
"إن الله عزوجل لم ينزل داء إلاّ أنزل له شفاء[1]
يستأنس الجزائري بهذا الخطاب ولا يتردد عند الحاجة في اللجوء إلى الله.
ويسعى الدين الرسمي لتنقية هذه المعتقدات, ويسعى الدين الشعبي ليثريها بالخرافات والصدف.
عبّرالإنسان عن الممارسات الدينية من جهة بواسطة معتقدات تبرز من خلال علاقة الإنسان بالغيب ومن جهة أخرى بواسطة الطقوس في أماكن مقدسة تجمع الإنسان مع المقدس ويعبِّر وجود الإنسان في هذه الأماكن، عن ولائه لهذه المعتقدات.

أصبح العقر بهذا المفهوم سببا لممارسة هذه الطقوس الدينية التي تظهر بواسطة المقدس ومرجعيته الخطاب الديني وخاصة المتضمن للقضاء والقدر، وقدرة الله على فعل المعجزات وعلى تفوقه على كل ما هو بشري في علاج العقر ولكن في نفس الوقت يكون العقر أسلوبا من أساليب عقاب الله على ذنب اقتُرف ويتطلب مغفرة الله حتى يرفع العقاب

يمثل الإسلام الرسمي للعامي في الجزائر الاعتقاد في الأساسيات المشروعة بالنصوص ويلتزم بها الجزائري بدون أي تخلّف مثل الصلاة ، الصوم،الحج،وكثيرا ما يقوم بها دون أي تفكير في أساسها وغاياتها ولكن ما يتعلق بالمعتقدات التي الصقها بالدين الرسمي تؤثر في ممارسته لكونها تنفعه عاجلا كما يظن أنها كحقيقة عضوية لها حميمية بذاته وجسده.
ومن هذا العلاج الذى ينتمي إلى الدين :
الطب النبوي , بركة الأولياء , الرقية, السحر[2]

1 الطب النبوى

لم يضع النبي (صلعم) قد وضع وصفات مسجلة ومدونة لعلاج مختلف الأمراض, لكنه كان ينصح هذا باستعمال كذا ويقول لهذا إيقرأ السورة الفلانية وما نصح به كان موجودا عند العرب (ما عدا القرآن). وكل ما عندنا من أقواله في هذا الشأن انتقي من الأحاديث وكوّن موضوع ما اسطلح عليه بالطب النبوي
وشاع مصطلح "الطب النبوي" وكثر مروجوه في السنوات الأخيرة في الجزائروفي غيرها، يُراد به سلسلة من الأحاديث النبوية موضوعها بعض الوصيا وبعض الإستعمالات للنبي صلى الله عليه وسلّم في مسائل تتعلق بالطب: من علاج ودواء ووقاية ورقية .

لم يكن هذا التعبير معروفا ولا مستعملا عند المسلمين الأوائل, وهو بالتالي مستحدث, ومن الأدلة على ذلك أن أول كتاب للحديث لصاحبه الإمام مالك بن أنس الموطأ لم يستعمل هذا التعبير ولم يخصص له بابا رغم ورود أحاديث عن المعالجة من العين، والرقية من الحمى والطِيَرَة، كما نجد أحاديث عن الطاعون.

وبعد مالك, البخاري و أبو داود وابن ماجه كلهم صنفوا كتابا أسموه "كتاب الطب" وذكروا فيه تلك الأحاديث المتصلة بالوقاية والعلاج وبعض الأدوية. أما الإمام مسلم فقد جمع كل الأحاديث المتعلقة بالعلاج تحت كتاب "السلام"، ضمّنه بابا سماه "الطب والمرض والرقى" وإلى جانبه أبواب أخرى عن السم والسحر والرقية والطيرة وغيرها. وقد جعل الترمذي عنوانا لكتاب "الطب عن رسول الله".

كما وردت أحاديث نبوية في شئون العلاج والتداوي ونحوهما أدرجها المحدثون تحت عنوان "الطب" كرابط جامع لجملة الأحاديث تلك. وهذا من أجل تيسير قراءة المؤلَّف, وهو اجتهاد من المحدثين ودليل هذا الإجتهاد عدم إجماعهم على مصطلح واحد.

إذن ما اصلح عيه بالطب النبوي ما هو إلاّ تصنيف مجموع الأحاديث التي تطرقت إلى مجال الصحة والتداوي وكانت بعض الوصفات معروفة لدى العرب قبل الإسلام.

يبقى السؤال :هل هذه الأحاديث المتعلقة بالطب أحاديث مشرِّعة أم لا؟. في الدين الشعبي الأمر محسوم فيه عند العامة (وهم الأكثرية) ويكفي أن ندرك ما جاء في هذه الأحاديث يُضفَي عليه طابع القداسة لكون مصدره هو النبي صلع.

ويبدو أن الحاديث المتعلقة بظاهرة "العقم" قليلة, ورغم ذلك فإن بعض «الطُّلبة» يمعنون في الوصفات أو في الترويج لطريقتهم العلاجية للعقر تحت عنوان "الطب النبوي» كما يبينه هذا الإعلان على الأنترنات وسوف يلاحظ مصطلحات حديثة جدا لم تكن تستعمل زمن الرسول (صلع)

ونلاحظ أن التعبير «طب نبوي» إنما شاع في القرن الرابع الهجري، فربما يكون لذلك دلالة؛

إذ إن هذا القرن شهد نهضة علم الطب على يد الإمام الرازي (313 هـ) صاحب كتاب الحاوي، وأمثاله، وذلك بعد أن أخذ الخلفاء في القرنين الثاني والثالث يهتمون بتنشيط العلوم، ولا سيما الطب، فاستدعوا إلى بلاطهم المهرة من أهل هذه الصناعة.
بل إن الملاحِظ الدقيق لبعض مصنفات الطب النبوي يجد أنها متأثرة في ترتيبها بكتبِ أمثال ابن سينا (428هـ) في كتابه الشهير "القانون"، الذي عُدّ فتحا في الطب كعلم له كلياته وجزئياته التفصيلية الشاملة، حتى كان المصدر الرئيسي لمهنة الطب، والذي لا يمت إلى الطب النبوي بصلة، فهو حصيلة تراكم معرفي لطب من سبقه وطب اليونان.

تحدث ابن القيم مثلا عن المرض وأقسامه والعلاج والتداوي، ثم عن العلاج بالأدوية الطبيعية، ثم عن هديه صلى الله عليه وسلم في علاج أمراض مخصوصة، بدون أن يرقي هذا إلى علم يسمى "طب نبوي"

ثم ذكر شيئا من الأدوية والأغذية المفردة.

لا ترقى كتُب ما يسمى بالطب النبوي، إلى مستوى "العلم" الشامل، بل هي شذرات من هناك وهناك، وهو في غالبه يدور حول توجيهات عامة، فهو لا يتضمن نظرية طبية محددة حتى يسمى علما، وإن كان حاجي خليفة قد بوّب له في كتابه "كشف الظنون" بقوله: "علم طب النبي عليه الصلاة والسلام" فإن ذلك لا ينطبق على العلم بمعناه الاصطلاحي، بل على المعنى البسيط الذي اشتمل عليه التصنيف، فإنه ذكر فيه مصنفات أبي نعيم وغيره ممن تلاه. وهو ما أكده طاش كبري زاده في مفتاح السعادة فقال: "علم طب النبي صلى الله عليه وسلم وهو علم باحث عن الأحاديث النبوية الواردة في طب المرضى".

ولعل ما قاله ابن القيم: "طب النبي متيقن قطعي إلهي صادر عن الوحي ومشكاة النبوة"
و في مجال الطب النبوي عثرنا على مخطوط للشيخ الهاشمي وهو شيعي المذهب يروي فيه أحاديث للنبي صلى الله عليه وسلم لم يدققها رواتها ويكتفي بعبارة «عن النبي صلى الله عليه وسلم» بدون أي سلسلة معروفة مما يقلل من الثقة فيها بالنسبة للعلماء و لكن هي كافية للعامة, ونذكر منها :

أ) *عن النبي (ص) :" اذا كتبت سورة ال عمران بزعفران وحملتها المرأة العاقر حملت بإذن الله تعالى" .*

وعنه (ص) :" من قرأ سورة ال عمران اعطاه الله بكل حرف امانا من حر جهنم وان كتبت بزعفران وعلقت على امرأة لم تحمل حملت بإذن الله تعالى وان علقت على نخل او شجر يرمي ثمره او ورقه امسك بإذن الله تعالى » .

الملاحظ ان تأثير السورة المباركة هو التثبيت بدلالة ما يحصل للنخل والشجر وهي اذن تنفع لمن تنزل عندها البويضة قبل الاخصاب وكذلك لمن يسقط عندها الحمل . والظاهر ان المبيض إذا كان لا ينتج أصلا فتحتاج إلى علاج اخر بسورة اخرى او آية كما سياتي

ب) للشيخ البهائي في مخطوط أن المرأة التي لا تحمل تكتب قوله تعالى : (ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا) بالأحرف المقطعة على جانب بطنها الايمن .
قال مؤلف الكتاب المخطوط جربته" تسعمائة امرأة" .
وقد اعطيت هذا لامرأة من ارحامنا لم تحمل سنين فحملت بتوأم ذكراً وبنتاً وهما في احسن حال .
واشترط صاحب الكتاب ان تأخذ خروفا سمينا اسود لا عيب فيه ولا يقل عمره عن ستة اشهر ويذبح في مكان مسقف ويطعم لحمه لأربعين من المؤمنين قبل كتابة الآية فإنها ترزق بولد ذكر .
وتكتب الآية هكذا : (و ل و ا ن ق ر آ ن ا س ي ر ت ب ه ا ل ج ب ا ل ا و ق ط ع ت ب ه ا ل ا ر ض ا و ك ل م ب ه ا ل م و ت ى ب ل ل ل ه ا ل ا م ر ج م ي ع ا) .
ويكتب باي قلم امكن ويبقى عليها حتى تزول الكتابة من تلقاءها بحيث يحدث الوطء خلال ذلك .

ج) وروي أن المرأة التي لا تحمل يكتب لها هذه الكلمات وتعلقها عليها وهي :
(هو هو هو هو هو هو هو الله الله الله الله الله الله حي حي حي حي حي حي حي قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم قيوم وصلى الله على محمد واله اجمعين) .
اقول : كل واحدة تكتب تسع مرات كما هو واضح .

د) . وروي ايضاً إن المرأة التي لا تحمل تكتب آية : (فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربَهما لئن اتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) .
وان يجامعها زوجها في اخر الشهر .

هـ) . وروي ايضا : ان تكتب الآية الكريمة في سورة يس :
(وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين 120 يس.
وتشد على عضد المرأة الأيمن ويجامعها زوجها يوم الخميس عند الزوال.
وللوقاية من العقم يوصي صلى الله عليه وسلّم بمنع العروس من اكل التفاح الحامض والكزبرة والخل والالبان لمدة اسبوع . في وصاياه لعلي كرّم الله وجهه:

"يا علي امنع العروس في اسبوعها من الالبان والخل والكزبرة والتفاح الحامض من هذه الاربعة اشياء فقال علي (ع) يا رسول الله ولأي شيء امنعها من هذه الاشياء الاربعة ؟"

قال (ص) : لان الرحم تعقم وتبرد من هذه الاربعة اشياء عن الولد والحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد. وقال (ص) : (البنات حسنات والبنون نعمة فالحسنات يثاب عليها والنعمة يُسئل عنها) .
كما ينصح البعض بالاكتفاء بالدعاء. وخصصوا للإنجاب ادعية الواردة في القرآن والتي جاءت على لسان الأنبياء ونذكر منها :
يقول عزّ وجلّ على لسان زكريا :
« قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً »(مريم/4-6)
يبيّن النبي زكريا عليه السلام حاجته الماسة الى من يرثه لبلوغه مرحلة الشيخوخة ويرث الرسالة، ثم طلب ولياً مرضياً.
وقال أيضا
« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » (الصافات/100)
وجاء كذلك في القرآن
« وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ » (الأنبياء/89) وقال عزّ وجلّ « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ »(آل عمران/38)

2 البركة

قبل أن نتعرّض لتعريف البركة نرى من الضروري أن نشير إلى ما يدّعي بعض الأشخاص من امتلاكهم لسلطة أو قدرة شفائية لا يوجد لها تفسير ولا تبرير من الجانب العلمي. ولكن ما هي هذه السلطة الشفائية ؟

يمكن تعريفها بالقدرة على تغيير مجرى الأحداث الصحية ويشمل هذا التغيير على الطبيعة ,وعلى العلاقات بين البشر وهذه الطبيعة وعلاقات بين البشر بينهم.

القدرة على الشفاء ليست مجرّد عملية آلية أو فعلا تقنيا. وقد بيّن فوكو أنه لا توجد قدرة بدون معرفة والعكس صحيح. تتأسس علاقات القدرة على نسب : تحتكرها إما القدرة وتجهلها المعرفة أو العكس.

لا تتميز سلطة الشفاء, في المجتمعات التقليدية عن الأشكال الأخرى للسلطة مثلما لا يتميز العقر عن الأشكال الأخرى للمصائب, سلطة الشفاء أو القدرة عليه أمر شخصي, غريب, ولا يتجزأ.

أولا هو شخصي كونه مرتبطا بشخص وليس بوظيفة وينتقل من شخص إلى آخر بطرق متفق عليها وليست اعتباطية كما سنبينه لاحقا. فهو إذن قابل للتوريث.

ثانيا القدرة غريبة بالنسبة محاطة بالسرية التامة, غامضة, مبهمة في نظره, مستعصية على التفسير.

وثالثا السلطة غير قابلة للتجزئة لكونها لا تنفصل عن القدرات الأخرى لصاحب السلطة. إنه يؤثر في مجالات وميادين أخرى للمجتمع حتى ولو لم يحتاج إلى تدخله. فسلطته تجعله يتبوء مكانة مميزة في المجتمع.

أما في المؤسسات الرسمية فإن سلطة الشفاء تنتقل من كونها "غريبة" إلى واضحة ومقننة و يتحول الأمر من "شخصي" إلى مهني, ومن موحدة و"غير مجزأة" إلى مفصّلة ومخصصة.

أ) تعريف البركة

مفهوم البركة في الإسلام : نعمة إلهية فهي ظهور الخالق في حياة المخلوق بكيفية نفعية للمخلوق.

فهي كذلك قوة فاعلة غيبية واستعمل المصطلح بصورته الصوتية العربية (la Baraka) في لغات غير العربية وارتبطت بمفاهيم أخرى مثل الحظ .

وفي هذا البحث سوف نحدد المفهوم في بُعده العلاجي وخاصة علاج العقر.

هل البركة معتقد اسلامي ؟

ينفي العامة البركة لغير المسلمين ولكن المعتقد يوجد عند غير المسلمين, ويرادف المصطلح في اليهودية "باروخت" وفي المسيحية "قراس إلهية" (grâce divine)[3] وكثيرا ما نجد أن نفس الشيء متفق على بركته في ديانات مختلفة. كما أن مفهوم البركة متواجد في فضاءات ثقافية مختلفة جغرافيا

ب) كيف ينشأ الإعتقاد في أن الشيء ضارّ أو نافع ؟

1 العلاقة والصدفة:

يمكن أن يكون الإنسان مريضا ويأكل أو يشرب, أو يقوم بزيارة أو يقوم بفعل ما ويشفى من مرضه ولو لم تكن له نية التداوي, ويكون هذا مجرّد صدفة فيربط الشيء بالشفاء وكلما مرض بنفس الداء لجأ إلى نفس الشيء حتى يصبح الشيء هو الشافي في اعتقاده وينقله إلى كل من تعرض إلى نفس الأعراض.فرضت الصدفة إقامة علاقة غير مبرهن عليها بين السبب والنتيجة.

2 الشيء المشترك في نتائجه باستعمال الحواس :

يتطير الناس من كل ما هو مرّ , حارّ أو لون غير زاهٍ ويتفاءل بما هو حلو, بارد, لون أبيض أخضر. هذا كان عند البدائي الذي كان تفكيره مرتبط كثيرا بما يصحب الفكرة من ممارسة أو شيء ملموس ولكن بقيت الخصوصيات الشفائية للأشياء وحاول الإنسان أن يطفئ عليها ما يبررها وهكذا نرى الإنسان الحديث يحاول أن يكشف سر المواد العلاجية بإخضاعها إلى تحاليل علمية مبرزا مركبات المادة المستعملة. مثل ما دفعه التطور الفكري إلى البحث عن أسباب معقولة. دفعه الدين إلى البحث عن المبررات الشرعية لاستعمال ما يستعمله للعلاج وأصبح يشترط للقيام بممارسة علاجية بعد الأوقات أو حالات دينية محضة مثل شراب الدواء الفلاني بعد صلاة المغرب أو أن تكون على طهارة أو أن تصوم يومين أو ثلاثة أيام.

3 كل ما هو مذكور في النصوص الدينية (قرآن , سنة) ويكون مرتبطا بشفاء (عسل, تين, زيتون, رمان)

ج) أصحاب البركة

الإنسان (الأولياء الصالحون) الحيوان النبات(الأشجار) والجماد (الحمامات والعيون)
= **الإنسان** (ونلاحظ أن الرجال أكثر عددا من النساء)

عندما نتحدث عن بركة الإنسان تبادر إلى الأدهان كرامة الأولياء الصالحين عند القائلين بوجود الكرامة للولي. ولكن يتوجّه الكثير من الناس, سواء في البادية أو في المدن إلى معالجين "مداويين" أشهرتهم الحكايات المتداولة عن قدرتهم العلاجية العجيبة لأمراض استعصت على الأطباء الرسميين. وعند سؤالك لأسباب هذه القدرة فالجواب الوحيد هو أنهم يملكون "البركة". بديهية هذا الجواب تفسّر وحدها كل طبيعة الفعل العلاجي التقليدى. إن البركة تشفي العاقر وتضفي على أصاحب البركة "معرفة" يُؤمن بها كل من اتجه إلى الإستفادة منها.

تتبوأ البركة مكانة مرموقة فى قلب النظام الطبي الشعبي.

د) اكتسابها

كل "شريف" منحدر من ذرية الرسول مُحمّل ببركة انتسابه الشريف, كما يكتسب البركة إنسان غير 'شريف' اشتهر بالعمل الصالح و بتقواه وعبادته, خاصة إذا كان في خلوة أو زاهدا. كما يمكن لإنسان (رجل أو امرأة) اكتساب بركة علاج العقر بواسطة رؤية لولي صالح (وأحيانا رؤية رسول الله صلعم) يطلب منه أن يساعد الناس بعلاجهم بالوصفة التي تملى عليه في المنام. هذه الطريقة منتشرة جدا ونشك في صدق من يدعي البركة بهذه الطريقة.

كما تتحول الكفاءة والمهارة إلى بركة بحيث يوصف الطبيب الفلاني بكون له "يد مبروكة" إذا ما نجح في تشخيص المرض وإعطاء وصفة تحمل بعدها من كانت عاقرا.

من البركة كذلك ابتداء كل فعل بالبسملة وكما الأكل باليد اليمنى يكسب البركة, كما يزيد من فعالية الدوى الموصوف من عند طبيب إذا ما تناولته العاقر بعد البسملة فهو يهيئها ويضعها في نفسية متفائلة.

ه) انتقالها

للأولياء الصالحين بركة اكتسبوها بعدة طرق منها الوراثة وهي الطريقة العمودية ومنها غير الوراثية وهي الأفقية

1) الاكتساب العمودي

الحالة الأولى : تنتقل البركة من الأب إلى الابن بعد وفاة الأول تلقائيا, وناذرا ما تستفيد البنت من هذا الإرث.

الحالة الثانية : تنتقل كذلك بإرادة الوالد أثناء حياته وهذا:

ا) بتلقين الولد بعض النصوص (قرآن وأدعية بترتيب معين) تكون سرا لا يجب أن يفشى لغير "مستحقيه" ويقال بالعامية "دّا عليه السر" لكون عملية تلقين الممارسة أوالكلام دائما سرية. ويمكن أن تكون البنت هي وارثة البركة في عدم وجود الوارث الذكر.

ب) بدعاء من الولي الصالح لأبنه أو غيره كما سنبينه في ذكر سيرة سيدي قادة بن مختاربولاية معسكر.

تصحب هذا الانتقال مجموعة من الطقوس (اغتسال, وضوء, صلاة, صوم) ويختار الزمن المناسب (بعد صلاة الجمعة, أو في رمضان) ويجب حضور شهود من أعيان القبيلة أو العائلة الكبيرة وكلهم ذكور. ويختص الشرفاء من ذرية النبي صل الله عليه وسلم بالحالة الأولى ولا تحتاج إلى الطقوس الموجودة في الحالة الثانية التي تعم كل ذي بركة من الأولياء الصالحين غير المنتمين إلى ذريته صل الله عليه وسلم.

2) الاكتساب الأفقي

يختلف هذا الانتقال عن سابقه كون البركة ستمس كل ما كان له اتصال مباشر أو غير مباشر بصاحب البركة. ويشترك في هذا النوع الإنسان والأشياء. يكتسب البركة الإنسان الذي مسح الولي الصالح رأسه أو نفت في فمه أو ضربه. كما تكون البركة في صحن أكل فيه الولي الصالح ويستعمل فيما بعد لإطعام العاقر أو سقيها.

وتكتسب عصا الولي الصالح بركته وتمتطيها العاقر عدة مرات مستظهرتا بعض الأدعية وآيات قرآنية وسمعنا في قرية بريزينة بولاية البيض أن يمكن ضرب العاقر ضربا خفيفا لإخراج مسبب

العقر الذي يكون دائما جنيا.
كما تنتقل البركة إلى لباس الولي الصالح أو ما استعمله من أواني أو حذاء أو سوط. وقال لنا رجال في مدينة الأبيض سيد الشيخ أن لأثر رِجل بغلة سيد الشيخ شأنا عظيما وأحاطها سكان المدينة بحجر جعل منها "حُوَيطة" تزار.
تكون بركة الولي الصالح حتى في سؤره ويتسارع الناس إلى شرب ما تبقى من شرابه أو أكل ما فضل من طعامه ولعلى ما وقع لنا شخصيا مع رفاق ولي صالح أوضح مثال لما نقوله[1].

و) فسادها

لا تحوّل البركة صاحبَها إلى ساحر دائم القدرة على العلاج, ولكنها يمكن أن تغادره في بعض الحالات. تفسد البركة بالأعمال غير الشرعية, بالفسق بالكذب أو بمحاولة استعمالها في غير الأهداف الشرعية.
كما تفسدها الأشياء النجسة (دم الحيض) ولعل هذا ما يبرر قلة النساء صاحبات البركة وإن وجدت فهي ذات سن متقدم من اللواتي يئسن من المحيض.
تجدر الإشارة إلى أن الرجال هم الذين احتكروا هذا النوع من البركة رغم أننا لا نوجد في النصوص الشرعية ما يمنع المرأة من أن تكون ولية صالحة فلم نجد إلاّ أسماء قلية جدا بالمقارنة مع الأولياء الرجال. ونذكر منها للّة خديجة التي سميت بها جبل من جبال جرجرة في القبائل. وللّة فاطمة نسمر الشهيرة بمقاومتها الاحتلال. كما يوجد بتلمسان لالّة ستي وللة مغنية وهذه الأخيرة لها تحويطة بالمشرية في ولاية النعامة وللّة صفية ولية أولاد نهار.
كما نجد في الصحراء لالة عائشة بنت الشيخ بالقنادسة في ولاية بشار ولالة مورة بتاسفوت في ولاية أدرار. ولكن الوليات اللواتي يُقصدن لم نعثر منهن إلاّ على اثنتين : الأولى للة مغنية بالمشرية التي تتداول النساء بركاتها في مجال الإنجاب وتزار تحويطتها في أسفل جبل عنتر[4]
والثانية ذكرها دوتي في كتابه "المرابطون" حيث نقرأ : "يوجد في أعلى قمم جبل بوزقزقة, بالقرب من الجزائر العاصمة ضريح للة تمسقيدة الذي تزوره النساء طالبات الإنجاب"
العدد القليل جدا من النساء الوليات الصالحات يؤكدّ رجولة هذا المجال إلاّ أن الزوار والمترددين على الأضرحة هم من النساء في أغلبية تكاد تجعل من هذا السلوك سلوكا نسائيا محضا.
كما نلاحظ أن البركة, بخلاف السحر, تجلب لصاحبها الاحترام والتقدير وتكاد تضعه في آفاق القدسية, أما السحر فيسبب لصاحبه النفور والخوف منه.
= الحيوان : وضع حول "أثر"بغلة سيدي الشيخ بولاية البيض حويطة تزار لترجّي الشفاء كما كان سبع سيدي محمد بن عودة يرافقه في تنقلاته وله من البركة ما لسيدي محمد بن عودة وكان يحتمي به في كل الحالات[5]
= **النبات** (الشجر وبعض النباتات المشهورة)
ينشئ الإنسان علاقات بين الأشياء والأفعال وكثيرا ما يعتقد أن الشيء مسبب للفعل الناتج عن وجود الشيء وبالتالي اعتبر كثيرا من الأشياء رموزا لما يرضيه أو يسيئه ومن هذه الرموز الشجرة التي اكتسبت عند الجزائري مكانة مرموقة لعدة أسباب منها :
أن الشجر وخاصة بعض الأنواع مذكورة في القرآن واكتسبت بركتها من ذكرها بالخير من طرف الله (التين, الزيتون, النخل , الرمان, العنب) وبركتها مصرح بها في سورة النور:
(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

---

[1]" دعينا إلى مأدبة عشاء بفلوسن بولاية تلمسان حيث كان الضيف الأساسي هو وليا صالحا قادما من جنوب الجزائر وكان لنا به صلة شخصية وقديمة, طلب أن نشاركه المائدة مع مجموعة من شخصيات أتت من وهران خصيصا لزيارته وكوّنا مجموعة من خمسة أفراد كانوا ذوي مناصب توحي أن ثقافتهم ليست بالمتواضعة (قضاة ومحامي). عند تناول الحساء اكتفى الشيخ بملعقة أو اثنتين ثم أبعد "الغرفية" التي اختطفها ألمدعو الذي كان على يسار الشيخ خطفا وتحسي منها ثم ناولها جاره الذي فعل مثله وناولنا إياها بدوره ومررنها إلى جارنا الذي استغرب عدم احتسائنا منها وقال لنا " ما تاكلش من بركة الشيخ ؟ " وأرجع إلنا "الغرفية" وأخذنا منها ملعقة "للبركة" وناولها الأخير إلي أصحاب المائدة المجاورة الذين فعلوا بها ما فعله رفقائي. »

نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)).

أن الشجرة كانت في أغلب الأحيان مأوى الأولياء الصالحين وهنا كذلك نجد أن بعض الأشجار هي التي فضلها الأولياء مثل نخلة سيدي لخضر بن خلوف

علاقة الأشجار بالأنبياء والرسل ومن اصطفاهم الله (مبايعة النبي (صلع) كانت تحت الشجرة مخاض السيدة مريم لميلاد سيدنا عيسى عليه السلام كان تحت نخلة.
كما أن رمزيتها تكمن في كونها تمثل الحياة بنموها بتجديد أوراقها وبدورية عطائها للثمرة كما أنه يوجد في الشجرة كل عناصر التكاثر.
والتسمية عند سكان الصحراء الجزائرية للعملية تلقيح النخيل هي "التذكار" ويقال "نذكّر" النخلة أو "الكرمة" أي شجرة التين. ومنها كيفيات لعلاج العقر عند المرأة "ذكّار " النخيل.
اكتسبت الشجرة رمز الخصوبة عند عدة قبائل ونذكر المسلمات الإيرانياتاآلائي كن يرسمن وشما يمثل شجرة على جسدهن ينطلق من أسفل البطن, مكان الولادة وتتفرع لتصل إلى الثديين مكان التغذية. وهذا حتى تكثر من حظوظ الإنجاب. كما يسهل لزائر الجزائر أن يصادف بعض الأشجار تحمل على عروشها قطعا من القماش الأحمر علقتها نساء طالبات الإنجاب والملفت للانتباه أن هذا الاعتقاد منشر في كل بلدان الحوض المتوسط وكذلك في الهند.
فالشجرة هي رمز الخصوبة لكونها تمثل في شكلها علاقة وتسلسل النسب بجذرها وفروعها وحتى في تبيان النسب تدرس شجرة العائلة أو القبيلة من الجد الأول إلى الخلف الأخير ويحتفظ بها.
و يوجد في كثير من المعتقدات أن بعض المخلوقات الخفية اتخذت من الأشجار مأوى لها ويمنع تأذية هذه الأرواح باقتلاع الشجرة التي كان يطلب حماها ومساعدتها في قضاء الحوائج ومنها الإنجاب وصادفنا مثل هذه الأشجار شجرة لم يجرء أحد على نزعها خاصة وأن مشروع تمرير طريق وطني يستلزم قلعها واكتفت السلطات بتمرير الطريق جانب الشجرة.
و مثل هذه الحلات صادفناها عدة مرات في سيدي بلعباس و مستغانم وغليزان وغيرها

= الجماد (العيون, الحجارة, الأشياء التي مسها ولي صالح أو لبسها أو أكل و شرب فيها)
يكاد الاعتقاد في المياه المقدسة (عيون، آبار، وِديان ...) أن يكون عالميا وتقريبا لنفس الغايات والتي يمثل فيها طلب الإنجاب أكثر من 50 % إلى جانب علاج الأمراض الجلدية والعضوية الأخرى.
وقد أصبح الماء موضوعا للإعتقاد واتُبر "مساعد الخصوبة" لكونه الرمز الكبير لخصوبة الأرض, ولولاه لما نبت شيء ولما كانت الحياة وجعل الله " من الماء كل شيء حي " فهذا الرمز للماء وهذه الصفة يضفيان على العيون والآبار هذه البركة التي تبحث عنها كل امرأة طالبة للإنجاب.
فمن المياه المباركة مثل ماء زمزم الموجود بالمسجد الحرام بمكة إلى عين سيدي كنون بتلمسان وتكاد الأرض تحتوي على عناصر عين في كل مكان.
كثيرا ما ينفجر الماء بقدرة الهية يتسبب فيها نبي أو ولي صالح تفجر فزمزم تحت ضربات سيدنا إسماعيل وهو طفل صغير وسيدنا موسى فجر 12 عينا بعصاه وشاع أن كثيرا من الأولياء الصالحين فجروا العيون بضربة عصى.
و مياه العيون هي الأخرى ذات بركة, خاصة إن كانت متواجدة بأماكن لها صلة بولي صالح. إمّا أن فجّرها إمّا أنه استسقى منها أو توضأ أو حتى ورّد دابته.فإن البركة تعدّت إليها وبقيت حتى بعد ذهاب الولي الصالح. وأصبحت هذه المياه ذات مفعول ألصقته بها الذاكرة الشعبية فمنها ما يقصد لإستشفاء أمراض الجلد أو أمراض عضوية, ومنها ما يجعل العاقر "تحمل" إمّا بشرب الماء أو بالاغتسال أو مسح البطن به.
و ذهب كثير من الناس إلى حمل الماء في قارورات وأواني وبيعت بأثمان لم تخفف حماس الباحثين عن بركتها. من العيون الكثيرة التي انفجرت في الجزائر واكتسبت شهرة كبيرة حتى أصبح الناس يتوافدون عليها بشكل ملفت للانتباه 'عين بودة' ورأينا قافلات لحافلات وسيارات

متوجهة إليها وهي الموجودة في جنوب غرب الجزائر, ولم يكن لأصحاب البلدة كيف يستقبلون به العدد الهائل من الزوار واضطرت السلطات المحلية لاسترداد الخيام بالمئات. وكل هذا لانفجار عين قيل عنها أنها تبرئ من كل الأمراض ومنها العقر ونذكر كذلك عينا ذات بركة مؤكدّة عند زوارها وهي عين سيدي كانون بتلمسان والتي تتوجه إليها النساء اللواتي يرغبن في الإنجاب.
ومن الممارسات التي شاعت عند هذه العين الاغتسال بمائها وغسل ملابس الزائرة ووضع الملابس الداخلية التي يعتقد أن سبب العقر سوف يذهب بتركها على أغصان شجرة بقرب العين.
وكان حمام ربي بسعيدة قبلة العاقرات, ويذهب سكان المغرب إلى عين سيدي يحي بن يونس المشهورة في الشفاء من العقر لمن زارها وتوجد بوجدة بالمملكة المغربية.[6]
نسوق الحادثة التي أخبرني بها أحد المتحدّثين كمثال لما يعتقد في بركة المياه:
حين ذكر لزوجته ولم تكن تلد منذ 7 سنوات أن في ولاية عين تموشنت يوجد كهف يسيل من أعلاه الماء على شكل قطرات و أنه مهما زارت المرأة العاقر هذا الكهف ووضعت رأسها تحت مكان نزول الماء بعدد سبع قطرات فقد يكون ذلك نافعا و جربّه الكثيرون, ورغم تحفظ الزوج لاعتقاده أن هذا من قبيل الخرافات والشعوذة وليس بالعقيدة وأن الله هو الوهاب للذّرية مما دعاه إلى طرح السؤال على الأئمة تكرارا.

2 زيارة الأولياء الصالحين

عرف الاعتقاد في الأولياء الصالحين والاعتقاد في بركاتهم مراحل متفاوتة حسب ألأوضاع التي سادت في المجتمع الجزائري.
فقبل الاستعمار عام 1830 كانت القبب والأضرحة متواجدة بكثرة في الغرب الجزائري بحيث إذا أريد حصر ترجمات وسير لهؤلاء الأولياء ولو بصفة مجازة لأحتاج إلى مجلدات [7]
كان تأثيرهم كبيرا بحيث أن المستعمر اهتم كثيرا بهم, بنفوذهم في المجتمع,وتأثيرهم في الناس.
ودرس المهتمون بالأنتروبولوجيا سير هؤلاء الأولياء والمعتقدات التي كانت حولهم نذكر على سبيل المثال الدراسات الآتية من طرف عسكريين . Marabouts et Confréries religieuses Musulmanes (للجنرال أندري)[8]
لإدمون دوتي[9] وغيرهما كثير.
وفي أواسط القرن العشرين, وفي إطار نهضة للعالم الإسلامي أراد مجموعة من العلماء المسلمين في الجزائر محاربة الاعتقادات والطقوس السائدة معتبرينها بدعة وجاء هذا في قانون وأهداف جمعية العلماء برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس.
واشتدّ الصراع بين أصحاب الزوايا وجمعية العلماء الذين كان يطلق عليهم البادسيين نسبة للشيخ عبد الحميد ابن باديس. واتخذ المصطلح مدلولا مجازيا لدى العامة وهو الزنديق, وتقلص قليلا تأثير الأولياء الصالحين خاصة في المدن حيث تواجد فروع للجمعية, ثم بعد الاستقلال والتوجه اليساري للبلاد ودخول متعاونين في التربية من كل المشارب أصبح لا يتعامل كثيرا بالأولياء إلا للأكثر نفوذا منهم (سيدي بومدين بتلمسان سيدي الهواري بوهران سيدي عبد الرحمن بالعاصمة سيدي عبد القادر الجيلاني الذي يوجد ضريحه في عدة مدن وغيرهم من الأكثر شهرة) نذكر أن لسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة الجزائرية ضريحا ضخما يزوره حتى كبار الناس في العالم ومن هؤلاء ملكة المملكة المتحدة طالبة النصر في الحرب العالمية الثانية ولجأت إلى الجزائر هاربة من لندن. كما صنف ضريح سيدي عبد الرحمن ضمن الآثار العالمية من طرف اليونيسكو.
وهذا حتى تغيرت القيادة في الجزائر في بداية الثمانينات عندما أكثر قادة البلاد من التردد على الزوايا و سارالمجتمع الجزائري وراء قادته مؤكدا القول المشهور بأن الناس على دين ملوكهم.
وبعد إنهاء هذه الفترة السياسية بتغيير قادة البلاد وما عرفت الجزائر من تغيير في المفاهيم أريد بها إصلاح الدين.حوربت المعتقدات هذه بكل الوسائل من الخطاب ألمسجدي إلى المحاربة العنيفة بتحطيم بعض القبب وإزالة الأضرحة.
وعندما تحسنت الأوضاع الأمنية في الجزائر وأعيد الاهتمام بالزوايا من قبل المسئولين توافدت

النساء الجزائريات إلى الأضرحة والقبور وازداد الرجال اهتماما بالزوايا حتى أسست جمعيات ونظم ملتقيات يأتيها الناس من كل جهة حتى المسئولون الكبار للبلاد.
وسوف يخرج عن نطاق هذا البحث إن تكلمنا عن جدوى هذا المعتقدات أو إن رجحنا رأيا من رأيين متناقضين. بل ندرس الظاهرة في جانبها الأنثروبولوجي فقط, ولم نأت بما سبق إلا لأهميته التاريخية.

خلاصة

و مهما يكن من أمر فإن أضرحة الأولياء الصالحين ما زالت منتشرة في القطر الجزائري. وقد قام الفرنسيون بدراسات أنتروبولوجية كثيرة لهذه الظاهرة. ويكفي أن نتأمل فهرست المجلة الإفريقية لندرك مدى الإهتمام الذى أولاه هؤلاء الباحتون لهذه الظاهرة الدينية الإجتماعية. ولعل ما تجب ملاحظته في نهاية هذا المبحث أن زيارات الأشرحة قد انخفضت, دون أن تنقطع. وقد يُعزى ذلك إلى التطور الذى شهده المجتمع الجزائري, وانتشار الثقافة الرسمية فيه, وتعميم التربية بين أفراده, غير أن النزعة الميثولوجية تقل راسخة في نفوسنا يصعب اقتلاعها, وطمسها بسلطة العلم والسحر التكنولوجيا. إنه النزوع الأسطوري كما يسميه " فراس السواح" المتجذر فينا,

الهوامش

---

[1]أخرجه الحاكم من مستدركه, و صححه عن أبي السعيد السيوطي (1|72)

[2]وو ان السحر محرم بالدين فإنه ممارس من طرف "الطلبة" خاصة و هؤلاء محسبون على الدين كون جلهم حملة القرآن

[3]"Apt, cité de Sainte Anne est dédiée à la mère de la Vierge Marie. Sa cathédrale (chapelle royale, trésor, " voile de Sainte Anne ") est l'une des plus anciennes de Provence. Les restes de la sainte, supposés rendre les femmes fécondes, ont autrefois fait l'objet d'un pèlerinage intense. L'un des plus célèbres est celui d'Anne d'Autriche, venue à Apt en 1660, remercier la sainte pour la naissance miraculeuse de son fils, le futur Louis XIV. " in luberon-news , revue numerique.

[4]لقد التقينا بمن ينفي لهذا المكان بركاته ويقول أن للّة مغنية المشراوية لا علاقة لها بللّة مغنية في الحدود المغربية وهي مجرد امرأة عادية لجأت لهذا المكان لصعوبة مسلكه وهذا لتأمن شرّ من أراد بها سوء

[5]حتى أصبح يطلق على الإنسان الذى لا يُقهر "هذا سبع بن عودة"

[6] تقول الأسطورة أن سيدي يحي هذا سابق للإسلام وأنه عاصر سيدنا عيسى ابن مريم وقبل وفاته بلحظات ضرب الأرض وانفجرت منها الغين وتقول الأسطورة أن اليهود تزور العين لنفس الغرض أي البحث عن الإنجاب

[7]يقول سكان القلعة التاريخية الموجودة بولاية غليزان أن بضواحي قريتهم يوجد 366 وليا صالحا منهم من له ضريح مثل سيدي دبة ومنهم من له حويطة صغيرة مثل سيدي عيسى

[8] Général P.J. André avec préface du Gouverneur Général de l'Algérie M.J.Soustelle. Ed. 1956

[9] Edmond Doutté ED Ernest leroux 1900